

قصص من الحياة

وَمَنْ تَأَنَّى مِنْهُ أَدَبُ الْغَرْبِ

لطائفة من أعلام الأدب الفرنسى

بول بورچيسه . آنا تول فرانس . أندريه تيريسه . فرانسوا كوپيه .
جى دى موباسان . دى بانثيل . مارسيل پريشو . چان لوران

مترجمة بقلم

محمد عبداللہ عینان

المحامي

ومقرونة بتراجم نقدية

(الحقوق كلها محفوظة)

[الطبعة الأولى]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٩٣٢ - ١٣٥٠ هـ

فہرست

صفحہ

۵	کلمۃ الافتتاح
	صحف من پول بورچیہ
۱۰	ترجمۃ پول بورچیہ
۱۲	مسأله ضمیں
۲۹	شریک فی الإثم
۴۰	صدقہ !
۵۰	الواحظ الضائعۃ
	صحف من آنا تول فرانس
۵۶	ترجمۃ آنا تول فرانس
۵۹	طالع بونا پارت
۷۵	درس عمیق الأثر
۸۰	شیخ المسکاری
	صحف من أندریہ تیریہ
۸۶	ترجمۃ أندریہ تیریہ
۸۸	الراقصۃ الأندلسیۃ
	صحف من فرانسوا کوپیہ
۱۲۸	ترجمۃ فرانسوا کوپیہ
۱۳۲	زلة شباب
۱۶۴	إنتحار !
	صحف من جی دی موپاسان
۱۷۰	ترجمۃ جی دی موپاسان
۱۷۴	الجمال العقیم

صفحة	
١٩٢	الناسك
٢٠٠	على القبر
٢٠٧	القاتل
٢١٣	رسالة مستحرة
٢١٩	يوم الربيع

صحف من تيودور دى بانثيل

٢٢٦	ترجمة تيودور دى بانثيل
٢٢٧	الحب الأول
٢٣١	الثوب الحريري
٢٣٦	سوء التفاهم
٢٤٠	الرق المشروع

صحف من مارسل پريشو

٢٤٦	ترجمة مارسل پريشو
٢٤٨	التاريخ
٢٦١	مقتل مدام أوبري
٢٦٨	ملاحدة !
٢٧٤	إخلاص

صحف من جان لوران

٢٨٠	ترجمة جان لوران
٢٨١	قصص القناع
٢٨٧	الرجل ذو السوار
٢٩١	صرعى الإثير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أتيت لي في الأعوام الأخيرة خلال عملي الصحفي ، فرصة واسعة
لدرس طائفة كبيرة من أعلام الأدب الغربي ، ولا سيما كتاب القصص
الصغير ، وانتهيت خلال الأعوام الخمسة التي عاشتها «السياسة الأسبوعية»
الى ترجمة طائفة كبيرة من آثار هذا القصص ، لعشرات من الكتاب ،
الفرنسيين والألمان ، واستطعت خلال هذا الاختيار المستفيض ، أن
أقدر كثيرا من الخواص المختلفة التي يمتاز بها أسلوب كل كاتب وفنه
وخياله ، ومذهبه الكتابي ونظرياته الاجتماعية . ولما كانت هذه الخواص
هى التي تسبغ على القصص كل قيمته الأدبية والفنية ، فقد كنت أحرص
دائما على أن أختار من آثار أولئك الكتاب ما يحمل طابع هذه الخواص
ويصورها . ولما كانت قيمة الأساليب الأدبية فى روحها وقوة بيانها ،
فقد حرصت أيضا على الترجمة الأمانة المطابقة ، وعالجت ما استطعت
إخراج هذه الأساليب فى تعبيرها وقوتها وروحها وصورها الأصلية ،
ولم أنصرف قط بحذف أو إضافة ، ولم أغير إلا فى بعض العناوين . ذلك
أنى أعتقد أن الترجمة يجب أن تكون جهد الاستطاعة صورة طبق الأصل ،
ولا أسبغ ذلك التلخيص أو التصرف الذى يمسح الأصل ويشوّهه ، فذلك

فى نظرى مذهب خاطئ للنقل ، إذا أريد بالترجمة أن تخرج صورا حية صادقة من الأدب المنقول عنه .

والترجمة على هذا النحو مهمة شاقة بالطبع ، تستلزم كثيرا من العناء والجلد ، ولكنها وسيلة فريدة لإخراج صور ونماذج من الأدب الغربى ، تتميزها نفس الروح ونفس الخواص الأصلية . وفى الظفر بمثل هذه النتيجة أو ما يشبهها أئمن جزء لهذا العناء والجلد . ذلك أننا فى عصر ترجمة ونقل . وما زلنا بالأخص فيما يتعلق بفن القصص واتخاذ وسيلة لتصوير مناحى الحياة والمجتمع والأخلاق والعواطف ، فى بداية البداية . وكل ما يخرجه كتابنا اليوم من أدب القصة ، تافه غث ، عاطل من كل فن وخيال وبيان وابتكار حقيقى . ومن الواجب أن نتردد فى هذا الميدان قبل كل شىء بالنقل الصادق للجلد ، عن أساتذة الفن ، وبالدرس العميق المترن لنواحيه وأساليبه وصوره المختلفة ، أما التلخيص الطائر لآثار الأدب الغربى ، والدراسة السطحية لبعض مذهبه ، والتعلق ببعض نظرياته ونواحيه ، على نحو ما يفعل الكتاب الفتيان اليوم ، فى مباحث ودراسات أكثرها غامض مضطرب ، فعبث واضح ، واستباق لنظام التقدم الطبيعى . وأما التأليف القصصى الذى يستغرق اليوم نشاط الشبيبة الكاتبة ، فهو فرار من ميدان العمل المجدى : من الترجمة الصادقة الشاقة ، والدرس الخطير . ومن ثم كان هذا الإغراق فى تأليف هذا القصص التافه الغث ، الذى يطغى اليوم على كل نواحى الأدب الرفيع المجدى ، جديرا فى نظرنا بالإشفاق والرثاء ، دون العطف والتشجيع .

وهذه مجموعة من نماذج الأدب الغربى ، كلها من القصص الصغير ، استخرجت عن ثمانية من أساتذة الأدب الفرنسى ، تكفى أسماؤهم للتنبؤ به بعقريتهم وسمو فنههم ورائع آثارهم . وقد تسنح لى فرصة لأخرج مجموعة أخرى من نماذج الأدب الألمانى . ولعلى ما كنت أقدم على ترجمة هذه القصص وإخراجها ، لو لم تكن قطعة من عملى الصحفى ؛ فقد رأيت فى الأعوام الأخيرة أن أحصر نشاطى الأدبى على المباحث التاريخية ، ولا سيما مباحث التاريخ الإسلامى . ولكن إخراج هذه القصص ، كان قطعة ممتعة ساحرة فى العمل الصحفى ؛ وكان التنقيب عنها يغرينى بقراءة عشرات المجلدات ؛ وكنت آنس فى ترجمتها غبطة ولذة ؛ وكنت أجهد النفس فى اختيارها ووفرة الطرافة والتباين والفن ، لئلى تكون صوراً حية صادقة من الأدب الغربى . ثم كنت أجهد النفس فى إخراجها فى أدق ما يستطيع من صور البيان العربى ، وأحرص فى نفس الوقت على روحها وأساليبها الغربىة ما استطعت . وقد كان ذلك أشق ما فى المهمة . ولكنى أعتقد أنى وفقت فى ذلك بعض التوفيق . وقد توهمت بذلك بعض دوائر المستشرقين ، واعتبرت هذه القطع التى أقدم بعضها اليوم ، نماذج حسنة للترجمة الدقيقة التى تجمع بين الحرص على الروح والأساليب الغربىة ، والبيان العربى المتين .^(١)

(١) راجع مجلة « العالم الإسلامى » الألمانية (Die Welt des Islams) — المجلد التاسع

جزء ٢٠ — ٤٢٣ ، أو كتاب « زعماء الأدب العربى المعاصر » (Leaders in contemporary

Arabic Literature) ، للاستاذ طاهر نجوى والدكتور كامبفارى فى ترجمة « محمد عبدالله

عنان » .

هذا وقد صدرت مختارات كل كاتب بترجمة نقدية وافية ، شرحت فيها خواص أسلوبه ونظرياته ، لكي يتلو القارئ مختاراته على ضوء هذا الشرح ، ويستطيع أن يتبين فيما يقرأ له شيئا من هذه الخواص والنظريات . وأمل أن يستطيع القارئ الذي قرأ هؤلاء الكتاب بالفرنسية ، أن يتبين في الترجمة العربية ، كثيرا من خواص الروح والأساليب الأصلية ، وأن يشعر ، رغم وحدة القلم الذي ترجم ، أن هذا القلم استطاع أن يجارى بعض الشيء هذه الروح والأساليب المختلفة ، لكتاب مختلفين . فأشد ما أغتبط له أن يأنس القارئ مثل هذا الشعور .

ولا يسعنى في الختام إلا أن أقدم خالص الشكر لصديقي محمد أفندى نديم ملاحظ مطبعة دار الكتب ، لما بذله من عناية في إخراج الكتاب في هذا الثوب الأنيق .

محمد عبد الله عناية
المحامي

القاهرة في أول مارس سنة ١٩٣٢

صحف

من

پول بورچیه Paul Bourget

بول بورجيه

بورجيه ، من أقطاب الأدب والنقد المعاصرين ، ولد بأميان في سبتمبر سنة ١٨٥٢ ، فهو اليوم في الثمانين ، ولكنه ما زال قوة أدبية مخصبة ، ينثر طرائف قلمه تباعا في كبرى الصحف والمجلات الفرنسية . كان والده أستاذا جامعا ، فشا نشأة حسنة ، وتلقى دراسة عالية وثقافة متينة . وبدأ ينظم الشعر منذ حداثة . ثم اشتغل بالصحافة . وفي سنة ١٨٨٤ زار انكلترا ، موطن أمه ، وقضى فيها ردها طويلا ، وأخرج عدداً أولى رواياته *L'irréparable* ، ثم *Cruelle Enigme* ، ثم *André Coruélis* ، وهي مأساة قوية مثيرة . وفي سنة ٩٢ ، أخرج روايته الشهيرة *Le Disciple* ، فمالت نجاحا كبيرا ، ويعتبرها البعض أعظم قصصه ، وأمتها أسلوبا ، وأوفرها اقتناا . وبعدها بعامين انتخب بورجيه عضوا بالأكاديمية الفرنسية ، فهو اليوم من أقدم أعضائها الأحياء . وله ثبت حافل من القصص القوية الساحرة منها : *La Duchesse blue* ، *Le Fantôme* ، *Terre promise* ، *Mensonges* ، *Complications sentimentales* ، *Un Divorce* ، *Un Crime* ، *Dramas de d'amour* ، *Cosmopolis* ، *Familles* ، *Conflits intimes* ، *Les Détours du cœur* ، *Le cœur et le métier* . وله أيضا ديوان شعر كبير ، وعدة قطع مسرحية ، وفصول في الوصف والسياحة مثل : *Etudes et Portraits* . وله كثير غير ذلك مما يضيق المقام بذكره .

وبورجيه كاتب وافر القوة والدقة والبراعة ، يكتب للخاصة ، وقاما يتناول في قصصه بالوصف غير الطبقات الخاصة والأوساط الرفيعة . فهو كاتب أرستقراطي ، يكتب للأرستقراطية في صورها المختلفة ، ويوقف مواهبه

القوية على تصوير هذا المجتمع الخاص ، وما يتصل بحياته . من بذخ وترف وإنافة ، وما يتخللها من نواحي الجمال والفن والعواطف الدقيقة ، وما يسرى إليها من عوامل الانحلال والفساد . وهو يعرض ذلك كله بأسلوب رفيع ممتاز ، ويبدى براعة فائقة في الوصف والملاحظة والتحليل والتعليل ، وبالأخص في جميع ما يتصل بنزعات القلب ، وأهواء النفس ، وتطورات الخلق الإنساني ؛ ويؤثر في تصويره دائماً جانب الحقيقة والمعقول ، على جانب الغلو والمفاجأة . ولا يميل بورجييه الى الفكاهة ، وقلما يثير الضحك . وقد يقصد الى الدعابة في بعض المواقف ، ولكنها أكثر ما تكون دعابة الملاحظة الدقيقة وسخرية التصوير . على أن الحد والخطورة يطبعان أسلوبه ومقاصده دائماً ، وكثيراً ما تغشى الكتابة صوره وملاحظاته ، وكثيراً ما ينتهى بالقارئ الى مفاجآت محزنة . ومع ذلك فإنه يأخذ اب قارئه بسحر عرضه ، وجمال وصفه ، وسموّ فنه ، فيقرأه رغم خطورته وصعوبته ودقته ، بلذة وشغف . ويرى القارئ في الفصول التي نقّدها اليه من بورجييه ، والتي اخترناها من ثلاثة من كتبه ، هذه الخواص كلها ماثلة في تفكيره وتصويره وأسلوبه . وبورجييه أستاذ في التحليل النفسى لا يجارى ، ولعله يكتسب من ذلك كثيراً بالوراثة والبيئة ، فأبوه روسى وأمه انكليزية ، وقد نشأ فى مهد علم وثقافة ، وكونه مزيج من النفسيات والحضارات المختلفة . على أنه يميل فى كتاباته الى التشائم والكتابة ، وقلما يصف الجانب المرح من الحياة ، فان عرج عليه ، عامله بسخرية وزراية . وهو يعنى بنفسية الشباب عناية خاصة ، ويعالج توجيهه الخلقى بمهارة . وهو الى جانب ذلك فنان يعشق الفن ويسمو به ، ولا زال يشترك فى رعاية بعض المتاحف والمجموعات الفنية . كذلك يعتبر بورجييه من أساتذة النقد المعاصر ، ولا زالت له فى ذلك الميدان جولات قوية بعيدة الأثر .

حالة ضمير

تناوت عشائى هذا المساء فى دار أعرف أنى لا بد أن ألقى فيها الأستاذ
ف . وليس الأستاذ ف من أكبر أطباء باريس فقط ، فهو يعدو أيضا ،
إذا شاء ، محدثا قوى التعبير . فلما تركنا المائدة وقع الحديث على أحوال
الضمير . فقص علينا الطبيب الأشهر واحدة منها ذات صبغة فنية محضنة ،
لاحث لى يومئذ أنها ذات مميزات خاصة ، حتى لقد استأذنته فى أن اتخذها
موضوعا لقصة . بيد أنى ، أكدت أحاول ذلك حتى آثرت أن أنفل أقواله
فقط . واليك القصة كما هى : وهى تحتل جدلا لا نهاية له . ولقد لبثنا
فى الليلة التى أشير إليها بعد انصراف الراوية الى الساعة الثانية من الصباح ،
ونحن نتحدث فيما إذا كان قد أخطأ أو أصاب التصرف فى الحادث الذى
أفضى إلينا بسره . وأزيد ، لكى لا أخفى حقيقة عواطفى ، أنى كنت ممن
استحسنه . بيد أنى أعترف أن الحالة غامضة ، وما زالت عرضة للجدل .
استهل حديثه بالحواب عن سؤال القاه أحدنا فقال : أجل ، شهدت
فى حياتى الطبيعة إحدى هذه الفواجع التى تتعلق بالذمة . واحدة فقط
فى أوائل عهدى بالمهنة . والحق أن الظرف كان من الخطورة والشذوذ ، حتى
لقد طبع نفسى كطبيب ، وبلاها الى الأبد . اضطررت أن أقرر أمرى
فى ذلك الظرف ، فاتخذت قرارا ذا صبغة خاصة ، وما ترددت بعد قط فى أن
أتبع بمنتهى الصرامة قاعدة سنت وقبلت يومئذ ، وهى : إن أعظم واجب
على الطبيب يبد كل واجب آخر هو خدمة المريض ، ويجب على الطبيب
ألا يعرف سوى هذا ، وألا يرى سواه . هل المريض غنى أم فقير ؟ هل
هو صديق أم عدو ، وعد أم عدل ، طيب أم خبيث ؟ هذا ما ليس من شأن
الطبيب . وكل ما يقدر ، هو أنه يرى آلة حية يجب فحصها واستجلاء

غامضها ، وإصلاحها بكل ما أوتي من ذكاء وقوة . وهذا هو لب المهنة وجوهرها . وليس من ريب في هذه النقطة من حيث المبدأ ، ولكنكم سترون في التطبيق ، أن ضمير الفرد قد يصطدم مع ضمير المهنة الذى صغت لكم معدنه . فويل للطبيب الذى تسول له نفسه أن يفسر دوره أمام فراش المريض ! فهو لن يظفر بعد بتلك السكينة النفسية التى حافظت عليها ، أنا محدثكم ، ستة وثلاثين عاما ، ازاء عملائى وفى المستشفى . ذلك لآنى منذ الفاجعة الخلقية التى ساقص ، لم أتحذلى هدفاً قط سوى مكافحة المرض مهما كان المريض ومهما كانت النتائج .

« ويرجع هذا الحادث الى تاريخ أذكره جيداً وان لم يرتبط بحادث خاص بى — الى أواسط يونيه سنة ١٨٦٧ ، وفى الثالث والعشرين منه توفى الأسناذ الذى لم أحب ولم أقدر أحدا مثله — تروسو ، ذلك الرجل المدهش الذى مازلنا نتلمس الى اليوم فكره مائلا فى كل مبتكرات علمنا ، وذلك العبقري البارع الذى كانت تزيه خلال بديعة ، وقلب يغدق حنانه على من يصطفيه من تلاميذه . وقد كنت ممن النحقوا بعيادته فى أواخر أيامه . وكان يعرفنى فقيراً جداً ، وكان من أعظم همومى أن أحصل على المال اللازم لطبع رسالتى التى أدين بموضوعها اليه . ففى أوائل يونيه هذا ، أرسل يستدعيني الى مكتبه ، فكانت آخر مرة رأيته فيها . ولم تكن تساوره ذرة من الريب فى مصيره ، فتوفى . ولكنه توفى واقفاً ، وما زلت أرى ، وأنا أحدثكم ، أمامى شبهة المتقع ، الفياض مرارة وعزة وذكاء وألماً . وكان يجيب عن أسئلتى بقوله : « انى لن أكون حياً فى يونيه » . ثم أشار الى بيده الطويلة الشاحبة يحظر الجواب وقال : « لقد طلبتك لأرسلك الى أحد مرضاى وهو يقيم اليوم فى ضيعته فى الريف ، ولا يستطيع القدوم الى باريس ، ويجب أن يعنى به طبيب ثقة يفهم تعليماتى . وقد فكرت فيك ، بل لقد حددت الأتعاب »

ثم ذكر لى رقبا رأيته يومئذ ضحيا جدا . وكان هذا الأستاذ الكامل قد فكر فى هذا أيضا ! ثم أخذ، دون أن يفسح لى لشكره، يسرد على التاريخ النفسى لهذا المريض، بذلك البيان الفائق الذى لم أعرفه لسواه، بل لم أشعر ببراعته كما شعرت بها فى تلك المحادثة الأخيرة . وكان المرض كلويا حادا يقترب بمضاعفات عصبية . ولتسمحوا بهذه التفاصيل لأنى أروى لكم قصة فنية . وقد أصيب المريض بنوبة رآها تروسو عن بعد خطرة جدا . بيد أنه قال لى إنى أستطيع إنقاذ المريض اذا اتبعت ما ألقى على من التعميمات . ثم قال لى : « ان الوقت ضيق ، ويجب أن تسافر هذا المساء ذاته » ولاح البشر فى أسارى ذلك المجاهد الباسل ، الذى لم يمح نفسه هدنة قط ، لما أبدت من قبول وأهبة وقال لى : « لم أكن أنتظر منك غير هذا ، وسوف تظفرو . وهذا ما أعدك به . وان أعيش حتى أشهد هذا . ولكنى أعرفه وأحب أن أعرفه » . ثم تناول يدى وهو ينهض ، فأردت الاحتجاج أيضا ، ولكنه وقفنى وجذبنى الى مقعده قائلا : « والآن أوصيك وصية أخيرة ، هى أن تذكر هنالك كما نذكر فى كل مكان ، ومدى حياتك ، شعاع أبقرات ، وهو أن الطبيب يجب ألا يذكر وألا يسمع شيئا مما شهدته عند فراش المريض » . وكانت هذه آخر كلمات سمعتها من ذلك الغم الذى كثيرا ما ألقى صادق الفحص والتشخيص .

٢

ونفذ ذلك اليقين الذى آنسته من أنى لن أرى بعد ذلك الأستاذ الأسمى ، الى نفسى قويا حتى كان فكرتى الوحيدة بقية اليوم . ولم تساورنى وصيته الأخيرة إلا حينما ركبت القطار . فبرزت الى ذهنى بفاة وسالت نفسى : لماذا أصر الأستاذ على هذه النقطة ؟ انه لا يتكلم عبثا . فهل تضم الدار التى أذهب إليها سرا يجب ألا أكشفه ؟ وهل يخاطر المريض بأن

يعترف أثناء نوباته بأمور يجب ألا أذيعها ؟ وهل تقع حول ذلك المحتضر فاجعة يجب ألا أدركها ؟ كنت أقلب هذه الأفكار تباعا فلا أدركها ، ولم أكن أعرف سوى أن المريض الذى سأراه يدعى الكونت ده . ولنفرض أن اسمه روكتيل . وكان يقيم يومئذ فى قصر بالقرب من نواى . وكنت أعرف أيضا أنه كان ضابطا فى البحرية ، وأنه فى الرابعة والستين من عمره . وهذا كل ما عرفت ، فهل كان الكونت ده روكتيل متزوجا أم لا ؟ أم هل كان أرمل ؟ وهل كانت له أسرة أم لا ؟ هذا ما لم يذكره لى أستاذى . بيد أنى قلت لنفسى بعد تفكر : « لن أرى شيئا ولن أصغى إليه ولن أدركه » . وكنت قد غادرت باريس فى قطار الساعة التاسعة مساء ، فلما نزلت فى محطة نواى فى الفجر ، كنت قد قطعت شوطا من النوم أكلته فى العربة التى حملتنى . وما تنفس الصبح حتى كنت أمام قصر روكتيل ، متعشيا صافى الذهن ، متأهبا لأداء مهمتى ، معترضا ألا أذكر وسعا فى أن أشرّف اختيار الأستاذ العظيم الذى أمثل .

وكان روكتيل قصيرا عتيقا ، عبوسا ، وعرجال ، نخيل لى وأنا أنزل من العربة ، ان ذلك البناء الموحش يضم مناظر موحشة مثله .

٣

وماكدت أجوز أول خطوة فى ذلك القصر الموحش ، حتى لقيت الجواب على سؤال من الأسئلة التى وضعتها لنفسى أثناء السفر . وذلك أن خادما أخطرنى فى الحال بأن الكونتة تنتظرنى لتقودنى الى غرفة الكونت : وإذن فقد كان الكونت متزوجا . وهنا ذكرت وصية الأستاذ فهل هذا هو السر الذى أراد أن يحذرنى من مفاجأته ؟ وهل كان الكونت متزوجا من امرأة أصغر منه سنا ؟ وهل كان يوجد من جراء ذلك ولا سيما ازاء ما يكبده اياه

مرضه من قهر وغم ؟ بيد أن هذه الفكر الروائية انهارت لأول نظرة ألقيتها على الكوننة، فقد كانت في نحو الخامسة والخمسين، بيضاء الشعر، قد أضنى بحياها السهر، وأضاءت الحمى عينيها، اللتين لم أر فيهما بادئ بدء سوى الجزع لمرض زوجها .

قالت لى : « أنه ينتظر وقد عيل صبره كثيرا يا سيدى . أما أنا فأسألك فقط أن تفضى إلى بكل الحقيقة » .

ولم أدهش لاهاته الكلمات القليلة التى أعقبتها بشرح موجز لآخر أعراض لوحظت على المريض، لأنها كانت تعرب فى الواقع عن جزع عميق، مشروع فى مثل هذا الظرف . فوعدها أن أحدثها بكل صراحة . وقادتني الى غرفة الكوننة . وهناك وجدت طبيبا من زملائي الريفين قضى ليله الى جانب المريض . وفى الحال أقنعت أن الرجل هالك إذ كان الموت مرتسما على وجهه المتقنع . ولكن الموت كان يصارع إحدى هاته العزائم التى تدحض أدق الفروض . وقد قرأت هذه العزيمة حينما دخلت ، فى إنسانيه الملتهمين . وكنت أمثل فى نظر هذا المحتضر الشخص الأوحى الذى يثق بعلمه أتم ثقة ، وأدركت أن هذه الثقة فى أستاذى هى الملاذ الذى يجب أن أفصده فى ذلك الهيكل الذى أشرف على الزوال . وكان فعل هذا الوحى البعيد عجيبا ، إذ ماكدت أشرح للمريض ما أحمل من تعليقات دقيقة بشأنه، حتى لاح لى أن الاحمرار يسرى الى وجته ، وأن الحياة تعود اليه .

قال لى زميلى الريفى لما انفردت به بحجة الاستشارة : إن ذلك مدهش ، فقد اعتقدت أنه لن يمضى هذه الليلة ، ولكن منظره فقط أعاد اليه الحياة .

قلت : بل قل هو ذكرا سم تروسو وحده ، ثم عنايتك به .
فقال ضاحكا : لا تعتذر أيها الزميل . ثم خفض صوته وقال بجذ :

«أنت لا تدري أى عبء ترفعه زيارتك عن نفسى ، وأى غيطة تخالجنى للتخلص من هذه المسؤولية . وعندى أن هذا الاشتداد المفاجئ فى سير المرض ، يرجع الى سبب لا أعرفه ولم يقبله لى أحد . فالكونت لم يصب بردا ولم يربط ، ولم يخوف عن نظام العلاج . ولست أرى لذلك سوى سبب ، هو الانفعال العنيف . وقد سألت السائق وهو من هنا ، والاشاعة تجرى فى القصر بأن منظرا هائلا حدث فى الأسبوع الماضى بين الكونت ده روكثيل وزوجه . أفلم يقل لك مسيو تروسو شيئا عن الأسرة ؟

أجبت : كلا ! على الاطلاق .

فقال محدثى بعد برهة تردد : الحق أن الصراحة واجبة بين الزملاء . فاعلم أن الكونتة لم تكن زوجا مخلصا . وقد لبثت مدى أعوام ، تتصل فى شبه علانية بقريب لزوجها ، هو ابن عم له يقيم بالقرب منا . وأريد بالعلانية ما يذكره الناس ، لأن الكونت لم يعرف بالطبع شيئا من ذلك . ويقال أيضا إن واحدا من أبناء الكونت الأربعة ، وهو الثالث ، إنما هو ولد خليلها الذى توفى منذ أربعة أعوام . ويلوح لى أن الكونت لم يكن يرتاب يومئذ فى شىء مما شهدت من تأثره لموت هذا الصديق الزائف ... فكيف ولم استيقظ ريبه اليوم فى حين أن ذلك لا يفيد سوى أن يسم لحظاته الأخيرة ؟ هذا ما أجهله . ولكن ريبه قد اضطرم . متى ؟ هذا ما أجهل أيضا . بيد أنه أخذ من يوم لآخر يغير من معاملته للكونتة . وكان ذلك بادئ بدء فى ثوب نزع لا يكاد يخفيه أمام البعض مثلى ، ثم كان نزقه ظاهرا . وكنت أستطيع أن أرجع ذلك الى تهيجه الذى هو نتيجة لازمة لمرضه . ولكنى أردت أن أتحقق يوما ، فلفظت اسم خليل زوجه المتوفى أمامه ، بينما كنت أجس نبضه ، فشعرت فى الحال من نبضه بالحقيقة ، وهى أنه يعرف اليوم أويتكهين .

قلت : وما الذى تستخلص من ذلك ؟
أجاب : ان هذه النوبة التى ستفضى الى مصرعه — ولا بد انك من رأيي -- ترجع بلا ريب الى حديث جرى فى ذلك مع الكونتيسة . فهل اعترفت ؟ أم هل وصله تبايغ غفل ؟ أم حصل على شهادة حاسمة من وصيفة قديمة ؟ أم عثر بمستند ؟ انك لو شاهدته مدى خمس دقائق والكونتيسة أمامه ، وخمس أخرى وهى بعيدة عنه ، لاقتنعت مثلى . وكونه لم يوفق الى استدعاء أبنائه فى مثل هذا المأزق آخرسهم يصيبه . فهو ليس على يقين من أنه أبو الجميع . وانك لتدرك الآن مبلغ غبطتى بقدموك . وانك لتعلم الآن من الأمر قدر ما أعلم .

٤

ولقد أنارت قصة الطبيب الريفى لى كثيرا من خفاء هذه الوصية الغامضة التى ألقاها على أستاذى الكبير ذو البصر الثاقب . وكانت هذه الموهبة فى تفهم الشخص معنى وجسما ، بنفس المهارة ، موضع عبقريته ، فقد استطاع الأستاذ أن يشخص أعراض هذه المأساة الجاثمة فى تلك الأسرة ، بنفس الوضوح الذى فسره به أعراض داء الكونتيسة ، فأعجبت مرة أخرى بنفاذ بصيرته ، وبذلك الدرس الذى ألقاه على فى الحزم ، بالإشارة الى اللفز الذى سأصطدم به دون أن يكشفه لى . وكان أول ما عنيت به حين عدت الى جانب المريض ، هو أنى أفرض حوله عزلة تامة . ولقد أنست فى إنسانيه لحظة غريبة من الفرح حينما أجبت على سؤال الكونتيسة : «أترى يشملنى أمر الملع ؟» فى جفاء «أجل يشملك يا سيدتى» . والحق أنى لم أك أتوقع أن يفضى هذا القرار الى نتيجة شدة ما كنت أريد تجنبها ، أعنى تدخل فى هذه المأساة الزوجية التى لم أعرف إلا خلاصتها . وما مضى علينا ، أنا والمحاضر ، نحو ثلاثة أرباع الساعة حتى سألتنى سؤالاً ، جثم البساطة فى الظاهر ، بيد

أنه كان يتصل بفكرة الانتقام التي يجيش بها رأسه ؛ وما أغدقت عليه الإسعافات الأولى حتى خيل لى مدى لحظة ، أنى أرى أمامى بدل المختصر الذى هرعت لأذل ذهابه ، من لا بد أن كانه الميسودى روكفيل ، أى رجلا مريرا منظما ، ذا خلال فى مجموعها تنضح جفاء وسموا . وقد بدأ يحدثنى عن الأستاذ الذى جئت بأمره ، وعن عرفانه لمبادرتى بمغادرة باريس الى ذلك البلد النأى ، وعن أمله فى أن لا ينقص شىء من راحتى فى روكفيل ، وعن أسفه أن لم يستطع هو أن يقوم بواجب الضيافة .

ثم قال : يجدر بك أن تذهب لتجوب القرية هذا الصباح ، فانى أشعر بتحسن لم أشعر به منه أيام ، وسوف تتركنى أستريح . ولا بد أن تشاهد كنيسةنا فانها شائقة جدا ، وترجع الى القرن الحادى عشر . هذا الى أنى أطلب أن تسدى لى يدا حقه . فانى أريد أن أرسل بعض البرقيات ، وأنشدك أن تقدمها الى مكتب البريد بنفسك ، أفتجيب سؤلى ؟

فاه بهذه الكلمات بلهجة غريبة ، ولمعت عيناه بشدة ! وظاهر أن ذلك لأنه لقي فى النهاية شخصا ثقة يطلب اليه أداء خدمة لها فى نظره أهمية عظمى . فم كنت أستطيع جوابه غير القبول ؟ سألتنى أن أجلس الى المائدة وأن أكتب ما يمليه على من صور البرقيات . ولقد ارتجفت لعنوان أولها ، فقد كانت رسالة الى الميسو چان ده روكفيل ضابط الفرسان فى نانصى ، وكانت الثانية الى الميسو لويس ده روكفيل وهو ضابط أيضا فى بواتيه ، والثالثة الى الميسو روبرده روكفيل الملحق بسفارة لوندرة ، والرابعة الى الميسو إيمرى ده روكفيل الطالب بمدرسة الهندسة بباريس . وكان هؤلاء أولاده الأربعة . وكان موضوع البرقيات واحدا هو خطورة حالته ، ودعوة بالحى العاجل . ثم قال لى : لقد بحثت مواعيد القطر ، فهم يستطيعون القدوم الى هنا عصر غد ، وعليك أن تحافظ على حياتى الى ذلك الحين .

فأكدت له أن الخطر ليس بداهم .
فقال لى : وهل تعدنى بارسال البرقيات توا ؟
أجبت : أعدك بهذا .
قال : وأن تقدمها بنفسك .
قلت : وأعدك بهذا أيضا .
قال : وألا يعرف انسان أننى كلفتك بها قبل أن ترسل ؟

ولئن ترددت فى تفهم هذا التضرع الأخير لحظة ، فقد كانت اللهجة التى سألتنى بها الكونتة كفييلة بالإيضاح ، وقد كانت تنتظرنى ، وهى تجيش باضطراب عصبي لم تستطع إخفاءه . وقد علمت بعد ذلك الباعث المعقول الذى حدا بها ألا تخطر ابناءها الأربعة باقتراب أجل ذلك الذى يحملون اسمه . ولكن هل كانت تعدم الرسائل البرقية لو أن المحتضر عهد بها إليها ؟ هذا ما كان يعتقد المسيو دة روكشيل . ذلك أنه لم يكتشف إلا بعد أعوام ملحقه من خيانه ، فكان طبيعيا أن يتصور هذه المرأة مارد نفاق . ومع ذلك فقد كانت امرأة فقط ، وامرأة مسكينة ، استسلمت لشهوة ما كان واجبا أن تطيعها . وكانت تناضل لتنقذ على الأقل مستقبل الولد الذى ولد فى مهاد الخطيئة . وكان الوعيد الذى وجهه زوجها إليها ، فى غموضه أشد روعة ، يذهلها جزعا دون أن تستطيع وزنه أو تقديره . فكان ذلك التوجس الخفى الأليم يسمرها فى البهو الذى يشرف على الغرفة التى احتجبت فيها مع الكونت زهاء ساعة . ماذا قال لى ؟ قرأت هذا السؤال فى عينيها . وشعرت بالاحمرار يصعد الى وجهى . وهذا بالرغم من أنها لقت الى سؤال آخر إذ قالت : لقد وجدته فى حالة سيئة اليس كذلك ؟ لقد وعدتني صراحة . فأجبت : لقد وجدته كذلك فى الواقع . ولكننى أسعفته ما استطعت . وقد استفاد من ذلك فائدة كبيرة . فحذار من الإنفعالات . وتجنب العزلة التامة ...

فقلت ، فى اضطراب يشتد : أترى من واجبى إذن أن أخطر أولادى ؟
فزدت احمرارا . وهل أستطيع أن أقول لها اننى أحمل فى جيبى البرقيات
التي أملاها على المحتضر ؟ لقد أقسمت له بشرفى ألا أبوح بسرهما لإنسان .
وأجبت : يحسن أن يحضروا .

ثم لزممت الصمت ، ولم تلح بعد . ثم انتحلت قصيد الصيدلى عذرا
لمغادرة القصر والذهاب الى القرية . ولم يكن كذبا . فقد أردت أن أشرف
بنفسى على اعداد قدر من « الأكسجين » ليتنفسه المحتضر . ولم تمض
ساعة حتى أرسلت البرقيات الأربع . وما عدت الى روكثيل حتى بعث
المريض فى طلبى ، وعلم اننى قمت بما طلب .

٥

قال الدكتور ف : وترون معى أن الاصطدام الفجائى بمثل هذا الس
المؤلم بالنسبة لفتى فى الخامسة والعشرين لا يعرف من الحياة إلا أروقة
المستشفى ، وهو المحاضرات ، إنما هو اغراء شديد يحاول دون
مراعاة القاعدة الآبقراطية . بيد أنه إذا كانت طُلعتى قد اضطرمت
فى الساعات التي تلت الى أعظم حد ، فانى على الأقل لم أفعل شيئا لإروائها ،
بل كنت أعنى بعليلى كما أعنى بأى مريض فى مستشفى « الأوتيل ديه »
لا يعرف لى إلا بكرة سريره . ولكن كان مقدرا أن يذهب هذا الجهد الذى
أبذل لاجتناب التدخل فى المأساة سدى ، لمصادفة ترجع الى نظام القصر
ذاته . فقد قلت لكم إن روكثيل كان قصرا عتيقا ، عظيم الكفاة ، حوّلت
بعض أروقته القديمة الى غرف صغيرة للزينة . وكانت احدى هذه الغرف
تقع بجوار الغرفة التي يرقد فيها الكونت ، وقد حوّلت مؤقتا الى صيدلية
صغيرة ، ولها بابان أحدهما يفضى الى غرفة النوم والآخر الى البهو المستدير .

فحدث في مساء ذلك اليوم الحافل بالاكشافات ، أننى حينما شرعت فى كتابة التقرير الطبي عن الساعات الأولى ، لم أجد السجل الصغير الذى قيدت فيه حالات القلب المتواليّة ، فذكرت أنى لا بدّ قد نسيته فى غرفة الزينة ، وارتجفت خشية أن يكون قد وقع فى يد المريض ، وذهبت فى الحال لأبحث عنه مخترقا الباب المستدير على أطراف الأصابع لىكى لا أوقظ الكونت إذا كان نائما ، بيد أنى ما كدت أجوز العتبة حتى سمعت صوت الكونت والكونتة ينفذ خلال باب غرفة النوم المنفرج قليلا ، جليا كما لو كنت الى جانب المريض ذاته ، وكان واجبا أن أنذرهما بحضورى بالسعال مثلا أو بتحريك قطعة من الأثاث ، لأنهما لم يسعرا بدخولى غرفة الزينة ، وهما يشغلان بالحديث . ولكن لا ، فانى لبثت جامدا كالمسحور دهشا ورعبا ، أضغى الى المريض « يستجوب » زوجه وهى تجيبه بنبرات تمزق القلب حتى انى ارتجفت ألما .

قال الكونت : أجل سوف يكونون هنا غدا ، وقد اعتقدت أنك تحاولى دون إخطارهم بيد أنى أستطيع الخداع أيضا متى شئت .
فأجابت الكونتة : أكرر أنك لم تكن فى حاجة الى هذه الحيلة ، لأنك لو كنت فقط أبديت لى رغبة فى رؤيتهم لكنت أبرقت إليهم بنفسى .
قال الكونت : « ان وسيلتى أوثق وأنجح » ثم قال بخشونة وغلظة :
« أجل سوف يحضرون ... ولكن ألا تكلمت أخيرا قبل أن يصلوا ؟ » .
أجابت : لقد قلت لك كل ما أستطيع قوله .
قال : أسألك مرة أخيرة عن اسم الولد الذى ليس منى ؟
فمالت فى أنين : أما هذا فأبدا
فصاح بها : أبدا ؟ انى أعرف كيف أرغمك .
قالت : لقد تكسرت النصال على النصال ، فليس بعد من شىء

لا أحتمله ، وأنت تعرف ما قاسيت لأنك قرأت هذه الرسالة المنكودة ...
فصاح : ان ما أريد أن أعرف هو الاسم : فهيا . أهو جان ولدى
البكر ؟ هذا مستحيل . أم هولوى ولدى الثانى ؟ هذا مستحيل أيضا .
فقد كنت فتية يوءئذ . أم هوروبر ؟ أم إيمرى الأخير ؟ لشد ما أحببته
آه انه لمن دى . أم هو الثالث . لقد أحببته كثيرا أيضا : هيا ، من هو ؟
من هو ؟

قالت : لن أجيبك .

قال : بل سوف تجيبين ... وإلا هدرت شرفك أمامهم ، ولو مت غدا .
وغدا سيكون الأربعة هنا حول سريرى . وعندئذ أقص عليهم ما فعلت ،
وكيف كان لك خليل ، وكيف عرفت من هو ، وسوف أتلو عليهم تلك
الرسالة ، رسالة هذا الوجد التى لم تجدى شجاعة لحرقها . يالله ، كم شغفت به
حبا ! سوف يقرؤونها ، ويعرفون أن منهم واحدا ليس منى . ولأموتن
بعد ذلك ، أى بعد أن أكون قد انتقمتم ...

فصاحت : انك لن تقدم على هذا العمل الشنيع يا أميديه ! ولن
تفرض على ثياب العار أمام أولادى مدى الوقت الذى بقى لى من الحياة .
قال : أريد الاسم . تكلمى اذن ، من منهم ليس ولدى ؟

قالت : لست أجيب . ليس فى وسع الأم أن تجيب ، فتسلم اليك ذلك
الولد ، وروحك يضطرم بمثل هذا البغض . وأؤثران تنزل النقمة بى .
فقال بغلظة أشد : سوف تنكبين أنت اذن .

قالت : ولكن أذكرياسيدى ربك الذى قد تلقى .

قال : غدا سوف أزهدق ، ولكن بعد أن أكون قد انتقمتم .

ثم صمت الصوتان ، فسمعت زفرات أليمة علمت منها أن الكونتة لم
تقو بعد على احتمال ذلك الحديث الرائع . بل ماكنت أنا لأفوى بعد على

الاصغاء اليه ، ففررت من المترين ، وقد اهتزت كل جوانحي ، وبحقتني قسوة هذا الرجل الفياضة ، وبؤس هذه المرأة الفياض ، رعبا وإشفافا . وأذكر إنى نفذت الى الغرفة التي خصصت لى ، ولبثت هنالك زهاء ساعة أرجف من سائر أوصالى ، ولا أستطيع ان أكتب سطرًا من المذكرة التي يجب أن أرسلها الى تروسو . بل لقد كدت أسروقتئذ لأستاذى المبهجل ان بعثنى الى روكفيل ، وهو يعرف ما يحيط هذه الاسرة من الفواجع الأليمة . فقلت لنفسي ، وأنا أعرك الورقة التي أعدت أمامى فوق المائدة «ماذا أتيت أصنع هنا ؟ ألكى أمهد السبيل لهذا الحديث بين ذلك الضال ، وأولئك الفتيان الأربعة الكرماء ، الأبرياء من خطيئة أمهم ؟ لقد كانت هذه مهمتى ! وهذا ما سوف يفعل كما قال . وهذا هو سر هذه الارادة فى البقاء التى دهشت لها هذا الصباح ، فانه يريد أن ينتقم وأى انتقام شائن ! ولكم تصيب الكونتة فى أن لا تسلم اليه اسم ولدها من الخليل ! فهى بذلك تفضح اسمه لإخوته ، فى حين أنها بالصمت قد يتاح لها أن يرتد الكونت عن عزمه أو يعوت قبل أن يرتكب هذه الجريمة ، جريئة أن تلوث شرف أم فى نظر أولادها ، وأن تلقى فى قلوب رجال ريبا فى شأن مولدهم ... وكيف السبيل الى اتقاء هذا العار ؟ لو أن للكونت قليلا من ايمان أهل طائفته لكان يكفى لذلك قسيس ، ولكن الكونت لا يؤمن بشئ ... وأنا الذى أرسلت البرقيات ! فوالله لو علمت من قبل ما أعلم الآن ما أرسلتها . ولكن ألا يفضى الانفعال الذى يحدثه هذا المنظر الى أزمة جديدة فيزهق ؟ » .

وبينا أنا فى تلك المناجاة ، إذا بقرع محموم على الباب ، يوقظنى من ذلك الكابوس . ثم ظهر خادم ممتقع الوجه ، ونبأنى بأن الكونت قد أصيب بنوبة . فأصابتنى رجفة ذلك الوهم الذى يأخذنا إذا ما وافقت الحوادث الخارجة عن إرادتنا فجأة ، أمنية نجيش بها ونريدها فى الحال . ومع ذلك فلم

يك ثمة في الأمر سوى حادث طبيعى جدا . وفهمت من ذكر الخادم للزوجة ، أن المريض قد أصيب باحتباس بولى شديد هو من خواص الداء الكلى المزمن متى وصل الى ذروته . وكان انفعال الحديث الذى سمعت فى مخبئى يكفى لتعليل هذه الأزمة التى لاحت لى فى منتهى الخطورة مذ أشرفت على غرفة المريض . فان عدّة من الحشم كانوا حول الفراش ، يحاولون إسعاف الكونت الذى أصابته نوبة حادة تشبه الصرع ، كثيرا ما رأيت تروسو يقفها بالضغط على الوريدين تباعا . وقد حاولت أنا هذه الوسيلة عبثا مدى دقائق ، وأنا أرى الكونتة تجثو فى مؤخرة الفراش وهى تصلى معتمدة رأسها بين يديها . ترى . اذا كانت تطلب الى الله ، هى التى لبثت تقيه رغم خطيئتها ؟ هل كانت تدعوه أن يزهب زوجها قبل أن ينفذ وعيده الهائل ، مادام أنه مقضى عليه ؟ أم كانت تقدّم ألهما قربانا للتكفير عن سعادتها الأثيمة فيما مضى ؟ هذا ما ساءلت نفسى عنه فيما بعد . أما وقتئذ ، فقد كنت أتفرغ للمريض الذى أرى الخطر الداهم يحرق بحياته . ولكن وسيلتى الأولى لم تفلاح فلم تبق سوى الوسيلة الجريئة أعنى الفصد .

٦

ففى تلك الآونة وثبت الى ذهنى مدى دقائق خلتها استطالت ، حالة الضمير ، فى وضوح يصعب على أن أصوره لكم . ولو كان بينكم زميل لى لاستطاع أن يفهمنى . بيد أنكم شهدتم جميعا طبيبا كبيرا يدعى للاستشارة ، ولا بد أنكم لاحظتم جميعا ما يصيب حياه من تغيير أثناء فحصه للعليل ؟ وقد رأيتم بلا ريب جراحا على وشك البدء فى عملية جراحية ، لاحظتم هذا التغيير يرتسم على وجهه ؟ عندئذ ، فى تلك اللحظات الحاسمة فى مهنتنا ، تقع ظاهره من التفنن العميق ، وذكاء لمواهبنا ، حاد جدا ، قوى جدا ، حتى لقد عرفت

نفرا من نوابغ الأطباء لا يستطيعون تأدية أكثر من استشارة خطيرة في اليوم الواحد؛ وبعض كبار الجراحين، يلزمون الفراش متى غادروا المستشفى، ويرقدون لأغين مدى ساعات . أقول لكم ذلك ، لأوضح لكم كيف وثبت الى ذهني بخفة بادرة تأمل تقتضى الساعات لدرسها ، فلم تدم سوى لمحة البرق ! كان المريض أمامي ، يهتز من ألم النوبات العنيفة . فإذا لم أعمل فهو هالك ، وهو هالك اذا عملت . وكل ما أستطيع أن أومل هو أن القصد يقف الأزمة ، فتتأخر الوفاة يوما أو اثنين أو ثلاثة على الأكثر . أعنى أني «سأعطيه ما يلزم بالضبط من قوة ووقت لإتمام الانتقام الأليم الذي توعد به زوجه » سرت هذه العبارة الى ذهني بمثل هذه الألفاظ ذاتها ، وكأنا هتف بها في أذني صوت . هل أغدو حقا ، شريكا في الإثم ، بإطالة حياة أعلم وأرى أنها زاهقة ، فأسبب نكبة خمسة أشخاص ، هم تلك الكوتة المنكودة التي مزقت فؤادي بزفرتها ، وأولادها الأربعة الذين خيل لي من مهنهم أنهم فتيان ذوو مستقبل وهمة . استمر الهاتف يهتف : « كلا ، فلن تساعد في ارتكاب هذه المهمة الشديدة ، هذا الى أن القصد قد يخفق أيضا ، فهو ليس بفرض مطلق ، وهناك من الأطباء من لا ينصحون به في مثل هذا المأزق » ولكن صوتا آخر هتف بي « أجل ، ولكن لو كنت في مكان آخر ، أمام مريض آخر ، فماذا كنت تصنع ؟ » وأجبت رغما عني «لقد كنت أفصده...» أليس واجبا على الطبيب ألا يذكر شيئا مما رأى وسمع وفهم ؟ وشب المبدأ القديم المبجل الذي يعتنقه تروسو الى ذهني بخفة ، فرأيت أن أعمل كما لم أكن رأيت أو سمعت أو فهمت شيئا ، أعنى كما لو كنت في أروقة المستشفى . كان في هذا واجبي كطبيب ، في تلك القاعدة الأخلاقية التي تقول بأن المريض بالنسبة إلينا إنما هو مريض قبل كل شيء ، ثم هو مريض ، وهو أخيرا مريض فقط ، بغض النظر عن كل اعتبار آخر...

ولكن ما ذا يكون من واجبي كرجل ؟ ألم أكن مرغما ، وقد فاجأت السر
الذى فاجأت ، أن أحول دون وقوع هذه الشناعة ؟ يكفى أن أترك المريض
يفعل فعله ، وينتج أثره متقدما بضع ساعات . ثم ماذا ؟ ... تصورت بفأة
أن الكونت ده روكفيل قد مات ، وقد عدت الى أستاذى فى باريس أبلغه
نتيجة مهمتى ، فيسألنى « ألم تجرب الفصد ؟ » ورأيت النظرة التى يقترن بها
هذا السؤال ، فشعرت اننى لا أقوى ماديا على احتمالها ، لأن ضميرى كطبيب
هو الذى سيحددنى بواسطة عيذه الثابتين ، ويصدر حكمه على . وأزالت
هذه الصورة فى الحال كل أسباب ترددى فأستجمعت كل عزمى ، وطلبت
أن يعد ما يلزم للفصد ، ولم تمض ربع ساعة حتى كنت قد استخرجت من
جسم المسيو ده روكفيل اربعمائة جرام من الدم . وكانت الهزات أثناء ذلك
تهدأ رويدا ، والتنفس يعود ، ويعود معه الرشاد .

لقد كان الموت ياتمر أيضا

ثم قال الراوى « وقد نجحت هذه الوسيلة نجاحا باهرا حتى أن الأبناء
الأربعة حينما قدموا ، ألقوا أمامهم ذلك الشخص القاسى ، بالغا كل رشاده ،
وكل قوله ، وكل بغضه . وقد ساورنى أمل فى أن أحول دون وقوع هذه
المأساة الفظيعة بأن أحظر دخول أكثر من شخص الى غرفته فى وقت واحد .
ولكنى لم أحسب حسابا لعزمه الشرس الذى وجب أن تنكسر أوامرى على
صغرتي . بل لعله كان ينهض من فراشه ويذهب بنفسه لرؤية أولئك الذين
أراد أن يسلم زوجه الى احتقارهم . وقد وقع المنظر الهائل ، ولم يمت إلا
بعد أن نلم شرف الأم فى عين أولادها ، وبث فى روحهم جرثومة مسمومة
من الريب الرائع . وكان من فداحة الضربة أن توفيت مدام ده روكفيل
قبل مرور عام من داء فى الكبد بعثه الحزن . أما الأولاد الأربعة ، ففر
كل منهم من وجه أخيه من ذلك الحين ، ولم يبق اليوم منهم سوى الأكبر

والأصغر، وهما لا يلتقيان إطلاقاً . ولعلكم تعتقدون إزاء ذلك ، اننى أسألك
نفسى أحيانا « ترى ماذا كان يحدث لو تركته يموت فى نوبته ؟ » ولكن لا .
فانى مدى ستة وثلاثين عاما ، ما أزال أعاود الكرة كما فعلت يومئذ ، لأؤدى
واجبى كطبيب . وضميرى يؤكدلى أننى أحسنت صنعا ، وأنه يجب ألا نتعرض
لتأويل هذا الواجب ، بل يجب أن ننفذه فقط . بيد أنكم ترون أنه يغدو
أحيانا مرًا فادحا »^(١) .

(١) أخذت هذه القصة من مجموعة Le Cœur et le métier

شريك في الإثم

قابلت إدم رايمون على رصيف محطة ميلان . وكنت ذاهبا الى جنوه ، وكان ذاهبا اليها ، فلبثنا تبادل خلال الطريق شتى الأحاديث ، حتى ألقي على هذا السؤال البسيط وهو : أين تنزل في جنوه؟ — فذكرت له اسم فندق في ضاحية المدينة كنت أحبه لحديقته الشاسعة ، فقال صاحبي : « سوف نفترق إذن ، فتصور أن هذا الفندق يرتبط عندي بذكرى أليمة جدا . وقد اعتدت في نوع من الوهم ألا أعود إلى الأماكن التي لقيت فيها سيء الوقائع . هل أقول واقعة؟ إنها كلمة ضخمة ، ولكن... » ثم قال بعد صمت « هل تريد أن أقص عليك هذا الحادث ، إذ أريد أن أعرف ماذا كنت تفعل لو كنت في مكاني ، وسوف أغير الأسماء وإن كنت لا تعرف الأشخاص ... »

وبدأ حديثه فقال — « كان ذلك منذ خمسة عشر عاما أيام زيارتي الأولى لجنوه . فترلت في هذا الفندق لمثل ما يدعوك الى النزول فيه . وكنا في الخريف في جو بديع ساحر ، بغلست في المساء في دغلة في حديقة الفندق ، لأدون بعض مذكرات عما شاهدت في الصباح وفي العصر ، وإذا بنبرات صوت على مقربة مني في مشى تفرق بيني وبينه حظيرة من الزهر جعلتني أرتجف ، وكان صوت امرأة لتكلم موقنة بأنها لا تسمع من أحد ، وكان الى جانبها رجل ليسير ببطء . وكانت العبارة التي قالتها مبتذلة ، فقد قالت :

« آه ، يا حبيبي العزيز ، ما كنت أجرؤ على أن أتصور وجودي معك هنا ، أمام ذلك البحر ، وتحت هذه السماء ، وأماننا ساعات ناعمة كثيرة ... ثماني عشرة لأن قطاري يقوم ظهر غد ... »

فأجابها : « وأنا كذلك ما كنت أؤمل أن تظفري بهذه الحرية . ولكن حذار ، ولنعد إلى الفندق فغرفتنا آمنة . أما هذه الحديقة فليست كذلك ، وقد يرانا أحد ... »

فقلت : «ومن ذا نلقاه؟ ما أبدع أن أتتفس هذا النسيم ، وأن أنامل
مغيب الشمس إلى جانبك ... » .

فقال : «لقد كان الأفضل أن أنجع رأيي وأن أتتحقق من ثبت المسافرين
لدى وصولي » .

فقلت بلهجة عتاب رقيق : «بالك من قاس ! أتأسف أن لم تسرق
منى خمس دقائق؟ لو كنت تحبني ما لجأت إلى كل هذا التقدير، وما كان
لك ذلك الحذر » .

قال : «هذا من أجلك أنت أيتها الحبيبة ، فأنت التي أريد أن أنقذ من
كل حرج » .

فزفرت قائلة : « فليأتوا ، فالأمور جميعها سواء عندي بعد أن نعمت
بهذه السعادة ؟ أفهمت ! نعم يستوى كل شيء ... » .

« ومضيا دون أن يشعرأ بي . والآن في وسعك أن تقدر طبيعة انفعالي
ومداه ، إذ عرفت في هذه العاشقة التي لم تستطع أن تخفي سعادتها ، زوجة
صديق من أعز أصدقائي . وسأسميه خلال قصتي شارل روتيه ، وأسمي
زوجه إذا شئت مرجريت . أما شريك هذا الموعد الذي ضرب في هذا
الفندق اللئى فلم أكن أعرفه ؛ واعلم أيضا أنني حينما ذهبت صباح هذا
اليوم لأتلقى رسائلي من مكتب البريد ألقيت بينها خطابا من روتيه نفسه !
فقد كتب إلى من باريس يقول لى ، إن زوجه انتهزت فرصة سفرأنة عم
لها ، دعها إلى تمضية اسبوعين معها في فلورنس ورومه ، ويشير إلى ابنة العم
هذه بعبارات الشكر والعرفان لما هيأته من دواعي السرور لعزیزته مرجريت .
ولم تكن أسرة روتيه غنية ، فقد كان هو ، أعنى الزوج محاميا في بدء حياة
أضحى اليوم باهرة . ولكن القريبة كانت ذات دخل قدره مائة ألف .
وكننت أعرف هذه التفاصيل لأنى شهدت زواج شارل ، بل لقد كانت هذه

القريسة زميلتي في موكب الزواج . وقد مر على ذلك أعوام خمسة : أعوام
خمسة صغيرة !

« وكان المحبان الطائشان قد أويا منذ بعيد الى مقامهما حيث كانا بلاريب
يتناولان العشاء وحدهما ، في تلك الخلوة الخطرة المثيرة التي هي نعيم العلائق
الخفية ، والتي تحتوى على جوانب أخرى كثيرة من التدهور الشائن . ويجب
لكي نفهم سحرها للشاعر الدقيقة أن نعرف بما تحتويه من ضروب الشعر .
أما أنا فكنت ما أزال أجلس الى خوانى الصغير فى الحديقة أمام كراستى
المفتوحة جامدا باهتا . لو لم يكن روتبيه صديقى العزيز لكانت تعرفونى الكآبة
بأكثر مما تعرفونى السخرية لما أشهد من انهيار سريع لهذه الأسرة الفتية .
ولكن أليست ضروب من السخرية هى ضروب من الكآبة ؟ ولقد كنت
أشعر بمزارة غريبة إذ أستعرض التباين البسيط بين الحلقة الزوجية ، وبين
هذا الموعد . ولكن روتبيه كان صديقى ، وكان يعبد هذه المرأة التى ترقجها
على بعض كره من والديها ؛ وكنت أعرف أنه يرهق نفسه عملا من أجلها
لكي يرفهها ويغمرها ، وأنه ، ولما يرزق منها بولدا ، يضطرم شوقا الى أن
يرزق به ، يضع كل ذلك جنبا الى جنب ، فتدرك أى غمرة من الاضطراب
ألقى الى بها ذلك الاكتشاف الفجائى : كانت هذه المرأة التى تُعبد ، تنحون
زوجها وهو صديقى . فتى بدأت هذه المغامرة ؟ وأنى لقيت ذلك الفتى
الذى لا أذكر أنى رأيته فى منزلما ؟ وماذا كان الدور الذى أدته ابنة العم ؟
هل كانت متواطئة مع مبرجريت ؟ أم استطاعت مبرجريت أن تخدعها كما
خدعت شارل بعذر حسن ؟ وهل كانت هذه أول مرة حظى المحبان فيها
بالوصل ؟ من يدري ! فقد يكون ذلك الولد الذى يتمناه صديقى بما عرفت
منه من لفقة الأبوة ، قد حُمل به فى ذلك الفندق الذى كنت أرددق من
خلال أشجار الحديقة واجهته اللامعة ذات النوافذ العديدة ؟ فأى هذه النوافذ

كانت تخص الجناح الذى يسكنه المحبان الآثمان ؟ كانت هذه الأسئلة تطرح على ذهنى معا ، وانتهت جميعا بأن اندمجت فى سؤال آخر : ماذا كان واجبي ؟

«هنالك مثل هندى تعرفه مثل . وهو أنه يجب ألا تضرب المرأة ولو يعود من الزهر . وان عظة الشهامة التى يحتويها التمتزج بأعماف نفوسنا ، حتى لقد بدأت أجيب نمسى بأن واجبي هو السكوت . أألزم الصمت ؟ رأيت فى لوحة الفكر شارل روتيه . مثل ما رأيته منذ زواجه مرارا وتكرارا ، منحنيا فوق أوراق موكيه ، وهو يستقبلنى فى مكتبه بهذه العبارة أو ما يشبهها : «لا يتسع وقى لمصاحبتك ؛ فانى أغص بالقضايا ، وهى تزيد فى ثروتنا الصغيرة . واذا كان لئلا من يعمل لأجله هان عنده كل جهد» . ثم يرمقنى بحيا أضناه التعب ، ولكن تضيئه ابتسامة سعيدة . وبينما هويكد على هذا النحو ويقتل نفسه فى أداء عمله لكى يحقق لزوجه ترف الحياة ، اذا بها تستسلم الى وصل غيره ! واذا بها تنفق على زيتها ذلك المال الذى يكسبه زوجها المجتهد ، لكى تروق لغيره ! وأنا الذى سمعت ما سمعت ، أصبر على أن يستمر استغلال سافلة لرجل هذا إخلاصه وهذا شرفه ؟ وهل ألزم الصمت ؟ لقد كان ذلك اشتراكا فى الإثم . وعادت الى ذهنى مراحل صداقتى القديمة مع شارل كلها ، فرأيت تلميذا فى العاشرة يرتدى ثوبا كشوبى وتصورت هاتيك الأيام . ورأيت فى الخامسة عشرة وأنا معه نقضى العطلة المدرسية فى ضواحي تور عند أقاربى فى الريف . ثم كما معا فى كلية "لوى الأكبر" . ثم رأيت فى العشرين يؤدى خدمته العسكرية معى . ثم كانت حياتنا فى الحى اللاتينى حينما كنا ندرس معا فى كلية الحقوق . فكل هذه العشرة ، بل كل هذه الأخوة التى استطلبت زهاء ربع قرن ثارت فى نفسى إزاء هذا الاشتراك فى الإثم ، يجريه الصمت . أجل ! فصمتى اشتراك فى الإثم . ولئن ارتكب

الحبان يوما حماسة، فهل أستطيع اذا ما قص على شارل خيانة مرجريت أن أجيبه « بأنى كنت أعرف كل شيء ». وإذا أجبت بهذا، أفلم ينقم منى أنى لم أنذره؟ ومع ذلك فهل أنذره؟ وهل أبلغ فى حق امرأة؟ وهل يمكن هذا؟ وقد كان واجبا أن أرد على خطاب صديق، أفليس الأفضل أن ينكسر قلبي مما لو سطرت قصة ما فاجأت؟ ولست أزيدك، فأنت تعلم الآن لماذا أرى فى الفندق الذى أمضيت فيه هذا المساء وهذا الليل أنخبط فى غمار الضمير، ذكرى لا تحتمل. وكان تصورى ان الخيانة تقع فى نفس هذه اللحظة على مقربة منى، وان مرجريت بين ذراعى عاشقها فى غرفة قد تكون مجاورة لغرفتي، يحشمني الى جانب هذا النضال المعنوى، اشمئزازا ماديا يصل الى حد المعاناة.

« وفى الصباح كنت اعتزمت أمرى. فلن أبلغ فى حق الفتاة بلاريب، ولن يعرف شارل شيئا، ولن يكون أول أو آخر زوج يخان فى أسرته ويعيش هادئا. ولما كان يجب هذه المحلقة كما يجب، فان إبلاغه أمر نذالته يعنى وضع سلاح الانتحار فى يده. فليجهل إذن كل شيء. أما أنا فقد أملت أن أنسى هذه الرؤية التى هياتها لى تلك المصادفة العجيبة. فان مرجريت روتيه لم ترفى، ولا تعرف انى أعرف، ولن تعرف أبدا. وسوف تركب قطار الظهر طبق ما قالت فى ممشى الحديقة. وكان على أن أركب قطارا الى الجهة المعاكسة فى نفس الوقت. فعولت على أن أؤخر رحيل حتى لا أخطر بمقابلتها، رغم أنى كنت أوقن انها ستذهب الى المحطة بمفردها، ولم يكن محتملا أن تعيد حماقتها فتبدو جهورا مع عاشقها. غير أنى لم أحسب حسابا لذلك الثمول الخبيث — ثمول الخطر — الذى يدفع المحبين أحيانا الى تحدى كل شيء. وإن خلية تهيم شغفا بذلك الذى استسلمت إليه سرا واطلاقا، لتأنس سحرا لا يقدر اذا سارت متوكئة على ذراعه،

أو برزت معه جهورا كأنها زوجته . لماذا ؟ است أستطيع إيضاها لذلك ، ولكن استعرض ذكرياتك تشعر بهذه الحقيقة . وفي وسعنا أن نقول إن السواد الأعظم من المصائب التي تختم بها أحوال الزنا بصور فاجعة ، لا ترجع الى سبب آخر ، مع انها قد تفتدى بأقل التحولات .

ثم قال صاحبي : « وإليك مثلا آخر : غادرت الفندق مبكرا ، بعد هذا الليل الأرق ؛ معتزما ألا أعود اليه إلا متأخرا ، أعنى بعد أن تكون مرجريت قد ذهبت بلا ريب الى المحطة ، وكنت أفضل ألا أراها ولو مفردة . وبعد أن جبت شوارع المدينة عرضا ، أشرفت في نحو الساعة الحادية عشرة على القصر الأحمر ، ودخلته لأرى صور « فان داك » مرة أخرى . فتصور مبلغ دهشتي إذ سمعت من جديد ذلك الصوت الذي اضطربت له بالأمس تحت أشجار الحديقة ، يرن في أروقة القصر المقفرة . أجل ! كانت الفتاة هنالك . وشد ما كنت أخشى رؤيتها ولو فريدة . فآه لو كانت فريدة فقط ! ولكن صوتا كان يجيها ، هو صوت صاحبها بالأمس . وكنت في تلك اللحظة أمام صورة « باوولا » . الشهيرة . وكان العاشقان يقتربان مني كما يدل صوتهما ؛ وكانا يتكلمان عندئذ بشيء قليل من التحفظ . ولعلهما قدرا أن أحدا قد يراهما من الأصدقاء ، فكان لهما أن ينتحلا المصادفة عذرا لهذا الاجتماع . بيد أنهما صمتا فجأة ، واستطمت بتلك الحدة التي تتفتح في حواسنا أحيانا ، أن أميز صوت همس . فقد غيرا لهجتهما . وقد رأيتي مرجريت وعرفتني . ولا ريب أنها قالت لخليلها هذه العبارة التي تروعا « صديق لزوجي ! » . على أنها لم تفر ، بل ظلت الخطوات تقترب مني . أما أنا فلبثت جامدا أتأمل الصورة دائما كمن استغرق فكه ، وأسائل نفسي : « هل أرتد ؟ أليس الأفضل أن أفر عليها وعلى نفسي هذا الحرج ؟ بيد أنه ليس من المعقول أن أبقى كذلك دون حراك ، إذ تغلب

على عندئذ هيئة من رأى ، ولا يريد أن يراها ، وهى إهانة لاريب فيها ... ذلك لأن إجماعى عن رؤيتها معناه أنها فى حالة مربية . واذا حييتها قدمت اليها فرصة الإيضاح واختراع عذر يمكن أن أظهاره بقبوله ... » كنت أجادل نفسى على هذا النحو وألث على جمودى . ثم وقف الاثنان ورأى . ولا ريب أن المرأة المسكينة كانت تسائل نفسها عما اذا لم أكن ألعب دورا . بيد أنها لم تعترم أن تفتحنى هى بالحديث . ولكنها تدرعت بتلك الشجاعة التى يديها النساء دفاعا عن هنائهن ، وجرؤت أن تتكلم بصوت عال لكى ترغمنى على الارتداد .

« فقلت ، انك على حق ياسيدى ، فهذه الصورة هى أبداع ما فى الرواق ... وأشكرك أن أريتنى إياها ... وأؤمل أن أراك فى باريس ... أما الآن فيجب أن أعود حالا لكى لا يفوتنى قطارى .

« وكان مستحيلا ، ان لم أكن أصم ، ألا أسمعها . بيد أنى لم أرتد قط ! وترددت مرجيت روتيه برهة ، ثم ابتعدت كأنها لم تلاحظ وجودى أيضا ، وتبعها الفتى بعد بضع ثوان ، بينما لبثت أنا فى موقفى الشاذ فى هيئة المأخوذ أمام صورة «فان دايك» . والخلاصة أنه لما ابتعدت عنى خطوات عاشق مدام روتيه ، وعدت أنا الى السير ، سقطت فى غمار من الندم لا أستطيع وصفها . ذلك أنى بما تظاهرت من عدم رؤية مرجيت ، قد نبأتها كما لو نبأتها بأوضح الكلام ، أننى أعتقد فى إثمها وفيه هذا الإثم . ولا ريب أن أول ما فعله الفتى عند عوده الى الفندق هو مراجعة ثبت الزلاء ، فهناك يجد اسمى . وعندئذ يقفان على الحقيقة ويعلمان أنى قد اكتشفت وجودهما فى ذلك المقام العرضى . وكوفى لم أرتد فى رواق القصر الأحمر دليل على أنى لم أفاجئ بهذه المقابلة ، وإلا فلا بد أن الدهشة كانت تثير فى حركة . والنتيجة المحققة هى أننى لا أستطيع بعد ، فى نظر زوجة شارل أن أظهار

بجهل زلتها . أجل ! كانت تعرف أنى أعرف لها خليلاً ، وكانت تعرف أنى أعرف . بأى وجه سيقابل أحدنا الآخر؟ لقد كنت أشمئز من شركة فى الإثم . ولكنى انحدرت إليها الآن . فإذا مجرم يحصل منا على دليل بأننا نعرف ذنبه وأنا نشاركه فيه بالصمت ، فإن له الحق أن يعتبر أنا نتواطأ معه . فشد ما كان الأعقل أن أسيغ المهزلة التى كان تدعونى إليها عبارتها . ولو أنى ارتددت بكل بساطة وقلت لها : أهذه أنت يا سيدتى ، لكنت فدمت الى صاحبها قائلة إنها لقيته فى جهنمه مصادفة فقط ، ولكنت كتبت عنه وعن الى زوجها . ولكنها قد غدت الآن مرعومة على الصمت إزاء زوجها لى لا تناقض ما سوف أقوله لصديقى ، لو قلت له شيئاً . وهكذا تصبح علائقنا وقد سممت الى الأبد ، وذلك من جراء ما ارتكبت من غباء أو حذر .

« وكان الأثر الأول لهذا الموقف الزائف هو أنه استحال على ، خلال الاثنى عشر يوماً التى قضيتها فى سفرتى ، أن أرد على خطاب الزوج المعتدى عليه . ولعلى ألبث لأول مرة مدى أسبوعين دون أن أستفهم من شارل عن أخباره ودون أن أبعث إليه بأخبارى . فلما عدت الى باريس لبثت مدى أسبوعين آخرين دون أن أستطيع الإقدام على زيارته . وكنت أشعر أن هذا الاحجام أكثر حمافة من تصرفى فى القصر الأحمر ، وما كان يوسع شارل ألا يدهش لذلك ، ولا بد أنه سوف يسألنى عن النسيب . بيد أنى كنت قوى العزم ألا أبلغ إليه خيانة زوجه . واذن فلماذا كانت يعنى هذا الإجمام عن زيارته ؟ جادلت نفسى ، فأرغمتهى فكرة أنى شريك فى أشنع إهانة تلحق بهذا الرجل ان أبقى على اجمامى . وكنت أخلو الى نفسى يوماً فى منزلى ، وأسألهما : متى أستطيع أن أستأنف هذه العلائق التى تتخرج يوماً عن يوم ، وإذا بخادمى يعلن الى أن سيدة تريد أن ترانى ، فأمرت بإدخالها ، فإذا بى أرى مرجريت روتليه بذاتها .

فابتدتنى قائلة : انى هالكه .

ثم قالت دون شرح وفى لفظة الجزع : « لقد ألفت المصادفة سرى بين يديك ، وأعلم أنك لم توقع بى لدى شارل ، ولهذا أراك انقطعت عن زيارتنا . لكن لك قلبا ، وسوف تشفق على منكودة . أكررك أنى هالكه ... فقد حملت ... » .

« فلم تكن المنسكودة تطالب الى فقط أن أبقى عند اشتراكى فى الإثم بطريقة سلبية ، بل كانت تطالب الى الاشتراك الفعلى . وكانت قد عادت من إيطاليا منذ ثلاثة أيام فقط ، وعرفت من أمارات لاشك فيها أنها قد حملت منذ شهر . ويجب أن أزيد على ذلك ما اعترفت به خلال الدموع والزفرات ، وهو أنها مذ كان لها خليل ، كانت تعتذر باعتلال صحتها لتعيش منفصلة عن زوجها ، بغاات هذه الأمومة لها خطرا أروع ، هذا فى حين أنى كنت هنالك ، أنا عزيز زوجها بل أخوه لأفص ما شاهدت . وقد فكرت فى أن تفر مع خليلها ، وبذلت لديه مسعى لم ينرها تماما عن طبيعة عواطفه نحوها ، ففكرت فى الانتحار ، ولكن غريزة البقاء غلبت عليها . فهرولت خلال اضطرابها الى لأنها تعرف أنى أعرف سرها كما قالت ، لكى تتاشدنى الرأفة ... ماذا ؟ لقد شعرت خلال ذلك أى حاجز ضئيل يردنا عن الجريمة ! أجل ! لقد جاءت تضرع الى أن أصحبها الى طبيب لكى ترجوه ... ماذا أيضا ؟ ترجوه مساعدة دينئة هى أن يقف هذا الحمل الفاضح . وهل ترانى فى حاجة لأبنيك بجوابى ، وما نصيحت به اليها ، وما تضرعت أن تعيش ، والا تعتدى على حياتها أو حياة الولد الذى تحمل فى جوانحها ؟ لقد ألحفت عليها قائلا :

« — خير أن تعترفى الى شارل بكل شئ ، وأن تفترقا ، وسوف تحتفظين بمالك وولدك . وفى وسعك أن تجدى الوسيلة الى الطلاق . ولن تحملى ذلك الندم الخالد ، ندم القتل — وأى قتل — عبثا على ضميرك .

«وأخذت أثناء حديثي تعاودها السكينة ، ثم انصرفت بعد أن أقسمت لى أنها لن تحاول انتحارا أو اعتداء على حياة الطفل . وفى الغد زال منى كل تردد فى زيارة شارل ، فقصدت الى منزله منذ الساعة العاشرة . وكنت واثقا أنى أجده فى هذا الوقت ، فتلقانى بفرح أيقنت منه أنه لا يعلم ذرة من حقيقة المأساة التى كان منزله لها مسرحا .

قال لى مبتهجا : لقد كدت أنكرك ، فى هذا التصرف ؟ لقد عادت مرجريت من ايطاليا راضية عن رحلتها كل الرضا ، أما أنت فإذا حدث لك؟ أخالك قد وقت فى شرك غرام . ألم يحن الوقت لاستقامتك بعد؟ ومع ذلك فإن السعادة فى الزواج ، وصدقتى أن لا سعادة الا فيه ... ! » .
وانى لأفر عليك شرح الأعدار التى قدمتها الى ذلك الرجل المخدوع شرحا لصميتى وغيايى .

«وفى مساء نفس اليوم كنت أتعشى عنده ، الى جانب المرأة اليايسة التى زارتنى بالأمس ، والتى كان يبدو على وجهها الجامد ، أنها قد نسيت غمرة الاضطراب التى تجوزها والخطر المرقع الذى يهددها . وأدركت أى حل بسيط لقيته لذلك المشكل المؤسى ، وذلك حينما أفضى الى شارل بعد ذلك بشهر باعتراف جديد . وكما ندخق فى خلوة بعد أن تناولنا العشاء معا .

« قال لى — انى جم السعادة أيها الصديق ، فسوف يتحقق حلمى اذ أوئل أن أعذو أبا . وسوف تكون الولى » .

« وقبل أن تمضى ثمانية أشهر على ذلك وضعت مرجريت ابنا ، حدثنى عنه شارل بكبرياء لم أفكر أن أبتسم لها .

« قال لى — أجل أيها الصديق ، أنه طفل قوى وقد جاء قبل الأوان فى سبعة أشهر ونصف ، وهو أمر عجيب . وكنت خائفا فطمأننى الطبيب وهو طبيب بارع ، عرفت مرجريت عنوانه مصادفة من احدى صديقاتها

عقب عودها من إيطاليا . وكانت في الواقع علية ، وكنت أخشى أن لا أكون أباً ، فأسعفها بعنايته وحذقه ، واني أكرر لك أني جم السعادة .
« وكنت وهو يحدثني أكاد أسقط خزيا ونجلا . ألم أكن أحد أولئك الذين عاونوا في تأييد ذلك الوهم الشنيع الذي سوف يعيش فيه منذ الآن وسوف يهرم ؟ وقد فهمت أن مرجيت حينما غادرت منزلي ذهبت الى طبيب ما ، وسألته في الإجهاض ، فنصح الطبيب الى عميلته اليأسه أن ترد الأمور جميعا الى زوجها متعهدا بحمله على قبول النوايخ ، وهي لا تدعو الى الشك .
« هل كنت على حق أم على ضلال إذ أحججت عن الكلام منذ البداية ؟ وهل أنا على حق أم ضلال إذ ألزم الصمت الآن ؟ إني بعد هذه الأعوام العدة مارلت أسائل نفسي دون جواب : وهل كنت على حق أم ضلال إذ حملت الى التعميد هذا الطفل الذي أعرف أباه الحقيقي ؟ بيد أنه لم تمض ستة أشهر على ولادته حتى استطاعت أمه أن تكدر صفو علائقي مع شارل ، فلم أحاول أن أنير الموقف ، بعد أن أصبحت أشعر عند زيارتي لذلك البيت بأشد الآلام ... وفي وسعك أن تفهم الآن لماذا لا أرافقك الى فندق ... في جنوه .

« وهل أقول أني أيضا لم أنزل في هذا الفندق عطفاً على شعور إدام رايمون ؟ وكثيراً ما سألت نفسي ماذا كنت أفعل أنا لو كنت مكانه . إن مثل هذا الصمت إزاء صديق حق ، جريمة ! ومع ذلك فما أقسى التكلم ! وهذا برهان على أنه يجب علينا دائماً أن نتجاهل بعض الأسرار ، فإن أحكم سياسة في الحياة ، هو أن يغلق المرء عينيه وأذنيه لكي لا يعلم شيئاً عن زلات الغير ، وهو الأسلوب الوحيد الذي يبقى للمرء كل طهارته . بيد أنه ليس من اليسير دائماً » (١) .

صدقہ !

تألق في سماء الأدب، حوالى سنة ١٨٨٠ ، عام وقوع هذه السيرة، أسم هو اسم الكاتب القصصى چوليان دورسين. وكان قد نشر أول كتبه، وربما خيرها، وهو ”مباحث في النساء“ فنال ظفرا ما زلنا نذكره، ولكنه أثار حوله عاصفة من الحسد. بل انى لأعترف أن أولئك الحساد كانوا يحتشدون في كل ناحية، حيثما بزغ فجر هذا المجد الفقى بين رفاق حدائة هذا الصديق، وهم رفاق حدائتى أيضا. وكانوا يبدأون العمل في صحف الطريق، بينما هو قد بدأ العمل للكتابة؛ وبينما يكتبون مقالات ضئيلة الأجر، اذا به يستمرئ لأول جسولة طرب الورقة ذات الألف. وكان طبيعيا ألا يروق فوزه لدى معظم رفاقه في الماران والبداية. ولكن الحق أن هذا التذمر لم يتعد حدود الحانة أو المكتب. ولم يكن إلا واحد كان من أعز أصدقاء دورسين، هو الذى اضطرم غضبه لذلك الفوز الى حد أنه لم يملك الجهر به. وقد نسي اسمه اليوم كما نسيت حملاته؛ واسمه أمبرواز تورى. وقد عرفناه أنا وچوليان في الحى اللاتينى. وكان أكبر منا بعشر سنين. وكان يكتب قصائد للاجلات البخارية، التى كانت تحوم يومئذ كما تحوم اليوم حول ”الأوديون“. وكان قد هجر الحى الى الشارع. فلما سم نظم الأناشيد التى لم تكن تحمل اليه سوى مديح السوق، أو بالحرى مديح المقاهى، اعترم الكتابة في الصحف؛ فنشر فيها فصولا لقيت نجاحا. وكان يحترق في صحيفة اختفت اليوم، ولكنها كانت وقتئذ في إبان ذبوعها. ففيها بدأ الحملة على دورسين، أولا في كلمات صغيرة عرضية، ثم في فقرات أشد صرامة، ثم انتهى الى كتابة إحدى هذه المقالات المسمومة التى لا يملها إلا بغض حل مكان حب، بغاءت فياضة بالمخازى والإشارات الكاذبة الى شؤون الحياة الخاصة، وجاءت كل كلمة

منها جراحة للعزة فى المواضيع الحساسة . وانى لأذكر حتى اليوم رغم بعدى عن الموضوع ، أنى آنست لدى قراءتها عاطفة شديدة من بؤس حياة الكاتب ، وكنت كثيرا ما تناولت الطعام مع هذين الرجلين وكثيرا ما رأيتهما يتصافيان فى تبادل الآراء ، ومزج المشاريع الأدبية .

قلت لنفسى ، عسى ألا أقابل تورى مدى حين ، وأنا أطوى الصحيفة التى حاول الشاعر القديم أن يهدم فيها مجد صديقة الفتى ، « واعمري انه لسيخيف يجب ألا تصاحفه يدى ... وكذا دورسين لابد أنه فى حاجة الى السكينة ، فلمست أفعل إلا أن أزيد فى ثورة نفسه ... » .

على أنه ما انصرم الأسبوع حتى لقيتهما الواحد بعد الآخر ، وأستطيع أن أقول أنى لقيتهما معا .

٢

وكان تورى أول من لقيت ، لقيته أمام أطلال مجلس الدولة القديم . ولم أكن رأيتة منذ أشهر . فتأثرت لانطفاء وجهه الوسيم ، وذبول شخصه النحيل ، حتى لقدكدت أنسى غضبى منه يوم قراءة المقال . وكان ضعيف البنية دائما ، ولكن نحوله ، وبياض شعره ، وحركاته العصبية ، لم تكن تشف بعد عن فقر فى الخلق ، بل كانت أعراض حمى صدرية لا بد أنها ترجع الى أسباب أعمق . ذلك أن عينيه الزرقاوين ، اللتين كانتا تسطعان عادة بقبس من السخرية ، كانتا تحترقان وقتئذ بضرام الفكرة الثابتة . وكان يعرف شدة صداقتى لدورسين ، ويوقن أنى لا بد أن أثور غضبا عليه إذا لاقيته . ولكنه كان شديد الألم . فلم يفكر فى ذلك ، بل لم يدهشه برود لقائى حينما اعترضنى . قال لى بعد أن تبادلنا عبارات التحية المتبدلة : « اعترف أنك تجدنى قد تغيرت . ذلك لأنى تعيس ، تعيس جدا ، فإن ما تيلد تحتضر ... » وكانت

ماتيلد هذه ممثلة صغيرة، حسناء الحياء، عديمة الفن، يعيش معها منذ أعوام .
ثم قال « أتذكر كم كانت صهبوحة ، ضاحكة ، ظريفة ؟ ... لقد غدت الآن
جثة تسعل ، وأى سعال ! ... إنى لأفر من البيت حتى لا أسمع هذه الحشرجة ،
ولكنى أبقى فيه لأراها قبل أن لا أستطيع ذلك بعد . ولعمري لم أدرك
حبي لها إلا بعد أن أصيبت . ولقد أصيبت من جراء بؤسنا ، فقد كان فقرنا
شديدا قبل أن التحق بجريدة ... » وذكري اسم الصحيفة التي حمل فيها على
دورسين « كانت هذه فرصتي ، ولكنى وأنا أستطيع اليوم أن أعنى بها بعض
العناية بعد الإخلاص الذى أبدت ، أراها تغادرنى ! ولست أجزؤ أن أتصور
ماذا يحل بى متى غادرتنى . آه ، إنه لشنيع ، شنيع جدا ! » .

ومازلت اليوم أذكره وأذكر رنة صوته الخشنة يلقى هذه الكلمات كأنها
الأنين . كان يشعر أنه مضطر الى الإفضاء بالألم الذى يخنقه فأنى كنت
أستطيع أن أجد قوة لتأنيبه ؟ لقد كانت مقالته فى حق دورسين كهذه
الشكوى ، نفثة مضطربة لإحساس يعانى عذابا مبرحا يتجدد فى كل يوم .
وكانت سعادة زميله الفتى التى تحوم حولها أسطورة من الهوى الناعم ، شديدة
الوطأة على بأسائه ، ولم يك ذلك جميلا ولكنه كان بشريا ! وبعد فن الذى
أصابه باجترائه ؟ لقد أصاب نفسه بتحقيقها أمام ضميره . أما دورسين فلم
ينقصه لا قارئ ولا صديق ، واستأنف توري غداة هذا المفال عمله الصحفى
فى ظروف لم أشك أنها محزنة مثيرة .

وقال توري : « إن ما سرده ليس إلا نصف عذابى . إنه لرائع أن
أرى ماتيلد تذهب كذلك . ولتبنى كنت أستطيع أن أتفرغ الى شخصها الذى
سأفقد والذى أضخى مثوله معدودا بالأسابيع ، بل الأيام ! ولكن العمل ؟
يجب أن أقوم به أثناء ذلك وأن أجد مواضيع للمقالات ثم أكتبها وأصححها .
يجب ذلك من أجل المال ، والمرضى كما تعلم كثير الكلفة . وهذا واجب

أيضا لكي أخدعها ولكي لا تعلم أنها مائتة . ولقد طالما سمعت أن المصدورين لا يرون، ولكن المسكينة صافية الذهن، وقد كانت وما زالت وافرة الشجاعة، ومع ذلك فاني أجد الوسيلة لأن أخدعها قليلا، واليك البيان: إنها تعلم كم أحبها وأن العمل في نفس الوقت يكون مبهظا إذا لم يكن ذهني صافيا. ثم هي تراني أحرر قسمي وتراه يظهر دون انقطاع، فتعتقد أنها ليست في خطر، لأنني ما زلت أستطيع أن أسود الورق وأن اخترع الفكر وأن أعنى أخيرا بشيء غير شخصها ... وهذا ما استطعته في الواقع حتى الأيام الأخيرة. ولكنني أرى مذعورا لحظة لا أستطيع فيها بعد ... فاسمع، إنا يوم ٢٣ ديسمبر، وعلى أن أقدم للجريدة قصة ليوم الميلاد، مساء الغد، ولكنني لم أستطع أن أكتب منها سطرا، بل لست أجد موضوعا للكتابة، وأشعر أن ذهني أبيض ناصعا، فقد مرت بي ليلتان هائلتان اشتدت فيهما وطأة المرض وكنت أسهر عليهما. وكان خداها المسكينان قد تجوفا ويذاها محموتين، ثم كان ذلك السعال ! فدفعت مائدتي الى قرب فراشها ونبأتها بخبر القصة، وأنني سأكتبها بالقرب منها ... وأخذت لكي أحملها على الاعتقاد بأنني أعمل، أسطر في الورق الأبيض كلمات لا معنى لها ... ثم سألتني قبيل أن أخرج عما إذا لم أكن قد أتممت كل شيء فأجبته، ان نعم، وانني ذاهب الى الحرية أحمل الأصول وأصحح النماذج، فلاحظت أنها سرت لأنها لم تمنعني من أداء عملي . وراحمتاه للعزيرة، إن أهم ما نتألم له هو أن ما تتجلى إياه من الهموم سيحطم حياتي، فلا أستطيع بعد أن أحتفظ بمركزي الحالي ! وتالله إن هذه الصحف القذرة لسوق التنافس، فقد جذبت آلاف المشتركين الى جريدة * * ولكن صاحبها قد يسر إذا استطاع أن يستبدلني بأحد أولئك المبتدئين الأحداث الذين يعملون بتافه الأجر ! ... على اني سأكتب القصة وسأجد الموضوع، سأجده وسأكتبه ... » .

وكنّا قد وصلنا الى زاوية شارع دى باك، وتورى يكرر تأكيده بغضب
يتهاج فيه ياس ممترضة تعنى بمختصرة حببية، وكان ثمة مقهى حمله القفر على
الإغلاق . وكان تورى ، وهو يقيم بالقرب من هذا المكان ، من رواد هذا
المتدى فقال لى : سأترك الآن لأعالج كتابة هذه الصفحات . نعم سأكتبها
هنا ، أيدعشك هذا ؟ لقد غدا هذا المقهى مكتبي ، فإذا برح بي الجوى قلت
لماتيلد أنى ذاهب الى الجريدة كما فعلت الآن ثم آتى هنا فها ووداعا ! » .

٣

وما كاد يدفع الباب ويختفى ظهره المقوس فى ظلمات المقهى المقفر ،
حتى سمعت شخصا يناديني باسمى . فارتجفت لأنى سمعت صوت دورسين .
وكان يركب عربة فرانى ، فاستوقف السائق ثم نادانى . ولو تقدّم برهة
لالتقى مع قاذفه وجها لوجه . فارتجفت خشية أن يخرج تورى فى تلك
اللحظة ، وهرولت نحو عربة دورسين بسرعة جعلته يبتسم . ذلك لأنه حذر
السبب ، وعلمت من كلماته الأولى أنه رأى صديقنا القديم ، الذى غدا
عدوه الألد .

قال لى بهمك مغضوب تيمنت فيه الغيظ الخفى : « لست نخورا إذ تسيرون
جهرا الى جانب شقى مثل تورى . لقد قرأت قذفه القذر فى حقى ، أجل .
ولكن الذى لا تعرفه هو أن مديره قد أرسله ليطلب الى التحرير فى صحيفته
منذ أشهر ، فرفضت فكلفه أن يشهر بى . ولكنى قد اعترمت أمرى . وهو
ما تستطيع أن تتبئه به . لست أنحرف عن طريق لأبحث عنه ، بيد انى اذا
لاقيته ، حيثما اتفق سواء فى المسرح أو المطعم أو الشارع ، فسوف أحطمه .
ولو أن نقرا من زملائنا الذين يتجنبون عليهم هذا حذوى لكف لسانه وقلمه
عنا . ومع ذلك فقد انتقمتم منه بالفعل . وذلك انى علمت من مصدر

ثقة، أن الصحيفة التي يعمل فيها ستحتجب عما قريب بعد أن نضبت مواردها، وستقوم مكانها أخرى — وذكر لى اسم صحيفة ظهرت بعد ذلك بيومين — « وسوف يظهر العدد الأول فى أقرب وقت . وقد جاءنى أصحابها أيضا يطلبون منى الكتابة، فطلبت ثبت المحررين، فوجدت فيه اسم السيد تورى، فأبيت وأشرتطت أن يختاروه أو يختارونى، فاختارونى . بل انى لأحمل فى جيبى قصة الميلاد كتبته للعدد الأول . وعلى هذا الشرط فإن يكون ثمة تورى ! ... ما ذا تريد، ليس فى الأمر ظرف، ولكن راق لى أن أضايق هذا الوجد، وأن أرى كتاب القصص الصغيرة أنى رجل الميدان مثلهم، والحق انها مهمة شاقة ولكنها أصلح الخطط لبعض الموضوعات؛ وقد عرضت لى موضوعات كثيرة ولكنى أعتقد أنى قد أحسنت الاختيار، فهل تريد أن تقول لى رأيك ؟ » ثم أخرج من جيبه عدة أوراق كتبت على الآلة الكاتبة، وهو ما كان ينذر يومئذ، وقال « بيد أنى لن أجشك هذا العناء، بل اصعد الى العربية، فسوف أصحبك الى صديقى، وهى جديدة لا تعرفها، لى تناول الشاى؛ هى غانية ولكن أنيقة رفيعة، وسوف تنسى برؤيتها فيج تورى اللهم الا اذا أردت العودة اليه فى المقهى حيث رأيته يدخل . أما أنا فلن أدخل لألطمه، فانظر كم أندرع بالحكمة؛ ولكن فيم تفكر ؟ » .

فأجبت، « أفكر فيما قاله لى تورى فى هذا المكان بعينه منذ عشر دقائق » والحق أن البون كان شاسعا بين ما سمعت فوق الافريز بعينه من صديقى حدثتى، أحدهما وهو الكبير، قد حطمته الحياة وأضنته، والثانى وهو الصغير، ظافر، غنى بالأعمال والآمال . لقد كان يبدو فى عيني دورسين يقينه بقوته، ويتفتح جبينه وتفتت شفتاه عن وافر ذكاء، وكانت هيئة الفياضة بالقوة، واناقة حركاته تؤكدان طوالعه الحسان، ومنها ذلك الذى أخذ يترجم به

في ساذج حساسة ! ثم أى بون في نفس الوقت بين هذا الشغف الذى يبيديه قصصى شهير بغانية ، وبين ماتيلد المسكينة ، تلك صاحبة القديمة المصدورة ، لشاعر تحطم . هذا الحلم المزدوج ، يضم حظا جم السعادة ، وحظا جم الأسى ، حملنى بفاة ألا أسيع ذلك الحقد الذى بحمله أسعد الرجلين للآخر . وبدا لى ذلك الانتقام الذى يتلخص فى نزع القوت من أديب بأس ، من جانب فنان شهير ، خسة لا تليق بصديق . أليس فى كونه محبوبا ، غنيا ، جميلا ، شهيرا قريبا ، صفحة مذلة لتورى ؟ واشتدت بى هذه العاطفة حتى أنى لم أملك نفسى عن الكلام ، فقصصت على دورسين ، فقرة فقرة ، كل ما سمعته من صديق ماتيلد ، وصفها لما يعانيه من عذاب معنوى أمام فراش العذاب المادى . ووصفته له ، وهو فى تلك اللحظة يعينها يفر من المحتضرة حبا بها ، وأنه يحبس نفسه وراء زجاج المقهى ، ويحاول بضربات الأست أن ينتزع من ذهنه الذى صرعه الحزن ، موضوعا لتلك القصة التى يرغمه على كتابتها عمل يوشك أن ينقصم ، وحتى يحمل الى المسكينة شيئا من الطمأنينة يجعلها تعتقد أنها لم تشرف على النهاية . ثم قلت :

« قارن نفسك به ... وفى هذا فقط » وأشرت له الى أصول قصته التى مازال يمك وقلت : « لقد انتقممت بكونك أنت وبكونه هو ، فلا تحاول انتقاما آخر ، فاذا قابله فأكره فقط ، واذا كانت صحيفته ستعطل ، فلا تغلق عليه باب أخرى ... هل تعد بذلك ؟ » .

فأجابنى بجفاء : « أما أنا فأرى أنه يجمع الى صفاته فى الحقارة والحسد وصمة الذلالة ، فهو يعرف أنا صديقان ، وهو يعرف أيضا بلا مرء ما اشترطته لدخول فى تحرير الصحيفة الجديدة . وقد مثل أمامك هذه المهزلة عن خيالاته المصدورة لكى تعيسد على ما سمعت ولكى أشفق عليه . أما أنا فلا أشفق ، ولن يعمل هو فى الصحيفة الجديدة ، بل لى سأحمل هذه الأصول وأجدد

شرطى هذا ... وهذه لطمتى الأولى فى انتظار اللطمة القادمة ، فهيا ،
ووداعا ... » .

٤

فلم يبق ثمة مجال بعد لتناول الشاى عند الصباحبة الحسنة أو قراءة القصة
الجديدة . لقد كان دورسين أببقوريا ممتازا وكاتبًا بالفطرة ، ولكنه كان
أديبا أيضا . والأديب الذى تجرح عزته يغدو كشور المسرح اذا ما وخرته ،
فيغلق عينيه ويظعن كالوحش الضارى . فتركته دون إلخاف ، متأثرا بها
غلب على نفسه من صرامة ازاء بأساء عدوه . ولكنى كنت موقنا أن عناصر
طبيعته الرفيعة ، ستغلب فى النهاية بعد التأمل ، وانه اذا كان قد فكر لحظة
تفكيرًا خسيسا ، فإنه لن تمضى ساعة أو يوم حتى يشيره ذلك المنظر ، وحتى
يصنع ما طلبت . ولم أشك أنى سأشهد فوز الضمير على هذا النحو ، وان
هذه الروح الوثابة ولكن الكريمة ، تستشعر حالا بالحاجة القاهرة الى تطهير
نفسها . والواقع انه لم يمض ربع ساعة وأنا أشغل بتأمل واجهة مكتبة فى هذا
الشارع ، حتى خيل لى انى ألمح دورسين فى عربته . فقط كانت هذه العربة
تيم شطرا آخر . ولم أكن واهما فقد كان هو ... وقفت العربة أمام المقهى
ونزل منها دورسين . ثم دفع الباب الذى اختفى وراءه تورى من قبل . لم
يبق ريب ، وقد اعتزم الفتى المنتقم أن ينفذ مشروعه فى العقوبة . ولكن
تورى ان يضرب دون دفاع عن نفسه . واذن كانت هذه مبارزة محققة ،
اللهم إلا اذا كان الصحفي يحجم عن المغامرة بضربة سيف ، قد تعجزه عن
العمل ، فتتأثر صاحبتة بنكبته وتذهب سريعا الى القبر .

ولعمسرى إنى ليخفق قلبى اذا ما استعرضت ذلك المنظر رغم كروار
الأعوام . وما كنت أستطيع أن أشهد معركة تقوم بين هذين الرجلين دون
أن أمثل فيها ، إذ كنت الشخص الوحيد الذى يستطيع الوثوب بينهما ،

فهرولت الى باب المقهى ، ولكنى سرحت البصر قبل الدخول فوقفت جامدا إزاء مارأيت ، ولم أتقدم خطوة . كانت تجلس وراء « المصرف » سيدة عجوز، تعلق بحياها كآبة تشف عن جزع مالكة ترى في فقر البهو شبح الأفلاس . ولم يك ثمة سوى عميل يدخن مستغرقا في قراءة صحيفة مصورة . وكان أحد الخادمين يقرأ أيضا . أما الثانى فكان يحمل الى دورسين شرابا . وكان دورسين يرقب من مكانه امبرواز تورى الذى كان جالسا الى المائدة المجاورة له . ولكن تورى كان نائما، وأى نوم ! ذلك أن الشاعر القديم نفذ مشروعه فى استمداد الوشى من الأبننت ، فشرب الكأس تلو الكأس دون أن يفتح عليه بشئ . وكان ثمة أمامه ورقة عليها سطور مشوشة ، تم عن نكبة ذهنه . وقد استغرق الآن هادئا فى سبات ، لينسى على الأقل . وكان دورسين يتأمله مليا . فإذا كانت عواطفه عندئذ ؟ لم أعرفها قط . ولكنى رأيته يلقى ثمن مشروبه الذى لم يلمسه . ثم استخرج من جيبه أوراقا عرفت أنها أصول قصة الميلاد . ثم طلب غلافا من الخادم ، أودعه الأوراق ، وكتب عليه عنوانا . ثم جال ببصره فى البهو ، ليتأكد من أن أحدا لا يراه ، ووضع الغلاف بخفية أمام تورى ، وكان ما يزال غارقا فى سباته . ثم خرج مسرعا من المقهى ، فاصطدم بى ، فقلت له : ترى ماذا فعلت ؟

أجابنى ، وقد اشتد احمراره لتلك المفاجأة : لقد انتقمتم لنفسى . وكنت أريد ضربه فى الواقع ، ولكنى ألفت ما هو أحسن . ثم ارتسمت على وجهه ابتسامة ساخرة ، يكذبها اغروراق عينه بالدمع . وقال : « عدنى أنه لن يعرف قط ! ومن حسن الطالع أنى لم أوقع قصتى ! »



هل استطاع تورى أن يحزر من أين جاءته هذه الصدقة الجميلة ، وهى

أشد ما رأيت من الصدقات طرافة وجدة ؟ لم أعلم شيئا من ذلك . ولكن
الذى عرفته هو أنه لم يعيش إلا ثلاثة أشهر بعد ما تبلى ، التى ماتت ليومين فقط
من لقائنا الذى لم أراه بعده . ولم يذهب كرم دورسين عبثا لأن القصة ظهرت ،
وظهرت بتوقيع ذلك الذى وهبت اليه على هذا النحو الغريب . ولم يشكره
تورى قط . بيد أنه اذا كان قد عرف شخص المحسن اليه من مادته ، أفلم
يكن قبوله تكفيرا عما أساء به الى جوليان ، وهو تكفير دقيق فى صمته كهذه
الصدقة ذاتها ؟ (١)

(١) أخذت هذه القصة من مجموعة Le Cœur et le métier .

اللواحظ الضائعة

دفعنى موعد عمل هذا الصباح الى قلب الحى اللاتينى ، وكان غد يوم وقعت فيه جريمة قتل سياسى رنانة روعت أوروبا، فمررت بشوارع مدرسة الطب، أمام مطعم للطلبة، عرفت فيه نوعا من هذه المخلوقات النادرة عندنا، أعنى فتاة نهليزية، وسرعان ما تنهبت جميع ذكرياتى؛ وكان ذلك منذ عشرة أعوام، ولكن المطعم لم يتغير. وكانت الأقمشة اللامعة تغطى موائده هنا وهناك، وثمة مدفأ فى الوسط، وبجانب أحد الجدران دولاب مقسم توضع فيه فوط العمال مرقمه، وبلى هذا الدولاب سلم مدور يغطيه ستار من الحرير الأخضر، يفضى الى المخادع الخاصة، التى يقود الطلبة السعداء اليها صاحباتهم من فتيات الحانات أو الحشائش. وإنه لمطعم متواضع كثيرا ما ارتدته فى ذلك العهد البعيد، الذى كنت فيه بعيدا عن أسرقتى كما تقضى التقاليد الأدبية. وكنت أعطى دروسا فى الفلسفة واللاتينية. أجل، كم مرة جلست هنالك! كنت فى ذلك العهد ألاحظ ذلك البهو الصغير، بعين تغترف من الحقيقة ما كنت أحلم بالانتقال اليه فى خيال بديع. فليشد ما كان سرورى ذات صباح، ثم مساء هذا الصباح، ثم فى كل يوم بعد ذلك، أن أرى فتاة تجلس على مقربة منى ذات هيئة غريبة تحمل المستهتر نفسه على التأمل. وكانت صغيرة القد، نحيلة الجسم بالنسبة لرأسها، شعرها كالون القسطل، مقصوص مفروق، قد يخيل اليك أنها ذكر لولا شحوب شديد فى لونها، ودقة متناهية فى ملامحها. وكانت زرقاء عينها الخضراء كأنها أمارة السقم فى هذا الشحوب، وشفتاها شديداً المحمرة، حتى لكأنهما مدهونتان. بيد أنها كانت فى كل لحظة تعض على شفتيها الصبوحيتين، كأنما كانت تريد أن تؤكد أن هذا الاحمرار إنما هو احمرار دمها الحى؛ فنكشفت بذلك عن أسنان ناصعة ممتزقة. وكان

ثمة نوع من النعومة يبدو في حركات هذه المخلوقة الدقيقة الظريفة . وكانت ذات هيئة عصبية ، حينما تضع يدها اليمنى على وجهها الشاحب ، وهي يدق ، مربوعة ، ذات أصابع طويلة عاطلة من الحلى . فقيم كانت عندئذ تفكر هاتان العينان الجامدتان القاسيتان ، اللتان لم يكن ينطبع فيهما شيء مما يحيط بهما من الأشياء المتبدلة التي تتحرك خلالها ؟ كانت عندئذ هادئة جامدة كأنها حصى باردة . وكان لها أفتنان بديع في التأمل وهيئة استسلام مطبق ، حينما تسند الى هذه المسائدة المسكينة جسما كانت أحلامه تطوف في عالم آخر ، حتى أنى لم أحاول أن أنبهها ، بل قعنت بأن أشدد التأمل ، في كل ملاحظتها . فمن كانت ، ومن أين أتت ؟ لم أسألهما ، إذ ما الخير في محادثة رؤوس يبلغ من أثر نظراتها المحيرة أن يجعلها خيالنا على عواطف لا تتفق من حقيقة مع الحقائق .

ولكن حدث ذات مساء أن جاء ثلاثة من أصدقائي ، وهم فتیان أدباء مثلي ، ومثلي طلاب للنبوغ ، لتناول العشاء في المطعم ، بجوارنا المعتاد في الشراب قليلا ، فاضلقت منا الألسن ، وطفقت أنا أحدث أضيافي عن «التهليزم» بحماسة ، وأنتقل من متناقض الى متناقض ، داعيا الى اضرار النار في العالم القديم بأسره . ومن ذا الذي لم يأنس بين أولئك الذين يعيشون كثيرا بالحديث ، طرب الحديث ، أو الطرب الذي يبعثه سرورك باخراج فيكرتك ؟ ومن ذا الذي لم يأنس تلك الحاجة الغريبة في نهك خياله بجرأة تطرفه ؟ لقد كنت فصيحاً كما كان يدل على ذلك مرح أصدقائي لما أشبه من هذه الاشتراكية التي يذكيها الشراب ، وكنت أغرق في تأكيد نظرية أعرف أنها سخيفة ، ولا أعبا بها إلا كما أعبا بأشودتي الأولى ، التي ترسلها فتوة عقل حارة ، تأسف بعد ذلك لما بددت من تراث مخصب .

ولم أكن قد لاحظت أن الفتاة المجهولة كانت تشهد هذه العاصفة من فلسفة التشاؤم ، فدهشت أن أراها في الغد ترمقني ، ولكن بنظرة لا تدعو

الى الغزل، إذ لم يك يمثل فيها شىء من الدلال . بل لقد تنزلت بأن تتبسم
لمرحة بريئة وجهتها الى الخادمة، فارتسمت على فمها الأحمر ابتسامة بيضاء،
وانتهى الأمر بأن عقد الحديث بيننا . بأى عبارات مبتذلة كان ذلك ؟
لست أذكر شيئاً منه ؛ ولكن المرأة اذا أرادت أن تحدث رجلاً ، فان لها
فى السكوت أسلوباً يرغمك على أن تخاطبها . وسرعان ما أدركت أن ثرتنى
فى المساء السابق كانت سبب هذا الانقلاب ، إذ لم يمض على حديثنا ربع
ساعة حتى علمت أن هذه الفتاة روسية ، ولم تمض نصف الساعة ، حتى
كشفت لى نظرياتها العامة أنها كانت نهليزية متطرفة ، وقد اعترفت لى أنها
مذقمت الى فرنسا تعاني ألم الوحدة المرة ، وتأكل قلب نفسها ، وأن
عثورها بخارجها يقترب منها بنظرياته ، قد أعشما كما ينعش قدح المساء
فى يوم صيف حار . والحق أنى شعرت بشىء من الخجل لأن نظرياتي
النهليزية ، كانت قد تبددت مع بخار النبذ . لكن هذا الفم الأحمر، وهاتان
العيان الزرقاوان بخضرة، ولكن هذا اللون الناصع الشاحب، الذى كأنه لون
« كاميليا » سقيمة ؛ ولكن هذه اللهجة الروسية التى ليست باللهجة، ولكنها
تطبع بالزبن كل عبارة — ولعمري لقد كنت على أهبة لأن أعتنق الإسلام
أو غيره لأعرف ما ذا يكون ثمة وراء كل هذا ؛ ولكن كل ما كان يطاب
منى هو ألا أعتقد فى شىء ؛ وكان هذا أبسر — واذا فقد احتفظت
بحجاب المنكر المتطرف . بل لقد حدث فى نفس اليوم ان طلبت فى قاعة
المطالعة عدة مجلات تمدنى بقدر كاف من الأدب الثورى ؛ وأذكر أنى
استظهرت عناوين مؤلفات اسكندر هرزن المسكينة، وترجمة السيخيف
باكونين ، ولبتت فى الغد وما يليه أمثل هذه المهزلة أتن تمثيل . فمن
ذا الذى لم يجب : « أجل » ، لكل سؤال تلقيه امرأة كل ما فيه أن تكرر
من جديد « أليس كذلك ؟ » مقرونة بابتسامة ناعمة ؟ .

ورب أقل سذاجة منى يدهشه ما تعرضه هذه الحياة من مزيج مدهش من الاستقلال والانتظام . ذلك أن صوفيا — أكان ذلك اسمها الحقيقي؟ — كانت تسكن باريس منذ عامين . وكانت تدرس الطب ... فلماذا لم تبقى لتعيش في وطنها؟ وهل لها أهل أو لها شيء من الثروة؟ لم أعرف قط عنها إلا ما رأيته . إما مشروعا الذي باحت لى به بعد فهو أنها تعترم العودة الى روسيا ، وان تزاوّل مهنتها في قريتها ، وان تعمل على إذاعة الأفكار الغربية بين الفلاحين . وكانت أخلاقها طاهرة كأخلاق فتاة تخضع لرقابة أم تقيّة . فكنت أرى ، وأنا الذى أوّمن بمثائل الروح والفؤاد ، وأوّمن بنظريات الحس ، فى ذلك التناقض بين النقاء الذى يدنو من الورع ، وهذه النظريات التى يضطرم فيها ذلك الذكاء المنقول ، موضوعا لتأمّلات لانهاية لها . وكانت الغرفة المفروشة التى تقيم فيها ، والتى قادتنى إليها منذ بدء تعارفنا ، تطل على فناء الطبقة الثالثة فى منزل بشارع السوربون . وكان الفتيان الذين يعمرون هذا المنزل اليسير ، يقضون أوقاتهم فى « حياة باهرة من الفتوة والكآبة » على قول رينان ، فكان سلمه يغص بمخلوقات شاحبة حول أعينها هالات ، وأذبال أنوابهن قد نال منها القسدى ، وأرواحهن تجرّح فى أعماق الرذائل الباريزية . ولكن صوفيا كانت تصعد هذا السلم وتهبطه دون شائبة تلحق بأحدهما الذى كأن البرد يجرى فيه . وكانت كتبها ومراسلاتها ، ودروسها ، تستغرق كل أوقاتها . وكان الايمان المضطرم — ذلك لأن هذا التعصب الصامت الذى كان إيماننا — يهدئ من ثورة هذا الرأس الغريب ، فكانت حتى فى هذا المعتكز الذى يفيض بالفساد والرذيلة ، تفرض نوعا من الاحترام ، وتحظر التجاوز والتبسط ، وهناك تحفظ يقوم مقام العصا ، فكذا كان تحفظها .

هل كنت أهواها؟ أكذب لو قلت بلى ، كذلك أكذب لو قلت انى

لبثت بعيدا عن الانشغال بها . فقد غدا الفضول الذى تثيره فى نفسى شغفا ، جعلنى مدى حين شقيا ، كما يحدث دائما فى العواطف الغامضة ، اذا كان موضوعها امرأة . وكنت أطيل التأمل والتحليل فى بعض اللحظات ، التى كنت أقضيها متحدثا معها ، مهماً بذلك قصة بدئت ، وأطرح عمل الليل . ثم كنت بعد ذلك أنهض فى العجرج كما كان يفعل بلزك ، للأسود الورق ، ملتهب الجوانح ، مؤملا أن أشتق من أساليب الأستاذ (بلزك) قبسا من النبوغ . وكان كل سرورى ، أن أحصل لصديقتى الجديدة على تذكار المسارح ، أو أصحبها الى رياضة ريفية ، أو أهدى اليها كتابا جديدا . ولم تتجع قط هذه الأيادى التى كانت تقبلها بنفس نظراتها المستقيمة الواضحة ، فى أن تحرق هذا الغموض اللعجى ، الذى كان يحيط بشخصها ، كأنما كانت تعيش فى جو غير جونا . وتالله لقد كانت فتاة عجيبة ، تتحدث عن الحب ، وعن الأمومة ، وعن الموت ، بعبارات المادية العلمية ، ولم يحظ قط انسان حتى بتقبيل يدها ! .

... وهأنا فى ذات صبح من أيام الربيع اخترق قلب الحى اللاتينى فى ذروة حركة طلبته السعداء ، وفتياته الضاحكات ، والكأبة تسودنى ، إذ أفكر أن صاحبتى كل هذه الأمسية التى قضيناها فى البهو الصغير ، قد رحلت لى لا تعود الى الأبد . ذلك أنها غادرت منزلها ذات يوم ، ولم تترك عنوانها . ولم تكتب الى قط . ولم أقرأ من ذلك الحين قصة مؤامرة أو قصة إعدام سياسى فى روسيا إلا وانقبض منى الفؤاد^(١) .

(١) أخذت هذه القصة من مجموعة . Profils perdus

صحف

من

آنا تول فرانس Anatole France

آناطول فرانس

آناطول فرانس ؛ من أعظم أساتذة التفكير والأدب الفرنسى فى العصر الحديث ، ويعتبره البعض أعظم كتاب فرنسا المعاصرين وأشهر كاتب فرنسى منذ فولتير . ولد بباريس سنة ١٨٤٤ ، وتوفى بتور فى أكتوبر سنة ١٩٢٤ . ودرس فى كلية استانسلاس ؛ وكان أبوه تاجرا فى المكتب ، فشغف منذ صغره بالمطالعة فى مكتبة أبيه ، واشتغل بالصحافة الصغيرة ونظم الشعر ، فلفت الأنظار بجمال أسلوبه . وظهر بادئ بدء برسالة كتبها عن الفرد دى ثيبي سنة ١٨٦٨ . وفى سنة ٧٣ ، أخرج مجموعة شعرية عنوانها « القصائد الذهبية » Poèmes dorés . ثم عالج النثر والقصة ، فأصدر سنة ٧٩ مجموعة قصص عنوانها Joaste et le chat maigre ؛ وبعد عامين أخرج أولى رواياته Le Crime de Sylvestre Bonard ، فلفت نباحا عظيما ، وتوجتها الأكاديمية الفرنسية ، وكانت فاتحة مجده الكبير . وتعرف فى ذلك الحين بمدام أرمان دى كايافيه ، وهى من أكبر سيدات عصرها ؛ وكان لها بهو يتردد عليه عظماء المفكرين والفنانين والساسة ، فاتصل بهم ، ودخل المجتمع الرفيع ، وذاعت شهرته ، وتبوأ مقام الزعامة الأدبية ؛ وانتخب عضوا بالأكاديمية الفرنسية منذ سنة ٩٦ ، وأخرج طائفة متنوعة من الكتب والروايات القوية ، معظمها يعتبر نماذج باهرة للأدب الرفيع ، والبيان الساحر ، والفن الأسمى ، نذكر منها : Thais ، وهى رواية فلسفية يصف فيها الاسكندرية ومجتمعها فى فاتحة النصرانية ، و L'Etui de nacre, Balthazar, Contes de و Tournebroche, Le puits de St. Claire. وهى مجموعات قصص صغيرة ؛ ثم La Révolte des anges, Les Sept femmes de la barbe-bleue, Le Lys rouge, Jardin d'Epicure, Le livre de mon ami, Histoire comique, Les Dieux ont soif . ومن

مؤلفاته التاريخية والنقدية : M. Bergeret La Vie de Jeanne d'Arc ,
à Paris, L'Orme du mail وغيرها .

وآنا تول فرانس مفكر كبير وفيلسوف قبل كل شيء ، ثم كاتب مبدع
وفنان بارع . وهو أقرب كتاب فرنسا المعاصرين شبها بقولتير ، وأشدهم تأثرا
بنفسه في التشكك وفي السخرية ، والتنديد بالضعف الإنساني . ولعل
أهم ما يميز أسلوب آنا تول فرانس أنه ساحر لاذع ، شديد الصرامة والخبث
في تمككه ، لا يرحم ضعفا أو فسادا إنسانيا ، وخصوصا ما تعلق بالإيمان
أو التقاليد . وكثيرا ما يعتمد الى الفكاهة ، ولكن فكاهته قارصة مؤلمة أيضا
لأنه قلما يقصدها الى غير التشهير والتحقير . وهو أستاذ بارع في التحليل
والملاحظة ، يذهب في درس الطبائع البشرية الى أعماقها ، ويصور مناحي
النفس وأهوائها ، ومواطن انحطاطها وسموها ، أقوى تصوير وأبدعه . وكان
شغوبا بالعالم القديم وحكمته وفلسفته ، ولكنه كان كأستاذه فولتير عدو الإيمان
والدين ، خصما عنيدا للكنيسة ، شديد الوطأة عليها ، يشهر بتعاليمها وبرجلها
في سخرية لاذعة . وأسلوبه مثال الدقة والبساطة معا ، فهو رغم سهولته
الظاهرة أحيانا ، في منتهى الدقة والصعوبة ، وكثيرا ما تراه يعرض أعقد
النظريات الفلسفية والاجتماعية بنفس الفصاحة والبساطة اللتين يعرض بهما
حادثا أو يصف شخصا أو شيئا . وفي هذا وذلك تطبع أسلوبه ظاهرة ساحرة
من الإنافة والظرف .

ومما يذكر أن آنا تول فرانس حاول أن يخوض غمار السياسة في فاتحة
هذا القرن ، حينما طغت السياسة على الأدب أيام قضية دريفوس ، وخاض
غمارها أكابر الكتاب في ذلك العصر ، ولكنه لم يظهر فيها ظهورا قويا لأنه
لم يكن خطيبا ولا داعية ، فاكتمى بأن يخرج بعض صور نقدية سياسية لاذعة
لحياة السياسة والمجتمع الباريزي يومئذ . ولكن آراءه أخذت تتطور من

ذلك الحين ، حتى كانت الحرب الكبرى ، فأحدثت في آرائه انقلاباً كبيراً .

ولم يزل آتاتول فرانس يتزعم الحركة الأدبية في فرنسا زهاء ثلث قرن بقوة وبراعة وجلال ، حملت إليه لقب "الأستاذ الأكبر" الذي لازمه حتى وفاته . وكان لمجهوده الأدبي أعظم أثر في تطور الأدب الفرنسي المعاصر .

طالع بوناپارت

مضى أكثر من ثلاثة أشهر لم يلق فيها بوناپارت أى نبأ عن أوروبا . فلما عاد من عكا أرسل رسولا الى الأميرال العثمانى بحجة مفاوضته فى تبادل الأسرى ، ولكن فى الحقيقة بأمل أن يقبض عليه السير سدنى سميث^(١) فى طريقه ، ويوقفه على خبر الحوادث الأخيرة ، اذا كانت ، كما كان يتوقع ، خطوبا ومخنا للجمهورية . فأصاب الجنرال هدفه واستدعى السير سدنى الرسول الى سفينته ، وأكرم وفادته . ودار بينهما الحديث ، فأكد له أن جيش سوريا لم يقف على شئ من الأنباء ، وأشار اليه الى الصحف المفتوحة فوق مائدته ، ورجاه فى مجاملة خادعة أن يجمها .

ولكن بوناپارت قضى ليلته فى خيمته دون أن يقرأها . وما لاح الصبح حتى كان قد اعترم العود الى فرنسا ليسترد هنالك سلطانه الضائع . ولئن أتيح له فقط أن يحوز الى أرض الجمهورية فسوف يسحق حكومتها الضعيفة العنيفة ، التى تسلم الوطن الى الأوغاد والحمق ، ويستأثر وحده بالميدان المهد . وقد كان واجبا كى يحقق هذه الغاية ، أن يخترق البحر الأبيض فى رياح معاكسة وهو يومئذ يغص بالبوارج الانجليزية . ولكن بوناپارت لم يكن يلحظ سوى غايته وطالعه . وكان شديد الغبطة اذ كان قد وصله إذن من الحكومة المؤقتة (الديركتوار) بأن يغادر جيش مصر ، وأن يعين خلفه هنالك بنفسه . فدعا الأميرال جانتوم الذى كان منذ تحطيم أسطوله يقيم فى المركز العام ، وأمره أن يبادر سرا بتسليح نسافتين كانتا فى الاسكندرية ، وأن يقودهما الى مكان قفر من الشاطئ عينه له . ثم ألقى الى الجنرال كليبر أمرا مخنوما

(١) قائد الأسطول البريطانى الذى كان يربط يومئذ فى مياه الشام ، والذى عاون فى انقاذ عكا من السقوط فى يد بوناپارت .

بانتدابه للقيادة العامة . وسار بحجة التفتيش ، في سرية من الأدلاء الى خليج
مرابو (مريوط ؟) وأشرف في مساء ٧ فركتيدور سنة ٧ (من النتيجة الجمهورية)
على ملتي طريقين يفضيان الى البحر ، فألقى نفسه بخاة أمام الجنرال مينو الذي
كان عائدا الى الاسكندرية مع فرقته . وهنا لم يربعد وسيلة ولا داعيا لإخفاء
سره ، فألقى على جنده كلمة وداع موجزة ، وأوصاهم بالثبات في مصر
وقال لهم :

«لئن أسعدنى الطالع بالوصول الى فرنسا ، فقد انتهى حكم الثرارين» .
وكأنه كان يلقى هذه الكلمات في وحي ، دون ارادته . ولكنه كان يقصد
الى تبرير فراره ، وأن يلقى في روع سامعيه هبة سلطانه المستقبل .
ثم وثب الى قارب حملة تحت جناح الظلام الى النسافة « مويرون »
فتلقاه الأميرال جانتوم في روشنه بهذه الكلمات :

«انى أسير السفينة بإرشاد نجمك» .

ثم أمر بنشر القلوع في الحال ، وكان يصحب الجنرال ، لأقاليت أركان
حربه ، ومونج ، وبرتوليه . وأما النسافة «كارير» التي كانت تسافر الى جانب
أختها احتياطاً ، فكانت تحمل الجنرال لان ، والجنرال مورات ، وكانا جريحين ،
ودينون ، وكوستاز ، وبارسفال جرانميزون .

ومذ بدأ الرحيل ، ساد الصمت . واقترح الأميرال أن يلتجئوا الى
الاسكندرية لكي لا يطلع الصبح عليهم في أبى قير حيث كانت ترابط سفن
العدو . وتضرع لأقاليت الى الجنرال أن يستمع الى هذا رأى ، ولكن بوناپارت
أشار الى عرض البحر قائلاً : هدى روعك فسوف ننجو .

ولم يأت منتصف الليل حتى هبت ريح طيبة . وما جاء الصبح حتى
كان الركب الصغير قد غاب عن الأنظار . وكان بوناپارت يتمشى فريداً فوق
سطح السفينة ، فدنا منه برتوليه وقال : لقد كنت صادق الوحي أيها الجنرال

حينما قلت للاقاليت أن يطمنن واننا سوف نتجو .

فابتسم بوناپارت وقال : انى اطمئن رجلا ضعيفا مخلصا . ولكنى أتكلم اليك يا برتوليه بغير ذلك لأنك خلقت من ضرب آخر . ان المستقبل جدير بالاحترار ، ويجب أن لا يعتبر سوى الحاضر ويجب أن يستطيع المرء جرأة وتقديرا ، ثم ياقى الى الحظ ما تبقى .

وأسرع الخطى وقال مغمغما ، أن يجرؤ وأن يقدر... لا يعنى أن يبقى أسير فكرة مرسومة بل يجب أن يسير مع الحوادث ، وأن يسلم زمامه اليها ، وأن يستفيد من أقل الظروف كما يستفيد من أعظم الحوادث . وألا يفعل سوى الممكن ولكن كل الممكن .

وفى نفس اليوم ، أثناء العشاء لام الجنرال ، لاقاليت على اضطرابه فى المساء السابق ، فأجاب لاقاليت أن مخاوفه اليوم غيرها بالأمس ، ولكن ليست أقل منها ، وأنه يعترف بها فى غير نجمل لأنها تتعلق بمصير بوناپارت ، ومن ثم بمصائر فرنسا والعالم أجمع .

قال : انى أعلم من سكرتير السير سسدى أنه يعتقد أن فى الحصار الذى يوقع بعيدا عن الأنظار مزايا كثيرة . واذا كنا نعلم طريقه وأخلاقه ، فواجب أن نتوقع لقاءه فى طريقنا ، وعندئذ ...

فقاطعه بوناپارت قائلا : وعندئذ ألسنت تعتقد أن إلهامنا وتصرفنا يسموان على الخطر؟ . انا نغدى كثيرا من الشرف على هذا الفتى الأحمق إذ نعتقد أنه يستطيع أن يتصرف بمنهج وفطنة . إن سميث يجب أن يكون قبطانا لحراقة صغيرة .

وكان بوناپارت متحاملا فى الحكم على الرجل الخفيف الذى أضاع طالعاه فى عكا ، وذلك ، بلا ريب لأن هذا الخطب الفادح ، يغدو أخف وقعا فى نفسه اذا نسب الى ضربة من المصادفة ، لا الى عبقرية رجل .

ورفع الأميرال يده كأنما يؤكد عزيمته وقال : لو التقينا بالبوارج الانجليزية ، فسوف أصعد على ظهر « كارير » وبها أستطيع أن أشغل الأعداء حتى تلوذ « مويرون » بالفرار .

وهم لا قالت بالكلام . وكان يتوق الى القول بأن « مويرون » بطيئة السير لا تستطيع أن تستفيد كثيرا من المهلة التي تمنح ، ولكنه أخفى جزعه خوفا من أن يسوء الجماعة كلامه . بيد أن بوناپارت قرأ فكره في وجهه بخذبه من زردائه قائلا : أنت رجل نزيه يا لا قالت ، ولكذك لن تغدو جنديا كبيرا . فأنت لا تعتد كثيرا بمزاياك ، وتقف عند صعاب لا تقبل التذليل . فليس في وسعنا أن نحسن أهبة هذه النسافة للسير . ولكن يجب أن تذكر ركابها الذين تحدهم أسمى العواطف ، والذين هم اهل لأن يأتوا بالخوارق حين الحاجة . وقد نسيت أن اسمها هو « مويرون » وأنا الذي سميتها بهذا الاسم . وكنت يومئذ في البندقية فدعيت لأسمى نسافة سلحت حديثا ، فانتهزت الفرصة لأخلد ذكرى عزيزة علي ، هي ذكرى أركان حربى ، الذى سقط فوق جسر أراكولا ، وهو يقدم جسمه درعا للذود عن حياة قائده الذى كان ينهمر الرصاص عليه . وهذه هي السفينة التي تحمنا ، أفترتاب في أن اسمها ينذر بحسن الطالع ؟

وأغرق الجنرال حيناً في أحاديث حماسية يشجذ بها القلوب ، ثم نهض لينام . وعلم الجماعة في الغد أنه قتر ، لكي يجتنب الطرادات الانجليزية ، أن يسير الركب مدى أربعة أيام أو خمسة بجذاء الشاطئ الافريقى .

ومن ذلك الحين تعاقبت الأيام متعائلة مملة ، وظلت « مويرون » سائرة بجذاء السواحل المبسوطة المقفرة . وكان بوناپارت ينفق يومه في أحاديث وفي أحلام . وكان أحيانا يذكر اسمى « أوسيان » و « فنجال » . وأحيانا يطلب الى أركان حربه أن يقرأ له بصوت عال كتاب « الثسورات » لاب فرتو ،

أو تراجم بلوتارخوس . ولم يكن يبدو عليه شيء من أمارات الجزع ولا فروغ الصبر، بل كان يحتفظ بكل صفاء ذهنه، مما يرجع الى ميل طبيعي عنده لأن يعيش بكلية للحاضر أكثر مما يرجع الى قوة روحه . وكان أحيانا يأنس لذة تشوبها الكتابة في تأمل البحر الباسم أو المظلم، الذي يهدد جده ويحول دون غايته . وكان بعد الطعام ، اذا ما صفا الجو، يصعد الى سطح السفينة، ويضطجع فوق مؤخرة مدفع، في هيئة استسلام ووحشة اعتادها منذ طفولته أيام كان يجلس فوق صخور جزيرته . ويجلس العالمان مونج وبرتوليه، وقبطان النسافة، ولافاليث حوله^(١). وكان يؤثر الحديث غالبا عن ابتكار علمي محدث . وكان مونج يعبر عن آرائه في بطل وعوض، ولكن حديثه كان يشف عن ذهن منير منتظم، وكان يميل الى تحرى الفائدة فيبدو حتى في الطبيعة وطنيا صادقا . أما برتوليه فكان أعمق فلسفة، وكان يعرض نظرياته العامة في اختيار وفيض .

وكان يقول : يجب ألا نجعل من الكيمياء علما خفيا لتغيير الأشياء . فان هذه المناظر تملأ الأذهان المضطربة، ولكنها لاتقع الأذهان المفكرة التي تريد أن تخضع تغييرات الأجسام الى قوانين الطبيعة العامة .

وكان بوناپارت يرغب عن الجسد المجرد، فقاطع برتوليه ذات مساء بقوله : تبأ لنظرياتك فانها ليست إلا كالفقايع تولدها نسمة، وتبدها أخرى . ان الكيمياء يا برتوليه تغدو لهوا فقط اذا لم تستخدم حاجات الحرب والصناعة . فيجب أن يتحرى العالم في مباحثه غاية معينة عظيمة مثمرة، وهذا ما فعله مونج اذ بحث عن النترات في الكهوف لكي يصنع البارود .

وهنا قال مونج نفسه وبرتوليه للجنرال في ثبات : انه يجب أن يسود

(١) مونج وبرتوليه من العلماء الذين رافقوا الحملة الفرنسية الى مصر . ولافاليث أحد

الانسان الظواهر ، وأن يخضعها للقوانين العامة قبل أن يستخرج منها تطبيقات مفيدة ، فإذا فعل غير ذلك انحدر الى ظلمات المضاربة الخطرة .
فوافق بوناپارت على ذلك ، ولكنه كان يخشى المشل أكثر مما يخشى المضاربة . وسأل برتوليه بخاة : هل تؤمل بشروحك أن تعرض لخفاء الطبيعة الخالد ، وأن تنفذ الى المجهول ؟

فأجاب برتوليه ، أنه لا يزعم القسدة على شرح الكون ، ولكن العالم يؤدى الى الانسانية أجل الخدمات بتبديد روعات الجهل والتخريف ، وذلك يبحث الظواهر الطبيعية بحثا . عقولا ثم قال : ألا يحسن الانسان للناس بأن ينقذهم من الأشباح التي يخلقها في روعهم الخوف من جهنم «خيالية» ، وأن يتزعهم من براثن الأولياء والقساوسة ، وأن يفر عليهم روعة النبوة والأحلام .

وكان الليل يبسط حلكه على البحر الشاسع . وكان بريق النجوم الساطع في سماء لا قمر فيه ولا سحب ، كأنه مشاك معلمة مرتجفة . فاستغرق الجنرال برهة في لجة الفكر ، ثم رفع رأسه وصدره ، وأشار بيده الى حنية السماء ، وارتفع صوته الخشن خلال الصمت كأنه صوت راع فتي ، وبطل قديم ، وأنشأ يقول :

« ان لى روحا ثابجة لا يعكها شيء ، وقلبا لا تعتوره ضروب الضعف العامة . ولكن أنتعرف أنت يا برتوليه ما هى الحياة وما هو الموت ؟ وهل استطعت أن تلم بمداهما فتؤكد أنه لاخفاء فيهما ؟ وهل تثق أن كل الخيالات انما هى أبخرة أذهان مريضة ؟ وهل تظن أنك تستطيع أن تفسر كل ماتجيش به من ضروب النذير ؟ لقد كان للجنرال لاهارب قوام جندى جرى وقلبه ، وكان ذهنه يظفر أثناء المعارك بالغذاء المحمود ، بل كانت تشهذه المعارك . ولكن حدث لأقول مرة فى فومبيو ، فى الليلة التى سبقت وفاته ، أن بحث

جامدا ذاهلا، لا يعي ما يعمل، مصعوقا لرعب خفى مفاجئ . إنك تنسك
الأشباح . ألم تعرف يامونج، الكتبتين أو بليه فى إيطاليا ؟
فتدبر مونج ذاكرته برهة، وخفض رأسه ولم يذكر هذا الاسم !
فاستمر بوناپارت قائلا : لقد رقيته فى طولون حيث نال رتبته . وكان
ينعم بالشباب والجمال وخلال الجندى الفاضل ، بل كانت له خلال القدماء .
وقد راقنتى هيأته الخطيرة، وملاحه النقية، والفتنة التى تتجلى فى محياه الفتى،
حتى لقد سمىه رؤسأوه «مينرفا» ، وكان الضباط ينادونه بذلك الاسم الذى
لا يدركون معناه .

فصاح مونج : الكتبتين مينرفا ! لم لم تسمه كذلك منذ البداية ؟ لقد قتل
الكتبتين مينرفا تحت أسوار مانتوا قبل أن أصل الى هذه المدينة ببضعة
أسابيع . وكان لموته وقع عميق فى الأذهان إذ كانت يقرب بطروف خارقة
رويت لى . ولكنى لا أذكرها جيدا . وكل ما أذكره هو أن الجنرال
ميوليس أمر بأن يحمل سيف الكتبتين مينرفا وطوق عنقه مجللين بالغار أمام
سرية سارت أمام كهف فيرجيل ليلة عيد لتكريم ذكرى البطولة .

واستأنف بوناپارت ، لقد كان الكتبتين أو بليه يتكلى بهذه الشجاعة الهائلة
التي لم أشهدها إلا فى بسير؛ وكان يضطرم بأسمى العواطف ، وكان له زميل
فى الجيش أكبر منه ببضعة أعوام يحبه من صميم قلبه وكان جسورا ، مضطرم
الجوانح، تدفعه الحمية الى المسرات والمخاطر معا . فكان فى المعسكرات مثال
المرح . وكان أو بليه عبد الواجب الأسمى ، وكان ديمارتو داشقا طروبا
للجند، وكان يصدق على زميله من أسباب الوفاق قدر ما يصدق عليه . وقد
هلك كلاهما فى ظروف غريبة . وقد نبئت بها مثلك يا مونج ، ولكنى
عنيت بها أكثر منك رغم أن ذهنى يومئذ كان يشغل بغايات كبرى ،
إذ كنت أريد أن أعجل الاستيلاء على مانتوا قبل أن يستطيع جيش نمسوى

جديد أن يصل الى إيطاليا . ومع ذلك فقد قرأت تقريرا كتب عن الوقائع التي تقدمت وعقبت موت الكتبتين أو بلبه فاذا منها ما يسمو الى الخوارق . ويجب أن نرجع السبب إما الى قوات خفية يحصل الانسان عليها في دقائق فريدة ، وإما الى تدخل فهم أسمى من أفهامنا .

فقال برتوليه : يجب أن تطرح الفرض الثاني جانبا أيها الجنرال ، فإن الباحث في خواص الطبيعة لا يلاحظ فيها قط تدخل فهم أسمى .

قال بوناپارت : انى أعلم أنك تنكر العناية . وهى حرية يسمح بها لعالم سجين في مكتبه ، ولكن لا الى قائد شعب لا يسطر سلطانه على الكافة إلا بالاشتراك معهم في الفكر . اذ يجب لكى تحكم الناس أن تفكر مثل ما يفكرون في كبرى المسائل ، وأن تنزل على رأيهم .

ثم رفع بوناپارت عينيه في الظلمات ، نحو الضوء الذى يرتجف في رأس القلع الكبير وقال : ان الريح تهب نحو الشمال .

فقال الأميرال جانتوم انه يجب ألا ينتظر أن نغير الريح قبل أيام الخريف الأولى .

ثم اتجهت ذروة الضوء نحو مصر ، فسرح بوناپارت بصره الى تلك الناحية ، وكانت نظراته تنفذ الى الأفق الشاسع ، وتخرج كلماته من فمه متقطعة وهو يقول :

فليحسنوا تدبيرهم هنالك ، ان الجلاء عن مصر يغدو نكبة حرية وتجارية ، فالاسكندرية عاصمة سادة أوربا ، وفيها سوف أحطم التجارة البريطانية ، وأسبغ منها على الهند مصائر جديدة . ان الاسكندرية بالنسبة لى كما كانت للأسكندر قاعدة للتسليح ، والثغر والممكن الذى أثب منه لأغزو العالم ، وإليه أدفع ثروات إفريقية وآسيا . ان إنجلترا لن تهزم إلا في مصر ، فاذا هى استولت على مصر ، فسوف تحل مكاننا في سيادة الكون . ان

الشعب التركي يحتضر، ومصر تؤكد لى ملك اليونان، وسوف يخلد اسمى الى جانب اسم إبيامينونداس . إن مصير العالم يتوقف على ذكائى وعلى ثبات صكليب .

ولزم الجنرال الصمت فى الأيام التالية . وأمر أن يقرأ له كتاب « ثورات الجمهورية الرومانية » فبدأ له ذا إسهاب مل، فأمر لافاليت أن يسرع فى قراءته . ولكن سرعان ما عيىل صبره ، فانتزع الكتاب من يد لافاليت ، وطلب « تراجم بلوتارخوس » وكان لا يسأها قط، ويرى انها وإن تك خالية من المنطق العميق الواضح، تعرب عن عاطفة قدر قووية .

ففى ذات يوم ، نادى قارئه عقب الراحة وأمره أن يستأنف قراءة « حياة بروتوس » حيثما وقف بالأمس ، ففتح لافاليت الكتاب عند المكان المعين وقرأ ما يأتى :

« فى الوقت الذى كان فيه يعترم وكاسيوس أن يغادر آسيا مع جميع الجيش (وكان ذلك ذات ليلة شديدة الحلك ، ولم يكن مضربه مضاء إلا بنور ضئيل ، وكان السكون العميق يسود كل المعسكر ، وكان هو غارقا فى تأملاته) إذ خيل له أنه يرى انسانا يدخل مضربه ، فحؤل بصره نحو الباب ، فرأى شبعا هائلا ، ذا وجه غريب مرعب يدنو منه ثم يقف صامتا ، فتشجع وخاطبه قائلا : « من أنت ؟ أبشر أم إله ؟ ولم أتيت ، وماذا تريد منى ؟ » فأجاب الشبح : « لنى روحك الخبيث يا بروتوس ، وسوف تانى فى فيليب » فعندئذ قال برونوس دون اضطراب « إذن سوف أراك هنالك » فاختفى الشبح فى الحال . وقال الحشم الذين دعاهم بروتوس أنهم لم يروا ولم يسمعوا شيئا ، فاستمر فى تأملاته .

فصاح بوناپارت خلال وحشة الموج : هنا يحدث مثل هذا المنظر شعور روعة حق . ان بلوتارخوس راوية قصدير ، فهو يعرف كيف يذكى

القصة، ثم هو يصور الأخلاق، ولكن تفوته رابطة الحوادث . وليس في وسع الانسان أن يتجنب مصيره . ولكن بروتوس، وهو روح ضعيف، كان يعتقد في قوة الإرادة . ولكن رجلا رفيعا لا يساوره هذا الوهم، فهو يرى الضرورة التي تحت من إرادته . والعظمة نتوقف على كل شيء، وإني لأتوقف على حوادث يوجهها لا شيء، فما أتعسنا نحن البشر إذ لا نستطيع شيئا لمغالبة طبيعة الأمور . ان الأطفال ذوو إرادة، ولكن رجلا عظيما لا إرادة له . فما هي الحياة البشرية؟ لعمري أنها ثيعة مقذوف .

وهنا جاء الأميرال يني بوناپارت بأن الريح قد تغيرت أخيرا، ووجبت محاولة المرور . وكان الخطر داهما، إذ كان البحر الذي سيقدمون على اجتيازه، وهو الواقع بين تونس وصقلية، تحرسه البوارج الانجليزية التي بشها الأسطول الانجليزي المربط في سرقوسة بقيادة نلسون . فاذا عثرت بارجة بالركب الصغير، فانه لا تمضي ساعات حتى يفاجئهم الأميرال الهائل بطاعته .

فوجه جانتوم السفينة الى حذاء رأس بون، وأطفأ الأنوار ليلا . وكان الليل صافيا، فرأى الدليل في الشمال الشرق أضواء سفينة، فتسرب الجزع الذي كان ينهش لأفاليث الى موج ذاته .

وكان بوناپارت يجلس على مؤخرة المدفع المعتاد في سكينه تبسود حقيقة متى ذكرنا استسلامه الغاص بالآمال والأوهام، أو مفتعلة متى ذكرنا قدرته الهائلة على الاخفاء . فتحدثت مع مونج، وبرتوليه في مسائل شتى في الطبيعة والرياضة والفن والحرب، ثم عطف على التحدث عن بعض أوهام لعل ذهنه لم يكن يتحرر منها تماما .

فقال لمونج : إنك تنكر الخوارق . ولكننا نعيش ونموت بين الخوارق . لقد ذكرت لي يوما أنك استبعدت من ذهنك باحتقار كل الحوادث الغريبة

التي اقترنت بموت الكبّتين أو بليسه . وقد يكون ذلك لأن الايمان الايطالى قدّمها اليك فى ثوب مزخرف . ولكن استمع لى ، فاليك الحقيقة مجرّدة : فى منتصف ليلة ٩ سبتمبر ، كان الكبّتين أو بليه يعسكر أمام مانتوا . وكان حر اليوم المرهق قد أعقبه ليل صبور ينعشه الضباب الذى تكسّد فى أفق السهل الموحش . فلمس أو بليه معطفه فألفاه مبتلا ، فشعر برجفة خفيفة ، واقترب من نار كان الجند قد طبخوا عليها الحساء ، فأدنى منها قدميه وهو يجلس فوق سرج جواد ، وضيق الليل والضباب نطاقيهما من حوله . وكان يسمع عن بعد صهيل الخيل ، وصيحات الحرس المنتظمة . ومرت عليه كذلك بضغ دقائق ، وهو جزع ، كئيب ، يسرح بصره فى حطام النار ، فإذا به يرى شبحا كبيرا يدنو نحوه فى سكون حتى شعر به الى جانبه ، فلم يجرؤ أن يحول رأسه نحوه بادئ بدء ، ولكنه حوّلها مع ذلك فرأى أمامه الكبّتين ديمارتو صديقه ، وهو كعادته يضع ظهر يده اليمنى فوق عجزه ويمشى فى بطاء . فشعر الكبّتين أو بليه بشعر رأسه يقف ؛ ولم يك ثمة ريب فى أن صديقه يقف الى جانبه ، وهذا ما كان مستحيلا أن يؤمن به مع ذلك ، لأن الكبّتين ديمارتو كان يومئذ مع الجنرال جوردان على ضفاف نهر « الماين » حيث كان يلقي جيش الأرشيدوق شارل . وكان منظر صديقه يذكى رعبه بمسحة غريبة ترتسم على محياه . كان هذا ديمارتو صديقه ، ومع ذلك فكان يستحيل على إنسان أن يراه دون أن يهلع . ففتح أو بليه فمه ، ولكن لسانه المشلول لم يستطع نطقا . فتكلم الآخر قائلا :

« وداعا ، فسوف أذهب الى حيث يجب أن أذهب ، وسوف نلتقى غدا » .

ثم ابتعد بنحطى لا صوت لها .

« وفى الغد أرسل أو بليه للاستطلاع فى سان جورجو ، فدعا قبل

رحيله أقدم ضابط ، وألقى اليه التعليمات الضرورية ثم قال : سوف أقتل اليوم ، كما قتل ديمارتو ليلة أمس بلا ريب .
« وقص على بعض الضباط ما شهد بالأمس ، فاعتقدوا أنه كان في ذروة من الحمى التي بلغت في الجيش مستنقعات مانتوا .
« ووصلت جماعة أو بليه دون حادث الى قلعة سان جورجو فأدّت بذلك مهمتها . ثم عادت أدراجها الى مركزنا . وكانت تسير في ظل غابات الزيتون ، فاقترب أقدم الضباط من الكبّتين وقال له :
« لم يبق ريب بعد ، يا كبّتين مينرفا ، أنا سنعود بك حيا .
« فهم أو بليه بالجواب ، واذا برصاصة تدوى خلال الأغصان وتخترق جبّينسه .

« وبعدئذ بخمسة عشر يوما ورد خطاب من الجنرال چوردان ، وأذاعته الحكومة المؤقتة في جيش ايطاليا ، وفيه نبأ بأن الكبّتين ديمارتو قد سقط قتيلا في ميدان اللوغى في يوم ٩ سبتمبر » .



ولما انتهى الجنرال من قصته ، نهض فاخترق دائرة مستمعيه وهم سكوت ، وأخذ يحوب سطح السفينة صامتا بخطوات واسعة .
فقال الأميرال جانتوم : لقد جزنا مرحلة الخطر أيها الجنرال .
وفي الغد حول سير السفينة نحو الشمال ، مقترحا أن يحاذى شواطئ سردانيه حتى كورسيكا ، ثم يتجه بعد ذلك الى شاطئ بروفانس ، ولكن بوناپارت أراد أن يرسو على شاطئ لانجدوك خوفا من أن يكون العدو جائئا في ثغر طولون .

فاتجهت « مويرون » نحو بورفاندر ، ولكن ضربة من الريح ردتها نحو كورسيكا واضطرتها أن ترسو عند أچاكيو (مسقط رأس نابليون) فهرع

كل الناس لتحية مواطنهم ، وماجت بهم ربي الخليج . وبعد بضع ساعات من الراحة ورد في أشائها نبأ بأن كل الشاطئ الفرنسي أمين ، سارت «مويرون» في اتجاه طولون ، وكانت الريح طيبة ولكن ضعيفة .

ففى هذه الآونة التى سادت فيها السكينة على الجميع ، بدأ الجزع يساور بوناپارت وحده ، وغلب عليه التلهف لرؤية الشاطئ حتى كان يقبض أحيانا بيده على سيفه بحركات سريعة . وكان شغف الحكم الذى كان يضطرم بين جوانحه منذ ثلاثة أعوام يتقدضاما . ففى ذات مساء أخذ يحدث الجماعة بسرعة تضطرب لها العبارات فى فمه ، ويقول :

«أن الثرثارين والعجزة ، سيجهزون على فرنسا . لقد ضاعت ألمانيا فى شتوكاخ ، وضاعت إيطاليا فى تريبا ، وهزمت جيوشنا ، وقتل وزرائنا ، وغص الموردون بالذهب ، وختل المخازن من المؤن والعدد ، وغدا يهدنا الفتح : هذا ما تحمله الينا حكومة لا قوة لها ولا شرف .

ثم قال : إن الرجال ذوى النزاهة هم وحدهم الذين يمدون السلطة بالمؤازرة الممكنة . أما ذوو الضمائر الفاسدة فلا يثبتون إلا اشمئزا عميقا ، ولا نستطيع أن نحكم معهم .

فقال مونيخ ، وكان وطنيا صادقا : إن الاستقامة ضرورية للحرية ، ضرورة الفساد للاستبداد .

فقال نابليون : ان الاستقامة خلقة طبيعية فى نفس الرجال الذين يولدون

للحكم .

وكانت الشمس قد أخذت تشق الغمام والحلك ، بقرصها الأحمر . وكانت السماء تغص من جهة المشرق بقطع خفيفة من الضباب كأنها أوراق وردة نائمة . فظهر فى الأفق فجأة قلع سفينة تبين الضابط المراقب فيه فى الحال العلم البريطانى .

فصاح : لا ثأليت ، أنتجو من أخطار لا نهاية لها لنهلك على مقربة من الشاطئ ؟ .

فهز بوناپارت كتفيه وقال : هل يشك أحد بعد في سعدى وفي قدّرى ؟ ثم أطلق العنان لأفكاره وأخذ يقول : يجب سحق أولئك الأوغاد والعجزة ، واستبدالهم بحكومة حازمة ، حركاتها سريعة وثيقة كالأسد . ويجب أن يسود النظام ، فلا إدارة بلا نظام ، ولا ثقة ولا مال بلا إدارة ، ولا تسفر الفوضى إلا عن خراب الدولة وخراب الأفراد . ويجب القضاء على الجريمة والانحلال الاجتماعي . فما هي فرنسا دون حكومة ؟ ثلاثون مليون حصاة . إن القوة كل شيء ، وغيرها لا شيء . لقد حدث في وقائع ثنديه أن حكم أربعون رجلا مقاطعة بأسرها . والشعب كله يريد قبل كل شيء أن ينعم بالراحة والنظام والوئام ، وهو على أهبة ، لكي يتخلص من اليعاقبة والمهاجرين ، أن يلقى بنفسه في أحضان سيد .

قال برتوليه : وهذا السيد ، أيجب أن يكون زعيما جنديا ؟

أجاب بوناپارت بعزم : كلا ، كلا ، لن يكون جندي أبدا سييدا لهذه الأمة التي استنارت بالفلسفة والعلم . ولو أن قائدا حاول انتزاع السلطة ، لعوقب على جراته عاجلا . لقد فكر هوش في هذا ، ولست أدري ان كان قد وقفه لهو أو تقدير حق للأمر ، ولكن المشروع ينهار فوق رأس كل جندي يحاوله . أما أنا فأقر هذا التحرك من جانب الشعب الفرنسي الذي لا يريد أن يخضع لنير عسكري ، ولا أتردد في القول بأن الغلبة في الدولة يجب أن تكون للعنصر المدني .

فأخذ مونج وبرتوليه كل منهما يحدج صاحبه دهشا لهذه التصريحات . فهما يعرفان أن بوناپارت سيجوز المخاطر والمجاهل ، ليقبض على السلطان ، ولم يدركا شيئا من حديث يلوح منه أنه يزهد في ذلك السلطان الذي يضطرم

شغفا لتبيله . واغبطت مونج في سريرة نفسه لأنه من عشاق الحرية ، ولكن
الجنرال أدرك ما يحول في خاطرها فقال في الحال :

من المحقق أنه اذا كانت الأمة تُتَبَّن في جندي ، تلك الخلال المدنية التي
لا بد منها لإدارة البلاد وحكمها ، فإنها توليه زمامها ، على أنه يكون عندئذ
رئيسا مدنيا لا عسكريا . وهذا ما تتطلبه الأذهان في بلد متمدن ، عاقل ، عالم .
ثم صمت بوناپارت برهة وقال : إني عضو في المجمع العلمي .
وكانت السفينة الانجليزية قد سارت بضع دقائق عند خط الأفق الأحمر ،
ثم اختفت .

وفي صباح اليوم التالي أعلن المراقب ظهور الشاطئ الفرنسي ، واقتراب
«مويرون» من بورفاندر ، فصوب بوناپارت نظره نحو تلك النقطة الشاحبة ،
واضطربت روحه بمعتك من الفكر ، وساوره حلم باهر غامض من الأساحة
والعدد ، وطنت أذناه في صمت البحر بدوى هائل ، فرأى خلال أشباح
الحنند والقصة والنواب وجماهير البشر التي تتحدر أمام عينيه ، جوزفين باسمها
فاترة ، منديلها على شفتيها ، ونحرها نصف عار — وكانت ذكراها تلهب دمه .
وهنا قال جانتوم مشيرا الى الشاطئ الذي أخذت تثيره أشعة الشمس :
أيها الجنرال لقد قدّرتك الى قدّرك الذي ينتظرك ، وإنك لترسو كما رست
«إينيه» على الشواطئ التي وعدت بها الآلهة .

ونزل بوناپارت في فريجوس في ١٧ ثنديمير للسنة الثامنة .^(١)

(١) أخذت هذه القصة من مجموعة Contes de Tournebroche

درس عميق الأثر

كان في باريس في عصر الملك لويس الحادى عشر، سيدة رفيعة تدعى «فيولانت» . وكانت حسناء بدبعة القُدْب ناصعة المحيا حتى أن الأستاذ چاك تريويار — وهو دكتور في الحقوق وفلكى بارع ، كان يكثر من زيارتها — اعتاد أن يقول لها :

« كلما رأيته يا سيدتى اعتقدت حقيقة ما يرويه «بيجر» فى حاشية له على «استرابون» أعنى أن مدينة باريس الموقرة كانت فى غابر العصور تسمى «لوتيس» أو «لوسيس» أو ما يشبهها مما هو مشتق من كلمة «لوكيه» أعنى بيضاء، ذلك لأن نساءها ناصعات النحور كالبرد ، ولكن لا كنصوع نحرك وبهائه يا سيدتى .

وكانت فيولانت تجيبه قائلة : يكفينى ألا يكون نحرى مبعث الرعب كنحور كثيرة أعرفها ، وإذا كنت أبدى نحرى فذلك اتباعا للزى ، إذ من عظيم القحة أن يشد المرء عن عرف متبع .

وكانت السيدة فيولانت قد تزوجت فى شرح شبابها من محام فى البرلمان . وكان فظا سىء الطباع يميل على الفقراء ويثقل كاهلهم ، ثم كان سقيما شاحبا ، حتى لقد تعتقد أنه أصالح للأذى خارج منزله منه لإحداث السرور داخله . وكان هذا الرجل الساذج يؤثر الانكباب على ملفات قضايا الضخمة المختلة ، ويقضى ليلاليه فى مراجعتها . وكانت السيدة فيولانت أعقل من أن تحب زوجا مثله قليل الألفة . وكان الأستاذ چاك تريويار يقرّر أنها فى ذلك وافرة الحكمة راسخة فى فهم الايمان الزوجى رسوخ لوكريس الرومانية ، ويدلل على ذلك بأنه لم يفالح فى أن يحولها عن واجباتها .

وكان أهل الخليل يقفون إزاء ذلك موقف ريب حذر؛ بفكرة أن ما هو

خفى، لا يظهر إلا يوم الحساب فى الآخرة؛ ويرون أن هذه السيدة تشغف بالحلى والديباج، وتبدو فى المجتمعات والكائس فى أبواب من الدمقس والحريير والذهب؛ غير أنهم كانوا أعفاء يأبون القول بأنها تأثم مع أحد من الناس، وإن قالوا بلعنة النصارى الذين يرونها وافرة الحسن. والواقع أن معترفها الأب جان تيرليير كان يؤنبها بلا انقطاع ويقول لها :

«هل تعتقدين يا سيدتى أن السعيدة كاترين قد رفعت الى السماء باتباع ما تتبعين من أساليب الحياة وإبداء نحرها وجلب الحرائر من مدينة چنوه» .
وكان الأب واعظا كبيرا، شديد الحكم على الزلات البشرية، لا يغفر خطيئة، ويعتقد أنه فعل كل شىء اذا أخاف محدثه؛ فكان يهددها بالبحيم لأنها غسلت وجهها ذات مرة بلبن حمارة؛ ولم يكن يعرف لإنسان هل تحسن إلباس زوجها الشيخ قانسوته، فكان السيد فيليب دى كوككتيس يقول مداعبا لهذه السيدة المصونة :

«حذار، فانه أصلع . وسوف يصيبه البرد» .

وكان السيد فيليب دى كوككتيس، شريفا جميلا، حسن الطلعة . وكان قد لقي السيدة فيولانت ذات مساء فى مرقص، فأكثر من الرقص معها، ثم أودفها وراءه فوق جواده، وحملها الى منزلها، بينما كان المحامى يلعب بماء القنوات وطينها، تحت الأضواء المرتعدة لمشاغل غلمان سكارى . ففى خلال هذا المرقص وهذه الرجعة، أنس السيد فيليب أن السيدة فيولانت، ذات قوام مليء ولحم خصب ثابت، وأحبها من وقته وساعته . ولما كان السيد لا يعرف المواردية فقد أفضى اليها بما يبتغيه منها وهو أن يضمها عارية؛ فكانت تجيبه :
أيها السيد فيليب، است تعرف من تخاطب فأنا سيدة عفيفة .

أو، تعال غذا أيها السيد .

فاذا عاد فى الغد قالت له : علام تتعجل ؟

وكان يساور السيد من هذا المطل كثير من ضروب الجزع والاسى ، حتى لقد أوشك أن يعتقد كما يعتقد الأستاذ تريويار أن السيدة فيولانت إنما هي قرينة « لوكريس » كما أنه من الحق أن كل الرجال يتشابهون فى الغرور ! كذلك يجب أن نقول أنها لم تسمح قط له حتى بأن يقبل ثغرها ، وهى مسرة نافهة ونزول ضئيل .

وكانت الأمور كذلك حينما دعى جان تيرليير الى البندقية من رئيس طائفته ، ليعط هنالك أتركا نصرورا حديثا . فذهب الأخ ليودع السيدة ويؤنبها بأشد مما اعتاد على كونها تحيا حياة خليعة ، ويعطها بجملة أن توب ، ويشدد عليها أن تضع فوق الجلد « بلسما » معينا ، هو علاج لا نظيره فى إحماد الشهوات السيئة ، ودواء فذ للأولى تغلبهم شهوات اللحم .

فقلت له : أيها الأخ الفاضل ، لا تبالغ فى طلباتك .

غير أنه لم يصغ إليها ، بل هتدها بالجحيم اذا لم ترعو . ثم قال إنه على أهبة لأن يقوم بما تكلفه به من المهام ، وكان يؤمل ان ترجوه أن يحضر لها « أيقونة » مباركة ، أو شيئا من تراب القبر المقدس المزوج بالورود الناشفة ، وقد كان يحملها الأتراك يومئذ ويبيعه القسس الايطاليون . ولكن السيدة فيولانت طلبت اليه ما يأتى :

قالت : أيها الأخ الجميل الصغير ، ما دمت ذاهبا الى البندقية حيث يوجد مهرة صناع المرايا ، فانى أكون شديدة الشكر لك اذا حملت الى مرآة تكون أسطع ما يوجد من المرايا .

فوعدها الأخ جان تيرليير أن يحقق أمنيتها . واستمرت السيدة فيولانت أثناء غيبة معترفها على نفس أساليب حياتها الماضية ، فلما قال لها السيد فيليب « ألا يحسن أن نتحاب ؟ » أجابته « إن الحر شديد جدا ، فانظر الى السارية لتعرف ما اذا كانت الريح لم تتغير » . وبذا ينس أهل الخير الذين يرقبون سيرها

من انها لن تحمل زوجها الخبيث قرونا قط، وقالوا «ان هذه الخطيئة» .
فلما عاد الأخ چان تيرلير من ايطاليا، ذهب الى السيدة فيولانت ونبأها
أنه حمل اليها ما تبغى قائلا : انظري ياسيدتى .

ثم استخرج من تحت ردائه حجممة ميت وقال : هذه هي مرأتك
ياسيدتى ؛ وقد قدمت الى باعتبارها حجممة أجمل امرأة في البندقية . وقد
كان شأنها شأنك الآن، ولشد ما تشبهينها .

فغلبت السيدة فيولانت على دهشتها واشتمزازها ؛ واجابت الأخ الفاضل
بثبات، أنها قد فهمت درسه وانها لا بد مستفيدة منه .

قالت : سوف تكون مرأتك التى حملتها من البندقية، ماثلة فى ذهنى
حيث أرى نفسى ليس كما انا الآن بلا ريب ، بل كما سوف أكون عاجلا ؛
وأعدك انى سأضع منهج سيرى طبقا لتلك الفكرة .

ولم يكن الأب ينتظر هذه النتيجة الحسنة فأعرب عن رضاه وقال
أنت ترين اذن يا سيدتى أنه لا بد من تغيير العواطف ؛ وأنت تعديننى أن
ستنظمين منذ الآن فصاعدا سيرك، طبقا للفكرة التى حملها اليك ذلك الرأس
البالى، فهلا تقدمت بهذا الوعد الى الله كما تقدمت به الى ؟

فسأله : أفلا مناص من ذلك ؟

فأجابها : لا مناص .

فقالت : سوف افعل اذن .

قال : انك تحسنين صنعنا ياسيدتى ؛ وليس ثمة من سبيل للنكث بعد .

قالت : لن أنكث .

سمع الأخ چان تيرلير ذلك العهد فانصرف فرحا، وهو يصيح فى الطريق :
أنعم بهدا، لقد دفعت بعون الله مولانا الى باب الجنة سيدة كانت تسعى الى
فتنة الرجال، وسوف تعدل عن سيرها الى أفضل منه . لقد غيرتها تماما .

فحمد الله !

وما كاد الأخ الفاضل ينزل السلم ، حتى صعدته السيد فيليب دى كوكتيس ، وطرق باب السيدة فيولانت فاستقبلته باسمته ، وقادته الى مخدع صغير مزين بالبسط والوسائد ، لم يدخله من قبل ، فاستبشر خيرا ، وقدم اليها قطعا من الحلوى كان يحملها في علبه قائلا : لأنها لذيذة سائغة ، ولكنها ليست حلوة كحشيتك .

فأجابته السيدة ، أنه من الحق والعبث أن يطرى فاكهة لم يذوقها بعد . فأجابها عندئذ بتقويل ثغرها .

فلم تغضب . بل قالت فقط انها امرأة شريفة ، فنصيحها بالألتحس هذا الشرف فى مخدع خاص كهذا يمكن أن يتنك فيه ؛ بل أنه سوف يتنك بلا ريب ، وفى هذه اللحظة .

فأخذت تلطمه براحتها الوردية قائلة : حاول .

غير أنه كان قد غدا سيد الموقف يسيره طبقا لأهوائه فصاحت : كلا لست أريد . ! لا تفعل أيها السيد . يا صديق ... يا حبيبى ! انى أموت ثم قالت بظرف :

أيها السيد فيليب : إياك أن تملك نفسك بأخذك إياى قسرا أو مفاجأة فائن كنت قد حصلت منى على ما كنت تبغى فذلك طوعا منى ؛ ولأنى لم أقاوم إلا بقدر ما اقتضته هزيمتى المختارة . حبيبى اللطيف : انى ملك لك ، وإذا كنت برغم جمالك الذى أسرفى بادئ بدء قبل أن تأسرنى رقة حبك ، لم أهبك ما حصلت عليه الآن برضاى فذلك لأنى لم أفكر فى الأمر ، ولم أك أشعر أن الزمن يرهقنى ، ولأنى كنت غارقة فى دعة وفتور ، فلم أستمتع ذرة بشبابى وجمالى . ولكن الأخ الفاضل جان تيرليير ألقى على درسنا نافعا ، إذ علمنى قيمة الزمن ، وقال لى وهو يرينى رأس ميت « هكذا تصبحين فى القريب

العاجل » فرأيت وجوب التعجيل باغتنام اللذات ، وإن أحسن استخدام الزمن القليل الذى منح لنا من أجل هذا .

هذه الكلمات وما اقترن بها من مداعبات السيدة فيولانت ، حملت السيد فيايب على أن يحسن استخدام الزمن ، حفظا لشرفه ، واغتناما لفائدته ، وتحقيقا لمسررات صاحبتة ومجدها ، وأن يضاعف الأدلة الوثيقة التى يجب أن يبديها فى مثل هذا الظرف خادم مخلص أمين .

بعدئذ أبرأته السيدة ، وقادته حتى الباب وقبلته فى عينه بظرف وقالت :
أليس خيرا أن نعمل بنصائح الأخ الفاضل جان تيرلير يا صديقي ؟^(١)

(١) أخذت هذه القصة من مجموعة Contes de Tournelbroche .

شبح المكارى

[هذه القطعة ليست قصة مستقلة ، ولكنها صفحة اختراها من رواية التاريخ الهزلى Histoire Comique لأنها تصف مناظر مصرية . « والتاريخ الهزلى » قصة باريزية تدور حول المسرح الهزلى وأحواله وأحوال ممثليه ، وبطلتها فتاة حسناء فتية من عامة الشعب تدعى « فيليشى » . ومن شخصياتها البارزة الظريفة طبيب هو الدكتور تروبيه ، وهو طبيب مسرح (الأوديون) الذى تعمل فيه فيليشى ، ويصوره الكاتب شخصا بادنا ، فكها ذلقا ، يطرب الممثلات بنكاته وأحاديثه . ومن شخصياتها أيضا ممثل هزلى مرح يدعى (شقاليه) يعمل مع فيليشى فى (الأوديون) . وكانت فيليشى قد مالت ذات يوم الى (شقاليه) ففهم بها ونعم بصحبته ربحا من الزمن . ولكنها عادت فبنذته لثحب سيدا ففى من ذوى المكانة والمناصب . فلبث الحبيب الأول يطاردها ويتوعدها وهى تزدداد قسوة عليه وإصرارا على نبذه ، حتى كان ذات يوم فانتحر برصاص مسدسه أمام عتبة الدار التى كانت تنعم فيها ببقاء صاحبها الجديد . ورأت فيليشى بعينها ذلك المنظر المروع ، ورأت شقاليه يهق أمامها ويتخبط فى دمه شهيد عسفها ، فتولاها مدى حين شبه كابوس مخيف ، واستمرت أياما ترى شبح المنتحر أمامها يلاحقها ويطاردها فى كل آونة ، فأفضت ذات يوم بهذه الآلام الى صديقها الدكتور تروبيه ، ولكن لم تفرض باسم ذلك الشبح الذى يرقعها ، ولم تقل إنه شبح ميت زهى شهيد الهوى والغيرة . فواساها الدكتور قائلا : ان آلام البشر هذه أو رؤية الأشباح ، ليست خطيرة ولا نادرة ، بل هى تفيض عاجلا فلا تخلف وراءها أثرا ، وزاد على ذلك بأنه آنس فى ماضيه هذا الألم ورأى الأشباح . أجل رأى هذه الرؤيا فى مصر منذ عشرين سنة خلت .

فقدت فيه فيلشى بدھشة وفضول . واليك ما قصه الطبيب بعد أن
أضاء كل مصابيح الغرفة تبديدا لأشباح الظل] .



قال الدكتور تروبيه :

لما كنت أزاول مهنتي في القاهرة ، كنت في شهر فبراير من كل عام أشق
النيل الى الأقصر ، ومن ثم أذهب برفقة الصباح لأزور القبور والمعابد
في الصحراء . وتجري هذه النز في وھاد رمليّة على ظهر الحمار ، ففي آخر مرّة
زرت فيها الأقصر ، استأجرت مكاريّا (حمارا) فتى ، كان حماره المسمّى
« رمسيس » أقوى من غيره . وكان هذا المكاري الذي يدعى « سليم » ، أيضا
أقوى وأجمل وأرشق من زملائه . وكان في الخامسة عشرة من عمره .
وكانت عيناه النجلاوان الوحشيتان تسطعان تحت حجاب بديع من الأهداب
الطويلة السوداء ، وكان وجهه أسمر ، حسن الاستدارة والنقاء . وكان يمشي
في الصحراء عارى القدمين ، بخطوات تذكّرنا برقصات أولئك المحاربين الذين
تذكّرهم التوراة ، وكانت حركاته كلها تتم عن ظرف . وكان مرحه الذي كأ
مرح حيوان فتى ، مطربا ساحرا ، وكان ينخس بطرف عصاه جانب رمسيس
ويخاطبني بعبارات موجرة هي مزيج من العربية والانجليزية والفرنسية ،
فيحدثني عن السياح الذين رافقهم والذين يعتقدهم جميعا أمراء وأميرات ،
فاذا سألته عن والديه أو صحبه لزم الصمت ، وبدا عليه الاستهتار والضيجر .
واذا سألتني أن أعده بعطية (بقشيش) حسنة ، رقت نبرات صوته ورنحت ،
وكان يأتي حيلّا طريقة ويستنفد كنوزا من التضرع المبكى ، لكي أعطيه
(سيكارة) . وكان إذا لاحظ أني أمدح زملاءه الذين يرفقون بهميرهم ، يقبل
أمامي رمسيس فوق منخرية ، ويراقصه كلها وقفنا . وكثيرا ما كان يوفق
بذكائه الى نيل ما يريد مني ، بيد أنه كان قليل الحرص جدا ، فلا يسد

أقل عرفان لما يحصل عليه ، وكان ظمئا إلى القروش ، ولكنه كان أشد ظمأً إلى الأشياء الصغيرة البراقة المستورة كالدبابيس الذهبية والخواتم وأزرار الأكمام ، فاذا رأى سلسلة ذهبية أضواء وجهه بقبس من السحر .

« وكان الصيف الذى تلا أشق أوقات حياتى . فقد عصف وباء الكوليرا بالوجه البحرى . وكنت أطوف المدينة من الصباح إلى المساء فى جو خانق . وصيف القاهرة شديد الوطأة على الأوربيين ، ولكنى جرت يومئذ أشد ما عرفت فى حياتى من الفترات الحارة . ثم علمت ذات يوم أن سليما قدم الى المحكمة الأهلية بالقاهرة وحكم عليه بالاعدام ، وكان قد قتل ابنة أحد الفلاحين ، وهى صبية فى التاسعة ، لكنى يسرق قرطها ، ثم ألقاها فى ترعة . ووجد القرط ملوثا بالدماء تحت حجر كبير فى وادى الملوك . وقيل لى إن سليما سيشق حتما لأن والدته الصبية أبت أن تأخذ ثمن الدم « الدية » . والواقع أن العفو ليس من حق الخديو ، وليس للقاتل طبقا للشريعة الاسلامية أن يقتدى حياته إلا اذا قبل منه أهل القتل مبلغا من المال عوض الدم المسفوك . وكنت يومئذ كشير المغموم فلم أفكر كثيرا فى ذلك الحادث ، وقد شرحته لنفسى بأن سليما وهو ماكر ، ولكن طائش أرعن ، كثير الدعابة ، قليل الشعور ، قد لاعب الصبية ، ثم انتزع قرطها وقتلها . ثم لم أفكر فيه بعد ذلك . وكان الوباء يتسرب من مصر القديمة إلى الأحياء الأوربية ، فكنت أعود فى اليوم ثلاثين وأربعين مصابا ، وأحقن كلا بحقن عديدة وافية ، وكنت أعانى آلام الكبد ، وأعانى الحور ، واتساقط من التعب ، فكنت استريح ظهرا لأستعيد قواى ، وكنت بعد الغذاء أتمدد فى الفناء الداخلى لمترلى ، وهناك استمرئ مدى ساعة ، ذلك الظل الأفريقى ، الصبوح كالماء . ففى ذات يوم كنت أضطجع فيه على الايوان على هذا النحو ، وأهم بأشعال سيكارتى إذ رأيت سليما يدنو منى ، ورأيتنه يرفع بذراعه النحاسية الجميلة ستر الباب ، وينحونحوى فى ثوب أزرق .

وكان يلزم الصمت ، ولكنه كان يفتر عن ابتسامته البريئة الوحشية ، وتكشف شفاته الحمراء والقائمتان عن أسنان بديعة . وكانت عيناه ، تحت ظل أهدابهما السود تسطعان شغفا ، وتحقدان بساعى الموضوع على المائدة « فظننت أنه فز من سجنه ، ودهشت لذلك ، لا لأن الرقابة شديدة على الأسرى فى هذه السجون الشرقية ، التى يزج الرجال والنساء والحيلى والكلاب معا الى ساحاتها المفككة ، تحت حراسة جندى يتقلد هراوة ، ولكن لأن المسلمين لا يحملون قط على الفرار من قدرهم . وجنا سليم أمانى فى هيئة تضرع ظريف ، وأدنى شفثيه من يدى ليقبلها طبقا للعادة القديمة . وكنت يقظا غير نائم ، وكان عندى الدليل على ذلك ، وعندى الدليل أيضا على أن الرؤيا كانت قصيرة جدا . فلما اختفى سليم ، لاحظت أن سيكارقى المشعلة لم تخرج حطاما بعد .

وهنا قالت فليشى : هل كان ميتا حينما رأيته .

فأجاب الدكتور : كلا فقد علمت بعد ذلك بأيام أن سليما كان يصنع فى سجنه سلالا صغيرة ، أو يلعب مدى ساعات طويلة بـجبات صغيرة من الزجاج ، أو يبسم لزوار السجن الأروبيين ، الذين يدهشهم نجل عينيه ، ويطلب اليهم قرشا . والعدالة الإسلامية بطيئة ، فقد شتق بعد ذلك بستة أشهر ، فلم يهتم انسان بأمره ، ولم يهتم هو بأمر نفسه ، وكنت يومئذ فى أوربا .

قالت : وهل رأيته بعد ذلك ؟

أجاب : أبدا .

ثم قال : إن أشباح الموتى لا وجود لها كما أنه لا وجود لأشباح الأحياء .

صحف

من

أندريه تييرييه André Theuriet

أندريه تيرييه

تيرييه؛ شاعر مبدع، وقصصى كبير، ولد سنة ١٨٣٣، فى إحدى قرى اللورين؛ ودرس الحقوق فى باريس، وبدأ حياته العملية بالانتظام فى سلك الوظائف الحكومية، ولبت ينتقل فيها حتى رقى الى رئيس قلم. ولكنه كان يشغف بنظم الشعر؛ وظهر منذ فتوته بمقاطيع شعرية قوية كان ينشرها فى «مجلة العالمين». وبلغ فتوته فى أروقة المكاتب الحكومية، ولم يغادرها إلا سنة ٨٦، حيث استقال من وظيفته، وانقطع للأدب. وأمدته هذه الأعوام الطويلة التى سلكها فى السلك الحكومى، بخبرة خاصة عن طائفة الموظفين وخواصها وأخلاقها وتقاليدها، فوصفها فى بعض رواياته وقصصه، ووصف لنا تماثل حياتها المل وصفا قويا شائقا، وصورها ذات عقلية ضيقة، ونفوس منحلة، وعزائم خائفة، تغيب فى ظلمات الأروقة الرطبة، والمكاتب العتيقة، والأوراق المكدسة. ومن آثاره الشعرية، *Le chemin de bois*، ومن رواياته *Le Blue et le noir*، *Jardin d'Antoine*، *Jean-Marie Mlle. Guingon*، *Le Filleul d'un marquis*، *Flavie*، *L'Oncle Scipion*، *La Petite dernière*، *La Reine de bois*، *Le Mariage Girard* وغيرها. وله عدة مجموعات قصص صغيرة قوية منها: *Bigarreau*، وهى التى اخترنا منها القصة التى نقدمها الى القارئ، و *Tentations*، وهى مجموعة قصص رقيقة يتخللها وصف بديع للحقل والغابة والقرية، و *Les Mauvais ménages*، وهى صور أخلاقية واجتماعية من حياة الزوجية المنكودة.

وتيرييه شاعر الطبيعة والريف والغابة، يعشقها ويهيم بإخراجها فى صور قوية، يكاد القارئ ينفس خلالها النسم المنعش والشذى العاطر؛ كذا يصف

تربيته الغابة وظلماتها وحيوانها وطيرها ، وما يتعلق بأحوال الصيد ، وصف
خبير مدقق . وهو في هذه المواقف الطبيعية فنان بارع ، يأخذك سحر بيانه ،
ورقة تصويره . وله في ذلك أسلوب خاص يمتاز به امتيازاً ظاهراً . ويميل
تربيته في كتابته وتحليله الى مبدأ « الحقيقة » ولا سيما فيما يتعلق بنفسية الحب
والمرأة ؛ وله في ذلك مواقف سخرية لاذعة . كذلك نراه يميل الى الجسد
والخطورة في معظم الأحيان ، وأحياناً يغدو محزناً ساحراً في نفس الوقت ، كما
سنرى في القصة التي نقدمها : « الراقصة الأندلسية » La Pampolina ؛
وهي قصة كبيرة ، يبدو فيها تربيته في ذروة قوته وفنه وبيانه ، وتبدو صورته
الطبيعية والنفسية في ذروة روعتها وسحرها .

ودخل تربيته الأكاديمية الفرنسية في سنة ١٨٩٦ ، وتوفي سنة ١٩٠٧

الراقصة الأندلسية

فى أواخر ديسمبر سنة ١٨٣٩ ، وفد على بلدى خمسة قسس إسبان فروا إلى فرنسا أثار اشتراكهم فى الاضطرابات التى عقببت معاهدة برجارا . ولست أدرى كيف هبطت أنقاض العصابات النافارية هذه ، على بلديبعد عن البرنيه مائى مرحلة ، ولكنى أعتقد أن لجنة للهجرة أنشئت فى باريس كانت توجه الفارين تباعا ، إلى النواحي التى تأنس فيها العون والمساعدة من جانب بعض الأسر الملكية . وكان حادثا أن مدينة فيلوت الهادئة تلقت نصيبها ، خمسة من أولئك الأجانب ، قدموا إليها فى وجوه ممقعة ، وقبعات كبيرة ، وأثواب خلقة ، يتكلمون بلغة لا يفهمها أحد . وألقى بعض المسلمين والأسر المخلصة من المروءة والشرف ، أن يتكفلوا باطعام اللاجئين وإيوائهم ، وأسكن أحدهم عند آنسات عجائز يحترفن الخياطة وينتمين إلى إحدى الجماعات الدينية ؛ وكن جارات لنا ، فكنت منذ مقدم القس الإسبانى أجوس فناء الدار بصفاقة غلام متطفل ، وبهذا تعرفت بالدون پالينو پلاشوس . وكان فى نحو الخمسين من عمره ، أسمر ، نشيطا ، عربض الكتفين . وكان شعره الجعد لا يزال فاحم السواد ، ووجهه الخلق بارز عظام الخدين ، فى أحد خديه أثر جرح طويل ، وتحت حاجبيه الكشيفين ، عينان بنيتان تضيئان لونه الزيتونى . وكانت نظراته تسطع من آن لآخر بضوء يضىء حدقتيه فتصبحان كأنهما لهر وحشى ، ولكن فيه ذا الشفتين الغليظتين ، كان يعرب عن السذاجة . والواقع أن الدون پالينو كان ساذجا أحيانا ، يمضى طوال يومه فى التدخين ، ويقرع «الساجات» بمهارة . ولم تمض أيام حتى مال الى وغدونا صديقين ، وأخذ يعلمنى الإسبانية لكى يستطيع أن يحادثنى . وكنت فى الثالثة عشرة . قوى الذاكرة ، فتقدمت بسرعة ، ولم تمض ستة أشهر حتى استطعت أن أقرأ بالإسبانية كتباً عديدة

بما حمل الأب معه . فلما زال من بيننا حاجر اللغة قويت روابطنا ، وقص القس على سيرته . فقد ولد بقرطبة ، وعين أولا واعظا لاحدى مدن الأندلس . ولما غزا الدون كارلوس الولايات الشمالية ، تطوع الدون بالمينو فى جيشه ، وكان ملكيا متحمسا ، ولم يترك المعركة إلا بعد أن وقع الفشل النهائى .

وأعتقد أن الدون بالمينو ، رغم ثوبه الدينى وصفته المقدسة ، كان مثقل الضمير بأكثر من إثم ، فإذا تحدث عن حياته العسكرية ، لمعت عينه وعبس حاجبه ، واشتدت حركاته ، وكان يقص بتمهى البساطة أشنع الأمور التى تروغى ، فقد أرغم ذات يوم مثلا ، على إعدام ضابط كان زميله فى الدراسة ، فروى لى الحادث بهدوء قائلا :

« طلب الى المنكود قبل موته ، أن يتحدثنى ، وذكرنى بصداقتنا القديمة ، وتضرع الى أن أنقذه ، فأجبتة — : هذا مستحيل ، ولا أعرف الحرب قرابة أو صداقة ، وأوامر القائد قاطعة . فلو كنت أبى ما أبقيت عليك — ثم قال وهو يعد سيجارة : وهكذا أرسلته فأعدم » .

فشعرت بالرجفة تسرى الى كل عروقى ، واشتد اصفرارى . فلاحظ الدون بالمينو اضطرابى ، وقال وهو يشعل سيجارته : متى أمر الرؤساء ، فلا مناص من الطاعة .

وأراد أن يروح عنى ، فأخذ يصف لى سماء الأندلس الجميلة ، ورياضها ، ولياليها العطرة الساحرة ، وأزهارها وأشجارها النضرة . ثم هاجتة الذكرى ، فتناول قيثارته وأخذ يغنى ، وعيناه نديتان :

« يا إشبيلية يا روحى ، يا إشبيلية يا عزائى » .

وكأنما تصور الأب غرفته الصغيرة الباردة ، فقيرة الأناث ، التى ينيرها قليل من الضوء — قد ملأها الشمس فجأة ، فأخذ يقطعها جيئة وذهابا ، وهو يحمل قيثارته ويغنى بصوت رنان :

« قبل أن أنساك يا إشبيلية الحسناء ، ستفتتح أزهار زيتونك وليمونك
الحامض ... » .

وكان القس يغنى هذه الأنشودة بلهجة تسيل العبرات .
ففى صيف سنة ١٨٤٠ ، كان پالينو پلاشوس قد استأنس فى فيلوت ،
وعين قسا لدائرة نوتردام ، وأخذت عدة من الأسر تقبل عليه وتكثر من ضيافته .
وكلما لازل ندرس الإسبانية معا ، حتى غدوت فيها قويا أفهم كل ما يقال
حولها متى اجتمع الأب ببعض مواطنيه . ففى ذات يوم كنت عند صديق ،
وكان الحز شديدا ، وكان الدون پالينو يضطجع للراحة فوق كرسيه فى فراغ
النافذة ، وكنت أقرأ كتابا بالإسبانية عن أبطال اسبانيا ، فاذا الباب يفتح ،
واذا يبدو ففى نحيل لعله فى الخامسة والعشرين ، وكان ممشوق القد ، ووجهه
الذى هزل من آثار الحرمان أو المرض شديد الامتقاع ، ولكن عينيه
السوداوين تسطعان بضوء المحموم . وكان مربع الجبين ، حنى الأنف ، بدع
الثغر ، باهت الشفتين ، قد نبئت لحيته منذ أيام ، فكان فى وجهه ما يجذب
ويزعج معا . وكان يرتدى ثوب قس ، خلقا ابيضت ثيابه ، وسروالا أسود ،
وحذاء مخرقا . فنادى حين دخوله بصوت رقيق خطير : — يادون پالينو
پلاشوس .

وكان الأب وسنان ، فارتجف لنبرات هذا الصوت ، وفرك عينيه ،
ثم نهض بوشة فحاق الزائر ، وهو يصبح خلال عناقه : « آه ، يارامون
أولايدى . ترى من أين أتيت ؟ » .

فأجاب رامون أولايدى وهو يرتقى فوق المقعد الوحيد الموجود بالرفة :
جئت مباشرة من برينيان ، وقد وصلت اليها مع انقاض جيش كابريرا ...
وعلمت فى باريس أنك هنا ، فجئت لأرى مرة أخيرة ، صديق الوحيد
الذى بقى لى .

فقال الأب : لقد أحسنت أيها العزيز ، ولكنك مضى من التعب ، فانتظر ! ...

ثم أخرج من دولابه زجاجة من نبيذ «القنت» ، وأحضر كأسين وشيئا من البقسماط ، ووضعها على المائدة بينه وبين القس الفقى ، ثم ملى الكأسين وصاح بجرارة «ليحيى الدون كارلوس الخامس ، ليحيى الدين !» .

فرد عليه رامون أولافيدى بابتسامة يأس ، ثم روى شفثيه بجرعة من النبيذ ، ووضع كأسه فى زفرة ، وقال الدون پالمينو ، وهو يضع يده على كم صاحبه : لقد كنت من مبدئى اذا ، وقد رأيت أن الأندلسى المخلص لا بد أن يؤدى واجبه مهما كلفه الواجب ، وأن ثوب القس لا يحول دون الدفاع عن قضية مقدسة .

فقال رامون محتدا ، ليس الثوب ثوبى للأسف ولم أرتده الا فرارا من السلطات ، ولكى أعبّر الحدود ، لست قسا يا سيدى پلاشوس ، ولست الا آثما شقيا .

فبسط الأب يديه صائحا وقال : رباہ ، ترى ماذا حدث . لقد تركتك وأنت على وشك الحصول على الإجازة ، فماذا ارتكبت يا تلميذى ، ويا زهرة الكلية حيث كنت تسمى «بالمقدس» ، وأى إغراء بغيض دفعك الى طريق الضلال ؟

فأجاب القى خافض العينين : امرأة يا دون پالمينو .

فصاح الجندى القديم وهو يضرب المائدة بيده : أهى نفس السيرة دائما ؟ والمثل يقول ان الرجل من هشيم والمرأة من نار ، والشيطان ينفخ بينهما . فأين لقيت هذه الشيطانة التى أضاعتك ؟ قص على سيرتك يا بنى ، واعترف لأستاذك .

وبدا عليهما التأثير لاجتماعهما ، واتجهت ذكرياتهما الى وطنهما النأى ،

حتى أنهما لم يذكرا وجودى . أما أنا فلبثت حيثما كنت فى زاوية النافذة ، وستارها يقع على ظهرى ، وكأبى على ركبتي ، والترمت الصمت حتى ينسباني ، ولكنى لم أترك كلمة من حديثهما ، وإن كان قد فاتنى منه لصغر سنى ، بعض معانيه الحقيقية . على أن هذا الحديث بقى راسخا فى ذهنى ، فلا زلت أستعرضه . اليوم ، وأنا أكبر وأكثر رشدا ، بكل تفاصيله ولونه المشجى . ولا زلت أذكر الغرفة ، صبوحة قاتمة ، والمائدة السوداء بين الرجلين ، وعليها الكأسان يضيئهما قيس صغير من الشمس ، وقد اتكأ الدون بالمينو برفقه ، واعتمد ذقنه بيده ، وأخذ يحدج الدون رامون بعينه السمراوين الكبيرين . أما الدون رامون فكان يمسك كأسه بأصابعه الهزيلة ، بينا جسمه التحيل يتردد بين جناحي المقعد ، وبيننا كان احمرار المقعد الباهت يخرج اصفرار بحياه الطويل . وكانت عيناه المكتئبتان تجولان فى الغرفة دون أن تريا شيئا .

رفع رامون كأسه ، وتناول منه جرعة ثانية ، وارتد فى مقعده وبدأ اعترافه فى مهل .

٢

قال الدون رامون أولا فيدى : لما التقينا فى بنيافلور للمرة الأخيرة كان أبى لا يزال على قيد الحياة ؛ وقد أتيت لأحييك قبل أن أعود إلى المعهد الدينى . وكنت يومئذ أضطرم حماسا لمهنتى ، وكان خيالى الملتهم وهوى الطبيعى يدفعاننى نحو حياة من التصوف السامى ، وكنت أشعر بعقيق الاحتقار لخراف هذه الدنيا وشهواتها ، بل كنت أعتقد أننى دعيت لأستأنف حياة القديسين الذين أقرأ سيرهم ، فعدت إلى المعهد ، ومنحت الدرجات الأولى للوعظ ؛ وهنا غدوت دون شعورى فريسة للإثم الذى يودى بالملائكة أنفسهم . — إثم الكبر ؛ فتصورت الوعظ فى الظروف العادية ، أعنى فى بلد صغير من مقاطعتى ، أمرا لا يلائم كرامتى ، وطمحت إلى حياة أوفر نشاطا وخصبا ،

وملكنتى رغبة فى الذهاب كمرسل أبشر بالدين فى أقصى المشرق ، وأوحت إلى روح الشر فى نفس الوقت أنه يجب للاضطلاع بهذه المهمة أن أكثر من تحصيل المعارف التاريخية والعلمية ، وهو ما لا يتوافر فى المعهد الابتدائى ، ونزلت على هذه الرغبة واستأذنت أبى وإدارة الشؤون الدينية ، فى أن أقصد إلى إشبيلية لألتحق بكليتها .

وكننت عندئذ فى الحادية والعشرين ، أضطرم بهذه الثقة العمياء التى يهبها الشباب ، فاندفعت فى دراسة المباحث المدنية الرجسة ، دون أن يخطر لى أن روحى ستندحر إلى هاوية الإغراء والفساد ، وأقمت على مقربة من الكلية فى « منزل فنسحق » فى شارع دادوس تديره أرمل تدعى يوسف جوتيرز . وكانت هذه الأرمل مطرزة ولها حانوت صغير تعمل فيه طول اليوم مع ابنتها مانوليتا ، وهى فتاة فى نحو الثامنة عشرة ، وعاملتين فى نحو سنهما . ولعلك تقول : ان اختيار الإقامة فى مثل هذا المكان لا يتلائم ميول رجل كرس حياته للدين والتصوف ، ولكن ذلك فى ذاته دليل على مبلغ ازدرائى للعالم ومبلغ سذاجتى ، هذا الى أن جوتيرز كانت تعرف بالاستقامة والشرف ، وكانت السكنية تسود المنزل ، وأجوره فى منتهى الاعتدال ، فقد كنت أشغل غرفة كبيرة فى الدور الأول ، وأتناول الطعام ثلاث مرات مقابل ثلاثة « بيناتات » فى اليوم . وكان يقيم معى راهب فقى ، وطبيب ، وطالب مثلى ، وضابط شيخ فى المعاش .

وكننت فى أياى الأولى لا أرى السيدتين ورفاقى فى المسكن إلا وقت الطعام ، لأننى كنت شديد الاشتغال بمباحثى الجديدة ، وكننت أخصص أوقات فراغى للصلاة فى الكنيسة الجامعة ، وأشعر عندئذ بخشوع عميق يملأ كل نفسى ويملك كل مشاعرى ، وتصعد نفسى إلى اسمى طبقات الإيمان والصفاء والزهد ، فإذا غادرت الكنيسة ، وفارقت هذا السمو ، وانحدرت

إلى الطريق لأجوز الى منزلى ، كان يدهشنى بل يشبىنى ما أراه من صخب ومرح فى المدينة . وكان شارع « دادوس » حيث أقيم يزدان بالخوانيت المزهرة علقت عليها الحرائر، والأهباء المفتوحة يدوى منها رنين الضحك وأنغام العزف، والشمس تغمر كل جنباته، فيغمرنى السخط لذلك كله كأنما يناقض مناحى نفسى .

ولكن تأمل تناقض الطبيعة البشرية، فانى صرت رغم نفورى وازدرائى أتعود التأثير بمؤثرات المجتمع الرجس الذى أعيش فيه ؛ وبينما كنت محصنا ازاء المؤثرات الخارجية، اذا بحواسى تخضع لها وتعتاد عليها، فكانت غبطتى بالحياة فريدا فى اشبيلية، وذلك المرح الذى يملأ الشوارع، وتمتع العين بكل ما ترى من حدائق زاهرة، ونساء حسان، وأوانس رشىقات — كان ذلك كله ينفذ الى نفسى ويغيرها دون أن أشعر، فكنت أساق الى التزه فى حدائق البرتقال والإصغاء الى موسيقى الرقص، وننبع الفتيات العاملات بالنظرات، وهن يحكن تنسيق المحارم فى أوساطهن، ووضع الزهور فى شعورهن .

وهكذا بعد أن تطور ضميرى خفية، وتسربت الشهوات سرا الى نفسى، غدوت أكثر من الإختلاط مع رفاقى فى المسكن، وأشاطرهم مسراتهم . فكنا نجتمع فى المساء فى بهو الآنسة جوتيرز، ونقضى السهرة فى الغناء ورؤية العاملات يرقصن . وكان زميلى الراهب نفسه يشاطرنا هذه السهرات، ويقول عنها انها بريئة، وهو الذى حملنى على مشاهدتها قائلاً لى، ان هذا الجلفاء الذى أبدية يؤذى الرفاق ويؤلم الآنسة جوتيرز .

وأنت تعلم أن رجال الدين عندنا يتمتعون بحرية لا تسمح بها أهم الشمال، فيختلطون بالناس ويرتادون المقاهى، ويصطحبون السيدات، ويشهدون الحفلات الموسيقية والراقصة . وعلى هذا فقد امتزجت برفاقى فى المنزل وشاطرهم هذه السهرات التى تحتلها الموسيقى والرقص، وكانت الآنسة مانوليتا

تمتاز بالخفة والرشاقة ؛ ولم تكن وافرة الحسن ، ولكنها كانت فتاة طيبة القلب ،
يتمثل الضفاء العذرى في عينيها السوداوين الزرقاوين ، وهو ما تخلو منه غالبا
عيون نساء إشبيلية اللاتي يمتزج بالنظرات الجريئة الملتبهة . وكانت بلنسية
الأصل لها شقرة البلفسيات ، ومحياهن الباسم . ولم يمض أسبوعان حتى
لاحظت أنها تفضلني على باقي الرفاق ، وإن خلالي المحتشمة قد أكسبتني
عطفها . وكان هذا العطف يبدو في بعض العنايةات الدقيقة التي كنت
أميز بها ؛ ذلك أن ترتيب غرفتي كان من نصيب مانوليتا ، فكانت تقوم
بهذا الواجب بعناية واضحة ، وكانت تهنيء لي دائما قدحا من الورد أشربه
وقت المذاكرة ، وكانت تعرف ما أفضله من ألوان الطعام وتحمل واللتها على
إدخاله في القائمة اليومية ، وكنت أثناء السهرة أحيانا اذا استغرقت في فكرة ما
ثم رفعت بصري ، أرى عيني مانوليتا الزرقاوين تحديقان بي ، فاذا ما التقت
نظراتنا ، تصاعد الى محياها احمرار النخل ، وخفضت أهدابها السمراء الطويلة ،
واتجهت بنظراتها نحو قدميها الصغيرين .

وكنيت قليل الإكتراث بشخصي ، فلم أعبأ ذرة بهذه الأعراض الأولى
للشهوة ؛ ولو كان لي من البصيرة ما لشاب مستنير ، لما ترددت في أن أضع
في الحال حدا لهذا العطف الخطر بمغادرة منزل السيدة جوتيرز ؛ ولكني
كنيت لا أزال في حمى أحلامي الرسولية ، ولا يخلق الأنانية قدر الثبات على
فكرة . وإذا كنت الى اليوم بعيدا عن الشهوات الجسمية ، فلم أعبأ بما اعتبرته
مظاهر صهيانية محضنة ؛ ومضيت في معاملة مانوليتا معاملة صبية صغيرة
ظريفة ، أثبتها من أن لاخرعن عنايتها بهدية كنسية لطيفة . بيد أنني
لو كنت بدلا من الإغراق في أحلامي الرسولية ، نزلت الى أعماق نفسي ،
لرأيت في شايا قلبي ليمونة الرذيلة والشقاء ؛ تلك التي تجثم في قرار كل روح
بشرى . ومع أنني لم أضطرم برغبة آثمة ، فأنني كنت مع ذلك آنس لذة خفية

فى أن أشعر أنى محاط بهذا الحنان الصياني ، وأسلم نفسى لهذه المداعبة دون أسف أو ندم ، وأستنشق من حولى نسمات هذا الحب من حركات الفتاة وأقوالها ، بلذة كلك التى آنسها فى استنشاق الورد الذى تزين به مائدتى . وكانت هذه الدعة القاسية الأنانية التى تنعم الى جانب الإثم ، مؤمنة بأنها بعيدة عن خطر التلوث ، تحمل فى ذاتها نفس عقوبتها ، فما يعيش الإنسان آمينا فى مثل هذا الجوّ دون أن يشعر بمؤثراته ولو رغما منه . فهذه المداعبات النسوية ، وعطر هذه الأزهار التى تجمع من أجلى ، ورخامة صوت الفتاة حين تغنى فى زاوية الحانوت أغنية أندلسية تنفذ ألقاظها المضطربة الى غرفتى ، ومنظر جسمها الغض الرقيق حين تنزل أو تصعد : كل هذه الأمور كانت تذلل ارادتى شيئا فشيئا ، وتبدد ذهنى ، وتخفف من حدة ايمانى ، وتحملنى دون أن أشعر على قبول الإغراء .

ففى ذات يوم أحد من أيام الصوم ، عدت الى المنزل من الكنيسة . وكان الربيع قد حل قبل أوانه ، والجوّ بديعا ، والحرّ شديدا ، فسارعت الى المنزل ، ودفعت الباب ، وجزت الى الفناء الظليل الصامت ، تزينه شجيرات الورد والبرتقال ، وينفذ اليه النور المذهب الأشقر من غطاء نصب فوق مدخله ، ولم يكن يقطع الصمت سوى خريز نافورة أقيمت فى ناحية . فلما دخلت الى الظل لم أميز الأشياء بسرعة ، ولكن نهتنى صيحة من مانوليتا ، وكانت فى زاوية تكاد تخفيها الأغصان تعنى بشجيرات الورد ، فارتدت نحوى بحماها المستدير ، وشعرها الأشقر ، وأضاءت عيناها بابتسامة . فقلت لها : لقد ظننت انك خرجت يا مانوليتا .

قالت : كلا ! فقد اصططحب السادة والدتى الى الكوريدا (ميدان الثيران) ، ولكنى آثرت البقاء فى المنزل .
قلت : أحسنت لأن الحرقا تل .

قالت : أليس كذلك ؟ ثم إنى أسر بالحدث معك .
قلت : شكرا ، فسأذهب الى غرفتي لأتم القراءة .
قالت : سوف نذاكر غدا ، فأنت تعب على ما يظهر ، فهل تريد أن
أقدم لك قدحا من شراب التوت ؟ .
قلت : بملء الرضا .

فانطلقت فرحة الى غرفة مجاورة ، وعادت منها بقدح كبير بارد من
عصير التوت ، ثم قدمته الى ، فشربت نصفه ، ولاحظت عندئذ أنها تضع
في حزام ثوبها الأسود شريطا بنفسجيا ، ثبت بقلب من الفضة ، غرست
فيه سهام .

فأشرت اليه قائلا : ماذا يعنى هذا ؟
فاحمرت وقالت بخطورة : هذا نذري ، فقد نذرت للعدراء أن أحمل هذه
الألوان مدى عام اذا حققت لى ما أتمنى .
قلت : وماذا تمنيت على العدراء يا مانوليتا ؟

أجابت خافضة عينها : هذا سرى يا دون رامون .
قلت وأنا أتناول يديها : فى وسعك يا بنية أن تعترفى بسررك لراهب .
فهزت رأسها ، وابتسمت بنحيث وقالت : انك لم تصبح راهبا بعد .
وتركت يديها فى يدي ، وترددت برهة ثم قالت بلهجة دعابة : المسألة
أنى أحب قتي ، وأرغب فى أن ألتخذه لى خطيبا بالرغم ... بالرغم من العهد
الذى قطعه على نفسه بأن يكون للكنيسة . ثم سحبت يديها وغطت وجنتيها
الملتئتين .

فاضطربت لهذا الاعتراف ، وجرعت جرعة من القدح ثم ألقىته على
على المائدة ، ومنهضت قائلا بصوت خطير : يجب ألا تستهترى بالنذر يا بنية ،
فنذكرك طيش ، ولن نرضاه العدراء .

فتخلص محياها الوسيم ، وبدر الدمع من عينيها ، ثم زفرت بفاة وفرت .
لم يك من ريب ، فقد كانت تحبني ، وارضتها ! ولكن أى مجرى آخر
كانت لتتخذ حياقي لو أنى بدلا من أن أترك مانوليتا تفر ممبللة بدموعها ،
بسطت اليها يدي ووعدها أن أكون خطيبها المنشود ؟ عندئذ كنت اقترنت
بها ، وعادرت إشبيلية لنعيش معا في بذافلور ، ولعكفت على زراعة الأرض
التي ورثتها عن أبي قبل ذلك بعام ، ولكنك بدلا من أن أهتم على وجهي
كشقي لا يتذوق شيئا في العالم ، غدوت اليوم مزارعا هادئا ، ورب أسرة ،
ولكنك أستطيع أن أطل من نافذتي على زيتون حديقتي الواقعة في طريق
قرمونة . ولكن غشاوة الكبر كانت قد نفذت الى رأسي فأعمتني ، فاعتصمت
بما زعمته لنفسى من زهد ويقين ، وزعمت أننى لا أنأثر بالنساء ، ولم تكن
ساعتي قد حلت بعد .

بيد أنها حلت بعدئذ بقليل ، فخل عقابي ، وحل شقاء من عاقوا بي .
ففى ذات صباح ، كنت عائدا من الكاية مع جارى الطالب ، فاستوقف
نظري ، على مقربة من كنيسة سلفادور ، لإعلان أحمر كتب في رأسه بأحرف
كبيرة « أغان ورقصات أندلسية » ، وفيه أن الفصل سيفتتح في نفس المساء
في بهو الطرب ، بشارع « آموردى ديوس » ، بالراقصتين والمطربتين
الشهرتين ، سوليداد ثارچاس ، وپاستورا فلوريس المسماة « پاميلينا » .
وأفاض صاحبي في وصف براعة سوليداد ثارچاس التي رآها في قادس ،
وأعان عن عزمه على مشاهدة التمثيل في نفس هذا المساء ، ولما أجيبت بهز
الكتفين قال لى :

« ولماذا لا ؟ إنك لن تكون أقل راهب يؤم شارع « آموردى
ديوس » ، بل انى موقن بأن جارنا الراهب سيكون هنالك . هذا الى أن
المرسل المستقبل يجب أن يلم بكل شيء ، وسوف ترى في الشرق الأقصى

رقصا لا يعتبر رقصنا الأندلسى الى جانب خلاعته شيئا .
وما كنت قبل عام لأصغى ذرة الى مثل هذا الاقتراح ؛ ولكن الفساد
الديوى كان يشع الى نفسى منذ أشهر ، فكتفت بآن أناقش صاحبي فيما
هو محظور وما هو مباح ، وفيما اذا كان أيسر على المرء أن يجتنب الشر الذى
يعرف من ذاك الذى لا يعرف . ومن ناقش فى الواجب بدل التزول الصامت
على وحى ضميره فهو رجل هالك . وفى نفس المساء ، ذهبت الى شارع
دى ديوس .

وكان المطر يسقط حين ذهابنا ، فانتهزت الفرصة والتحفت بمعطفي
لكى أسترملا بسى الدينية عن الأعين . وكان رفيق يعرف الحان ، فقادنى
وأرشدنى ، فدخلنا الى بهو شاسع مستطيل فى نهايته مقصف صغير لتناول
المشروبات ، وفى نهايته الأخرى مسرح يفتح عليه باب يتصل بالغرفة التى
يستبدل الراقصات فيها ثيابهن . وكانت المقاعد الخشبية المصفوفة الى جانب
الجدران البيضاء ، يحتلها جمهور مرح من الجند والطلبة ، والعملات والأسر
الفقيرة ؛ وكان ينير البهو ثريا شاحبة وشموع داخنة ، ونفثات المدخنين تظلمه
بالسحب . ولم يكن التمثيل قد بدأ ، بل كان ثمة عازفان يجلسان على المقعد
الأمامى ، وهما يجربان القيثارة بنغمات متقطعة . وكان الستار يرفع عن باب
الراقصات من آن لآخر فتبدو من ورائه ذراع عارية أو طرف ثوب أو رأس
راقصة مكحلة بالأزهار . فهاجنى فضول المحدث ولم تترك عيني ذاك الستار
الذى كنت أسمع من ورائه همس الراقصات وضحكهن الخافت . وأخيرا رفع
الستار بإشارة من العازفين ، وهرع الراقصات معا بفلسن على المقاعد ، وبعضهن
فى أثواب راقصات الأوبرا ، والبعض فى ثياب عمالات إشبيلية ، وهن جميعا
يحركن أصابعهن « بالساجات » الرنانة .

وبدأت عدّة راقصات فى أثواب قصيرة ، بالرقص على أنغام الموسيقى

وقرع « الساجات » ، فسرعان ما ضجرت لرؤية هذه الأرجل تدور حول نفسها ، وتلك الأذرع العارية تدور في حركات متماثلة ، حول هذه الرؤوس الملونة ، السافرة عن ابتسامات مصطنعة . وطال هذا المنظر حتى سمّت ، وأخذت أفكر في الانصراف ، وإذا بضجة استحسان تحيي ظهور إحدى «نجمات» المرقص . وكانت فتاة حسناء ، ساطعة العينين ، مليئة المحيا قليلا ، ترتدى ثوب «نوريه» قصيرا شفافا ، وقد زين شعرها الأسود الساطع بطاقة من الزهر . فبدأ العزف ، على حين جلس الراقصات وأخذن يحركن أصابعهن . فقال صاحبي : هذه هي سوليداد فارجاس . وأخذت الراقصة وزميلها يتجاولان في حركات متماثلة ، وهما يحقدان كل بالآخر ، ويغنيان هذه الأنشودة القديمة :

« كان أول أسباب ضياعي امرأة .

« وليس في العالم ضياع ، يا حبيبة القلب .

« ليس في العالم ضياع لا يأتي من النساء .

وكان النظارة يضمجون بالهتاف والتشجيع ، فتضطرم الراقصة وتضاعف دورانها وحركاتها ، ووجهها الأسمر جامد باسم . على أن هذه الحركات المبتذلة والإشارات المليئة بالمعاني ، بعثت الى الاشتمزاز ، وتصاعد الإحمرار الى وجهي ، واعتزمت تلك المرة أن أغادر المكان حقا ، ولكن أعلن في تلك اللحظة ظهور باستورا فلوريس المعروفة باسم « پاميلينا » .

ولم تكن قد ظهرت في البهو بعد ، فرفع الستار ، وما كادت تظهر حتى ثبتت في مقعدي .

ولن أنسى ظهورها أبدا . فقد كانت ذا قد بديع متوسط ، تمتلئ حياة ، وترتدى ثوب الإشبيليات ، يتراوح ذيله فيسفر عن قدمين صغيرتين في جورب وردي ، وخصرها يضمه شال من الحرير الأبيض تزينه زهور صفراء ،

وشعرها الأسمر معقوص الى العلاء، ومنه خصلة تتدلى على الخلد . وكانت
في نحو الخامسة والعشرين ، ومجياها البراق الحى المرح ، تضيئه عينان باسمتان
تظللها أهداب طويلة ، ولها شفتان حمراوان تطبعهما ابتسامه خلاصة مغرية ،
تزيد في فتنتها ذفن بديعة . فبرزت أمام راقصها ، وعادت الموسيقى الى العزف ،
وأخذت ترقص برشاقة ساحرة ، وظرف فياض . وكان رقصها محتشما مشيرا معنا ،
فقد كان ثوبها قلما يرتفع فيسفر عن قدمها الصغيرة وجورها الوردى ، ولكنى ،
وهى تساب وتهترولا تكاد تمس الأرض ، وتومىء بمجياها الى جميع معانى
رقصتها المضطربة ، كنت أشعر أن قلبي يثب حتى نحوى . فاندفعت أهتف
مع الهاتفين ، وأصفق بشدة حتى أن معطفي انخلع عن ظهري ، وبدأ ثوبى
الدينى . ولأحظت الراقصة حماسى فحوت رأسها برهة نحوى ، وخلفتى
بنظرة ساطعة واختفت ، بينما استمرت الموسيقى تعزف خلال الاستراحة ،
ونفض مغن يغنى بصوته الأجش :

« كان أول أسباب ضياعى امرأة .

« ليس فى العالم ضياع ، يا حبيبة القلب

« ليس فى العالم ضياع لا يأتى من النساء » .

ولم تمض برهة حتى عادت ياميلينا ، وعلى رأسها حمار أبيض وفى يدها
عروحة ، وظهر راقصها يرتدى ثوب «ماجو» ، وقلنسوته مائلة على كتفه ،
وقرعت الموسيقى وبدأ الرقص : حركات مثيرة من الراقصة ، ومطاردات من
(الفتى) يدور حولها كالفراشة العاشقة ، ولها دنا منها دفعت بهمروحتها فأبعدته
عن شفتيها . وكان فى إباء الراقصة وابتسامتها سحر لا يقاوم ، أدركت معه
الأول مرة كل ما تموج به الشهوة من لذة وجوى . وكانت تدنو من النظارة
أحيانا ، فإذا مس ثوبها الوردى ركبتى ، سرت الى جسمى كله رعدة مضطربة
يأردة معا . ثم غدت الموسيقى ناعمة خافتة ، ووضع الراقص قلنسوته على الأرض

فرت فوقها الراقصة خفيفة كالصفيور ، واقترنغرها عن ابتسامة رضى .
وارتمت بين ذراعى الراقص ... وكان خاتمة الدور ؛ فارتفع الحشاق من كل
ناحية ؛ بينما ارتمت الراقصة على مقعد قريب من الباب . وبدأ النظارة
بالانصراف ، فنهضت أيضا ؛ ودنوت منها أثناء مرورى ، وجلا خافق القلب .
فكفت عن تلويح مروحتها ، وحدقت فى عيني بعينها الساطعة ؛ وحيثى
بابتسامه فاتنة من الشفتين والأعين .

وهنا صاح الدون پامينو وهو يضرب المائدة بقبضته : ألا تباله من
سحر خيىث .

فقال الدون رامون : أجل أنه لسحر خيىث ولكن لذيد الخبىث ...
فارتجفت حتى قدمى . وكانت هى الإبتسامة التى أضاعنى . فخرجت مترنحا
كالثمل ، وهمت خافض الرأس تحت رذاذ المطر فى الشارع المظلم ، وإذا
بصاحبى يصيح بى « انك تبضل الطريق ، فهل سحرتك پاميلينا ؟ » .

٣

لست أدرى أى جوى بثته پاستورا فلوريس فى نفسى ؛ ولكنه كان
ينساب كالنار فى عروقى ؛ وكانت صورتها ترقص أمام عيني بلا انقطاع .
أجل ساورنى الاضطراب والخبىل ، فكنت أرى دائما جوربها الوردى ؛
وقدمها الصغيرة تضرب الأرض تحت طيات ثوبها ؛ وأرى عينها الساطعتين
وابتسامتها الجمراء وقدها المليء . ولم أستطع أن أفر من هذه الصور ، بل كان
اسم پاميلينا يمتزج فى فى بالصلوات ؛ وتقطع ذكراها فى كل لحظة خيىط
تأملاتى . وعينا حاولت أن أفر من هذه الفتنة الى ظلال الكنيسة ، بل لقد
كنت أرى الراقصة مكان تمثال يسوع ، ثم أراها تتحدر نحوى بنجصلاتها
الشقراء ، والىها كنت أبسط يدى .

وكانت حفلات الرقص قد أجلت لحدول الأسبوع المقدس ، فلم أعرف

مضى أستطيع رؤية پاميلينا ، ولكنى لبثت اضطرمت بغاية واحدة ؛ هى أن أراها . وكنت أوئل أنها تهرع لرؤية الموكب العام كغيرها . وكان الربيع يومئذ فى أوج ازدهاره ، وما كانت السماء أبدع زرقة . وكانت نوافذ القصور والمنازل تزدحم بالنظارة . وكانت الكراسى قد صفت أمام القصر العام مثنى وثلاث . وجلس عليها نساء إشبيلية فى أثواب سوداء تزينها الورد ؛ وأمامهن الميدان تناسب فيه الجموع الحاشدة . وكنت ترى العاملات وعلى أكتافهن المحارم ؛ وفى شعورهن الزهر ؛ والممثلين والمصارعين فى صديريات مطرزة من القטיפه ؛ والفلاحين من النواحي القريبة وفى أوساطهم الأخرمة الحمراء . وامتزجت أنا بالجموع ، أذهب وأجىء معتقدا فى كل لحظة أننى ظفرت بقدر پاميلينا ورأسها البديع . وكانت أصوات المزامير تدوى من آن لآخر فتغشى الضجيج العام . ثم تقدم الوكلاء ، وأفسحوا الطريق للموكب ؛ وجاء القسس فى أثواب بيضاء وهم يحملون تماثيل العذراء والمسيح . أما أنا فلبثت اتفقد پاميلينا فى كل نافذة وشرفة حتى كلت عينائى من النظر ، ومالت الشمس الى المغرب ، وانحدر الظلام ، واختفت الألوان ؛ ولكنى ما زلت أضطرم جوى ورغبة فى البحث ؛ وما زلت أشق غمار الجماهير والجماعات .

وفى مساء الجمعة المقدس ، طفقت أجوب حى « سيريس » . وكانت الحوانيت مغلقة غير أن الضجة كانت عامة ؛ وكان صياح باعة السلع الصغيرة والفواكه والأطعمة الخفيفة يملأ الجو . واستوقف نظرى موكب قادم من ناحية كنيسة سان سلفادور ، تضيئة الشموع المرتجفة . وهنا شعرت بخافة بمروحة تلطم ذراعى ، فالتفت فاذا بى أرى پاميلينا تقف الى جانبي ، وقد غطت رأسها بخمار أسود لا يبدو منه غير عينيها الساطعتين ، نفق قلبى بشدة ؛ واختفى ضوء الموكب أمام ضوء عينيها الباهر .

قالت لى بصوت ساحر : عم مساء ياسيدى الطالب .

فلبثت بادئ بدء جامدا تعروني هزرة عقدت لساني .
أما هي فاستمرت قائلة : بعد المرقص تبحى التوبة ، وانها الليلة بديعة ،
للتكفير عن الزلات باتباع المواكب المقدسة .

فلم أستطع جوابا ، ولقد كنت أود أن أصبح بها : « إن المواكب
لم تجذبني وإنما قصدت البحث عنك » ولكني لم أجرؤ على مثل هذا القول .
وقد كنت أتوق الى هذا اللقاء بكل قواي ، فلما هيأت له المصادفة ، لم أستطع
أن أفيد منه ، بل لبثت وجلا نجيلا كالغبي ، في حين ضحكتم باميلينا وهي تهز
مروحتها .

أما أنا فقلت مغمغما دون أن أفقه ما أقول : أجل ، فلا تسخرى مني .
قالت : نعم ، ياسيدي «المقدس» ، فلست مخيفة الى هذا الحد ؛ لقد
كنت أشد وداعة حينما رأيته في الليلة الأخرى أرقص «الملاجينا» .
فصحت بها كالهائم : وهل تذكريني ؟ .
أجابت : أنى دائما أذكر الفتيان الحسان الذين يعجبون بي . فلماذا
لم تأت فتكلمني قبل ذهابك ؟ .

قلت : ما كنت لأجرؤ على ذلك قط أيها الآتسة .
قالت : آه ، انك تخشى أن تلوث سمعتك ، وهأنا أراك الآن في منتهى
الوجل ؛ فهل تخشى أن يراك الناس متحدثا مع راقصة (بايادورا) ؟
ولقد كانت صادقة الحسد ؛ فقد كنت رغم الجوى الذى اضطرم به
نحوها أخشى أن يرانى أحد زملائي . فاحررت وتلعثمت . وكنا قد وصلنا
الى زاوية «سان أكازو» فقالت لى ضاحكة : لست أريد أن ألوث سمعتك ،
ولكنى حرة غدا ، وسأتنزه فى نحو الساعة الثالثة بعد الظهر فى حدائق «القصر»
(الكازار) ولما كان الجميع مشغولين بالصلاة ، فلن نتعرض لفضول أحد ؛
هذا الى أن شذى البرتقال بديع هناك ؛ أفلا تحب هذا الشذى ؟ عم مساء .

ياسيدى . ما اسمك ؟

أجبت : رامون .

فقلت : عم مساء يا رامون «المقدس» .

ثم أنسلت بحركة رشيقة سريعة نحو «سان أكازو» فلبثت ذاهلا على حين غاضت هى فى الظلام .

وعدت الى المنزل مضطرم الذهن ، فصعدت الى غرفتى وأغلقتها ، ولم أستطع النوم إلا فى وقت متأخر من الليل ؛ فنمت نوم المحموم . واستيقظت فى الغد متأخرا على قصف المدافع تعلن بعث السيد المسيح ، وقرع النواقيس فى جميع الكنائس . وأنفقت الضحى فى غرفتى وأنا أعاهد نفسى على ألا أذهب الى «القصر» . ولما نزلت لأتناول طعام الغذاء كنت شديد الشحوب فسألتنى مانوليتا بصوت الجزع : أنت مريض ؟ فأجبتهما بإيجاز ، وما انتهى الطعام حتى أسرع بالخروج وأخذت أجوب الشوارع التى تغمرها الشمس ، ودخلت الى الكنيسة الجلادة لكى أحاول تهدئة لروعى مكرا : كلا ؛ كلا ! لن أذهب الى «القصر» . ومع ذلك فما حلت الساعة الثالثة حتى جرت الى حدائق القصر ، وانحدرت الى الأزقة الظليلة بين الورود المزدهرة ، وجلست فى روشن بين أذغال البرتقال . وكان البستان قفر لا يشوب سكونه غير حفيف الشجر وخيرير الماء ترسله النوافير المرمرية . وقلت لنفسى إنها لن تأتى بل سخرت منى ، وشعرت بارتياح وامتعاض معا . ولكنى ما لبثت أن سمعت وقع خطوات خفيفة ، ورأيتها تنحوت تحت أغصان البرتقال .

وكانت ترتدى ثوبا أزرق قصيرا يسفر عن ساقها الرشيقتين ، يسترهما جورب أزرق وحذاء من القטיפه ، ويضم قدامها الصغير دثار صغير ذو أزهار صفراء ، ويتدلى على كتفها خمارها الأسود ، وفى خصرها طاقة كبيرة من الياسمين .

فقلت ضاحكة : ها أنت ؛ وانه لظرف منك أن أتيت ، فتقدم واجلس الى جانبي .

ثم جلست على الحاجر الصغير الذى يواجه الروشن ، فأطعت ، ولكن اضطرابى اشتد ولم أعلم ما أقول ، فبدا عليها التعجب لصمتى لأنها لم تعتد بالطبع مثل هذا التحفظ .

قالت : هل قدمت الى إشبيلية منذ بعيد ؟ قص على تاريخك .
فاغتنبت بهذا الموضوع وحدثتها فى سذاجة عن قريتي ، وعن دخولى فى المعهد ، وعزمى على أن أكون مرسلا متى جرت الى المراتب الدينية العليا .

فأصغت الى وهى تهز رأسها اللعوب ، وأجابتنى كما أجابت مانوليتا :
انك لم تجز الى هذه المراتب بعد ، ومن الأسف أن تصير اليها ، فهل أنت واثق من شغفك بالمهنة ؟ .

ثم حدثتني فى بعيدى السوداوين الواسعتين العميقتين ، حتى خيل لى وأنا أتأملهما أننى أنحدر الى هاوية تجذبني اليها . أجل كانتا عينيّن ساطعتين لن تنساها اذا تأملت ذات مرة ؛ بل فلو مت ، فإني من أعماق قبري أعتقد أن نظرة منهما تكفى لبعثي ؛ بل لأنفض من لحدى لأراهما مرة أخرى .
لقد بثا الى السحر ودار رأسي .

فغمغمت هائما : المهنة ؟ لقد كنت مغرما بها ، ولكنني مذ رأيتك لأعلم بعد ، لا أعلم بعد .

فضحكت وبدت أسنانها البيضاء البديعة بين شفثيها الجراوين ، وبسطت ذراعها فاقتطفت برتقالة من الأغصان المائلة ، وأخذت تقشرها وتاكلها قائلة : آه انه لا يعلم بعد ؛ وما دامت عيناى هما اللتان أحدثتا الضرر ، فعلى الإصلاح . فهناك نافورة يشفى ماؤها عدوى العين وأمراض القلب ،

وسأقودك اليها .

ثم تناولت يدي وجرتني برشاقتها الساحرة الى نافورة « حمام السلطنة »
الى يسار المكان الذي كنا فيه ، واغترفت من مائها بحفنة يديها وقدمتها الى
قائلة بسمة ساحرة : اشرب ! .

فهويت على اليدين وأخذتهما بيدي وجرعت بضع قطرات من الماء ،
ثم غمرتهما لثما .

فصاحت وهي تطوى أصابعها : كفى ، كفى ، والا كان العلاج شرا
من الداء .

وكانت فتانة بذراعيها العاريتين المبللتين تسطعان في ضوء الشمس ،
وعينيها اللتين علت أهدابهما قطرات صغيرة من ندى الماء المنبعث .

ثم قالت : وداعا ، فقد حان وقت عودي . ولا فائدة من اتباعي .
وسأرقص غدا في « بهو الطرب » ، وأؤمل أن تأتي .

ثم جمعت أذيال ثوبها الأزرق ، ووثبت الى الممشى واختفت وراء أدغال
الورد .

وعدت في الغد الى بهو شارع (آموردى ديوس) بمفردي ، وجلست
الى جانب باب غرفة الشباب في أسفل المسرح ، فرأيتني ، وأشارت برأسها
تحية لى ، ولما جاء دورها فى الرقص عادت فألقت إلى نظرة جديدة ،
ولاحظت أنها كانت تحاول ما استطاعت أن تدفع راقصها نحو الركن المظلم
الذى كنت أجلس فيه بحيث كأنها كانت ترقص لى ، فأثار هذا التصرف
همهمة من النظارة فى الناحية الأخرى ، وبدأ الامتعاض على الفتى الراقص ،
وتبادلا معا عدة عبارات بصوت منخفض ، فلما انتهيا من الرقص ، أولسه
ظهرها ، واختفت وراء الحاجز ولم تعد . فقلقت لذلك ، وخرجت الى
الشارع ، واستترت فى فراغ باب وانتظرت پاميلينا بفارغ الصبر . ورأيتها

أخيرا تبدوا ملنفة بدثارها الأبيض وتنسل بسرعة في الظلام ؛ فتبعتهما خافق القلب ؛ ولكنى لم أجزؤ على مخاطبتها شاعرا بأن ذلك يغضبها بعد التوتر الذى وقع بينهما وبين مدرّبها .

بيد أنها ارتدت بخاة عند زاوية شارع ، تحت مصباح ، فرأىني وابتسمت قائلة : آه ! أهذا أنت أيها « المقدس » . أتدرى ؟ لقد كدت ألتاجر مع النظارة من أجلك ، ولكنك ستعوضنى عن ذلك بشيء من صحبتك ؛ وإن يراك أحد في هذه الساعة .

فوثبت الى جانبها ، ورأت من هياتى الذاهلة أنى شغفت بها سمعرا وفتنة ، فما عليها إلا أن تأمر فأطبع .

فلما وصلنا الى « ميدان هرقل » وقفت أمام منزل أبيض كانت نوافذه كلها صامئة قائمة وقالت : هنا أقيم ؛ فى الطابق الأعلى ، بالقرب من السماء ؛ فهيا أقدم اليك قدحا من الليمون ؛ فقد استحققته .

فتبعتهما ، ولكنى أتبعهما الى آخر العالم ؛ ففتحت الباب الثقيل ، وقادتنى من يدى لتساعدنى على اجنياز المتر الطويل المظلم ، ثم السلم الرطب الأشد ظلاما ، فصعدت أتخبط فى الدرج ، سعيذا إذ أشعر أن تقودنى هذه اليد الصبوح العصبية ، التى تستند راحتها الى راحتى . فلما وصلنا الى النهاية تلمست مكانا فى الجدار ، وأنارت مصباحا صغيرا ودفعتنى الى غرفتها ، وهى قاعة شاسعة ذات جدران بيضاء تطل نافذتها على مشرقة ، ففحصت المكان على ضوء المصباح ، فرأيت السرير المنخفض فى زاوية وعليه غطاء بلنسى ، ومראה أمام مائدة صغيرة ، ثم تمثالا صغيرا للعدراء ، وقيثارة معلقة على الجدار ، وزوجا من « الساجات » . وفتحت ياميلينا دولابا ، واستخرجت إناء من الماء ، وقدحا ؛ وهيات لى ليمونا ، ووضعت على المائدة ، وقالت لى : أما الآن فاجلس واشرب .

ولكنى أمسكت بيديها وأسنانى تصطك فى صمت وعنف ؛ وحاولت أن أقبل شفيتها الحمراء المثيرتين ؛ فانترعت يديها منى بسرعة وارتدت الى اللى الوراء ، وحدجتنى من الرأس الى القدم وصاحت : عجباً ! أهكذا يتصرف جميع رجال الدين .

فتولانى النجل لتلك التزعة الخشنة التى غلبتنى ، وخفضت عيى ولم أجرؤ على الكلام ، أما هى فأولتنى ظهرها ، وأخذت فى هدوء تعدد لفافة من التبغ ، ثم أشعلتها من المصباح ، وذهبت بجلست فى فراغ النافذة .
فتقدمت منها ذلولاً مشبك اللىدين وقلت مغمغماً : عفوا يا باميلينا ، فانى مجنون ! ... وأنى أحبك فرفقا بى .

فأرت الدمع يترقرق فى عيى ، فحولت نحوى عيى الساطعتين وقالت :
أحقاً أنك تحبى يا مقدس ؟

— أحبك حتى الجوى والشغف .

— أتحنى أكثر مما تحب مهنتك ومعهدك ؟

— أحبك أكثر من كل ما فى العالم !

فأسقطت لفافتها من يدها ، ثم نهضت ، فرفعت نحارها وألقته فى الغرفة ، ووثبت الى ذراعى ، وألصقت شفيتها بشفتى وقالت :
— إذا نفذنى فأنى لك !

آه ! بالذلى الللى فى تلك الغرفة الصغىرة ؛ ويا لهاته الدعابات النسوية تحلبنى لأول مرة ؛ ويا لسمهرة الحب هذه فى الصممت العظمى يجىم على المدينة النائمة ! ... أطفئ المصباح فصرت أرى ، من الركن المظلم الذى أويئنا اليه ، خلال النافذة ، المشرفة البىضاء والسما تغص بالكواكب .

ومنذ لىلة الفصح هذه لم أعد أملك نفسى ، بل غدوت كاحدى هذه اللب الخشبية التى تعطى للأطفال ، وأضحت جميع أعمالى كأنما يحزكها خيط .

وهذا الخيط السحري كانت تمسكه أصابع ياميلينا ذات الأهواء، ولم أعد أعيش في اليوم غير ساعة ، هي التي أنتظر فيها ياميلينا عند باب بهو الرقص وأصحبها إلى منزلها ، وكثيرا ما كنت ألقى الخبيسة في اللقاء . ذلك أن باستورا فلوريس لم تكن دائما حرة التصرف في سهراتها ، فقد كان مدر بها يقودها مع باقي الراقصات الى سهرات يقيعها الحاكم العام أو غيره من الكبراء . فكانت عندئذ تخطرني مسرعة على يد غلام ، فأعود الى منزلي مضطرب الذهن ضائع الرشاد .

ففي ذات مساء عدت فيه حزينا بعد أن حبط اللقاء ، ألفت ما نوليتا وحيدة في بهو الاستقبال ، تشغل بالوشى على ضوء مصباح وضعته قريبا من أحواض الزهر ، وشعرها الأشقر كالنجم الذهبي متهدل حول رأسها البديع المنحنى على القماش ، وكانت هذه أول مرة لقيتها فيها منذ الأحد الذي رددت فيه اعترافاتها الرقيقة بحفاء ، فاشتد كدرى لرؤيتها ، ولاح لي كأنها تقرأ في وجهي خيبة أملى لحبوط اللقاء ، وشعرت أن ثورة نفسي تضطرم ، إذ خيل لي أن نظراتها تسطع بقبس من التهمك .

رفعت نحوي عينيها الزرقاوين النجلاوين تغشاها أمارات الحزن وقالت : عم مساء يادون رامون .

فأجبتها بلهجة جافة وأنا أقرب شمعتي من المصباح : عمى مساء . فوضعت وشيها على المائدة وقالت بلهجة رقيقة : لماذا تجبني بمثل هذا الحفاء ؟ لقد تغيرت في الأسابيع الأخيرة أيما تغير ، لماذا الذي اعتراك ؟ - لم يعتري شيء .

- كلا ؛ بل لم تعد كما كنت ، فأنت تهمل الأصدقاء ، ولم تعد تفتح الكتب التي كنت تحبها من قبل . - انك واهمة يامانوليتا .

فهزت رأسها وزفرت قائلة : كلا فلست واهمة . ومع أنى لست .

إلا طفلة ، فهناك أمور كثيرة أحرزها فتؤلنى . وليست غيرتى اليوم من الكنيسة ، ولكن من امرأة استولت على قلبك مع أنها ليست خليفة بك . قلت بفارغ الصبر : هذه أمور لا تعيها طفلة ، ويدهشنى أن أسمعها منك . فنهضت وقالت بشدة : آه ، إني أبغض هذه المرأة لأنها تجعلك شقيا . فقلت بجفاء : كفى يامانوياتنا ، فأنت حمقاء .

ثم سارعت الى غرفتى وكانت مجاورة لغرفتها ، ولكنى لبثت خلال شطر من الليل ، أسمع الطفلة تبكى بدموع حرى بدلا من أن تنام ، فزاد هذا الألم الساذج الذى كنت سببه الوحيد ، فى حنق على نفسى .

وهكذا كان سكان المنزل جميعا قد وقفوا على زلتى ، ولقد أثار ذلك فى نفسى نجلا كدر مقامى ، فصرت أهرج المنزل أياما بأسرها . وعندئذ كان النوم يمزقنى فأحاول الثورة على هذه الفتنة التى تطوقنى بها پاميلينا . وما كنت أومن أن نظرة امرأة ودعابتها تكفيان لترعى من مثل مهنتى ؛ أجل كانت العناصر السامية فى نفسى تتور على هذا النير الوضع ، فأفكر فى انهيار آمالى المستقبل ، وخسران الروح ، واللعنة الخالدة . ولقد هرعت فارتميت فى «مُعترف» أمام قدمى قس ، واعترفت له بزلتى فى صرخات اليأس ، فنصحنى بشدة وعطف ، أن أعود بالزهد والتوبة ، وأن ألوذ من غواية الفتنة برحمة الله القوية الواسعة ، وأن أحتقر كل ملاذ الحس الوضيعة أشد الاحتقار ؛ فصححت بنفسى وأنا أغادر الكنيسة : أجل ، سوف أنزع من نفسى الى الأبد صورة هذه المرأة الآثمة ، وأطردها من ذهنى بفضل الصلاة والورع كما طرد يسوع بائعى المعبد ! وحاولت جد المحاولة مدى يوم أن أنفذ هذه الخطوة الورعة ، ولكن ظهور الغلام ، رسول پاميلينا ، كان كافيا لانهيار كل شىء ، فهرولت الى شارع «أموردى ديوس» أنتظر الراقصة عند باب الحان ، وسمعت حفيف ثوبها على درجات السلم ، ووجدتني بنظرة ساحرة ناعسة ، وعلى ثغرها ابتسامة

تسفر عن اسنانها البيضاء ، ففاض في نفسى كل ندم وكل مشروع للتوبة .
وتالله لقد كنت عندئذ أبذل لاتباعها نصيبي من الحياة الأخرى . فلما انفردنا
في الغرفة العليا التي ينيرها ضوء النجوم الغامض ، تعانقنا طويلا ، وقدها يمس
على ذراعى ، ورأسها يستند الى كتفى بشعره المتهدل ، والعطر يفوح من جلدها
الصبوح ومن شعرها ومن كل جسمها ، حتى لقد نسيت العالم بأسره .
وهنا رفع الدون بلاشوس يديه نحو السماء وصاح : كفى . كفى ؛
فلنمر بهذا .

فقال الدون رامون بحزن ؛ أجل ! لنمر بهذا لأن هذه الذكرى وحدها
تفقدنى الرشاد ، وأشعر أنى لو رأيتها لمت في غمر الزلل النهائى ... ففي ذات
مساء ، ولم أكن رأيتها منذ يومين ، لاحظت مذأوينا الى غرفتها ، أنها
مهمومة شاردة الذهن ، وبدلا من أن تجذبني اليها كالعادة ، ذهبت بخلست
عند باب الشرفة وأخذت تدخن .

ثم قالت لى بخفة : يا حبيبي المقدس ، عندى نبأ سيء . فقد شارف
السوق هنا على نهايته ، وستغادر الفرقة إشبيلية غدا مساء الى غرناطة لافتتاح
الموسم هنالك ؛ ولا بد من الفراق .

فعرانى الدهول ، ولم أستطع نطقا . وكنت أشاء بعدى عنها مدى اليومين .
السالفين ، قد ثرت كعادتي بغضا لزلتى ، وأكثر من العزم الحسن ، ولكنى
لم أتوقع قط أن يقع مثل هذا الفراق السريع .

قالت لى : أجل أيها العزيز ، بعد غد تفصل بيننا الجبال ، والله وحده
يعلم متى نلتقى ! ...

وبلما كانت هى تتكلم بلهجة هادئة واضحة ؛ كنت أنا أقطع الغرفة
مضطربا ، ولم يسعنى مع أن قلبى كان يتزق لفكرة فراقها ، إلا أنى أفكر فيما
اعتزمت من توبة وورع ؛ فربما كان هذا الفراق السريع قضاء إلهيا ، وكان

خطة خفية للقدر لإنقاذى بالرغم منى ... أجل ! كانت يد الله ترتفع بلا ريب
فى الظلمات التى غمرتنى لتهدىنى الى طريق الخلاص ؛ فما كان على إلا أن أحنى
ظهري لهذه اليد الأبوية التى تلممنى ...

ثم صاحت بأميلينا وهى تحدجنى مليا : ماذا ؟ الا تجيب ؟
فغمغمت بصوت الخنثى : إن قلبى كسير أيتها البنية العزيزة ؛ فقد كنا
فى زلطنا نمرح فى السعادة ، ولكن الله أراد أن يعاقبنا بالفراق .

فوثبت صائحة : آمين . ولقد تظاهرت بالهدوء لأعرف ما فى قرارة
نفسك ، فاذا بك لا تحبنى ، وإذا بك تتعزى بسهولة عن فراقى ! .

فقلت : انى أهيم بحبك يا باستورا ، والله الذى يعاقبنى ، يعلم وحده
كم أقاسى لبعادك . لقد استأثرت بكل حبنى ، فتنى بعدت عني فلان تكون أية
مخلوقة أخرى فى نظرى شيئا ، ولن أفكر إلا فى أن أدعو الله من أجلنا ، وأن
أكرس نفسى خالصة له ...

فشبكت ذراعها وقاطعتنى قائلة : أجل ! ... تدعوا لله وتهب نفسك اليه
دون أن تذكرنى . حسن جدا . فلماذا قلت لى إذا إنك تحبنى أكثر مما تحب
كل ما فى العالم ؟ لقد سخرتنى بنظراتك وألفاظك ، فلما وقعت فى أسرك ،
أخذت تهجرنى وتقتلنى ، وأنه خلقت حسن لراهب ، وبداية بدبعة لمرسى ! .
ولمعت عيناها ، وغدا محياها محزنا . ثم اقتربت منى وقالت وهى تهز رأسها
هزة الوعيد : ولكن حذار ، فانك إذا سخرت منى ، وإذا طعنت فؤادى ،
فسوف تذكر ذلك وسوف تندم ! فكل ما تقوله عن دينك ، وهيامك بالله ،
ومهمتك ، إنما هو كذب صراح ، ولست فى أعماق نفسك الا أنا نيا شقيا !

وكأما غلبها الإنفعال والغضب ، فارتمت من كرسيها على الأرض ، وانهمر
دمعها بغاة وأخذت تصعد الزفرات .

فاضطربت لبعكائها ؛ وكنت أثناء حديثها قد ندمت على قسوتى ، بخشوت

الى جانبها وأخذتها بين ذراعى ، وشربت الدموع التى انحدرت على خديها .
وصحّت بها : يا عزيزتى بل أنا الذى عبدك بل أنا ملكك ! ولكن
ما الحيلة والقدر يفرقنا ؟ فإذا أنت لم تستطيعى أن تلغى تعهدك وتبقى
فى إشبيلية ، فإستطيع أنا أن أغادر إشبيلية لأتبعك .

فرفعت نحوى عينيها الناعستين النديتين برقة وقالت : ما الذى يمنعك ؟
فأجبت مترددا : ولكن يمنعنى الكثير ، دراسى ، وعهودى لرؤسائى ،
وما قزرت من نذور .

قالت : ألم تقطع لى اليهود أيضا ؟ ثم أليست هذه اليهود مقدسة
كملك التى قطعها لرجال الكنيسة ! ألم تقسم لى بأنك تحبى أكثر من الكنيسة
ومن مهنتك ؟ فإذا كنت رجلا وفيما ولم تكن غادرا فف بوعدك وتعال معى !
وكننت من الحداثة ؛ وكان الحب يعينى حتى لا أفترق بين عهد قطعته
مستيريا ، ووعد ألقيته فى حى الشموه . فاضطربت لأقوال باستورا فلوريس ،
وخارت قواى . ولاحظت هى ذلك منى ، فزادت الحافا ، وبعد اعتراضات
وجلة دحضتها بقوة ، قبلت أن أتبعها الى غرناطة . ولما قزرت ذلك العزم
نهائيا صفقت طربا ، وأخذت ترقص فى الغرفة ، ثم ارتمت على صدرى ،
وغمرتنى بملاطفاتها القاهرة ، وصاحت خلال ألف حماقة : سوف ترى
يا حبيبى كيف نغدو سعيدين ؛ وسأجعل لك من غرناطة جنة عدن !

وتقرر أن ألقى بفرقة الراقصين فى نحو الساعة العاشرة مساء من باب
سان فرناندو ؛ وأن أركب بغلا تهيه لى پاميلينا ؛ وأن أرافق المركبة التى
يتكس فيها أفراد الفرقة أثناء السفر . وفى صباح اليوم التالى قمت بأهبتى ،
فاشترت ثيابا استبدلها بثوبى الدينى ؛ وفى المساء جهست نفسى فى غرفتى
لأغير ملابسى ، فارتديت ثياب فلاح أندلسى ، وخرجت من غرفتى خلسة
حين اعتقدت أن الكل نيام ، ولم أخبر أحدا بعزى . ابتقاء الأسئلة المخرجة ،

وحتى لا أحمل بالأخص على الإفضاء الى مانوليتا بسرى المؤلم ؛ ولكنى
ماكدت أبدو فى الرواق حتى رأيت الفتاة أمامى ، وقد خرجت من غرفتها ،
وأنت بصرخة خفيفة حينما رأتنى فى أهبة السفر .

فقال بصوت مرتجف : أهذا ممكن يا دون رامون ؟ فأين تذهب
فى تلك الساعة ؟

فأجبت : صه يا مانوليتا ، فانى سأرحل لأيام ، وسأذهب الى بنيافلور
لقضاء بعض المصالح الهامة .

نخفضت رأسها بهيئة ريب وقالت : أذهب الى بنيافلور فى هذا الثوب
يادون رامون ؟ انك تخدعنا وتسخر منا ، ألا انك ذاهب الى مكان آخر ،
ولن تعود !

قلت : بل سأعود يا مانوليتا ؛ فقولى لوالدتك انى سأكتب اليها عما
قليل ، ولكن بالله لا تؤخرينى فان وقتى ضيق .

فاغرو رقت عيناها الزرقاوان بالدمع ، ولم تأت بحركة لمنعى ، ولكنها
انترعت بعنف من صدرها ، القلب الفضى المطعون بالسهام الذى تحمله دائماً ،
وأوثقته بكى قائلة بصوت أجش :

احتفظ به ذكرى منى ، فقد يحفظك من الشر ... فاذا أصابك الشقاء
رغما من ذلك ، فعد الينا فتجد غرفتك دائماً وأصدقائك المخلصين . وداعا
يادون رامون ؛ ولتحكمك العذراء !

ثم أوت الى غرفتها ، وفرت أنا من المنزل خافض الرأس .
ووجدت عند باب سان فرناندو مركبة البريد مشحونة بالمسافرين
متأهبة للسفر ، ولحمت على مقربة منها ياميلينا وهى بذاتها ممسكة بزمام البغل
الذى أعد لركوبى .

فلما رأتنى لمعت عيناها وصاحت : حمدا لله ، فأنت رجل الوفاء .

ثم ساعدتني على ركوب البغل ، ووثبت الى العربية بجانب السائق قائلة له : والآن سر على بركة الله .

وسرنا نقطع الطريق المغبر في ضوء النجوم .

كانت هذه الرحلة المتقطعة خلال أبداع مروج الأندلس ، والى جانب پامپلينا ، من أهبج وأنقى المسرات التى ذقتها ؛ وكنا نسير الليل والضحى ، ونقف ظهرا بإحدى القرى حتى الغروب . وكلما جزنا مفازة صعبة نزلت باستورا فلوريس لتسير بجانبى ، ويدها على ركبتي ، فكان السير الى جانبها فى سكون الليل خلال الأدغال ، سعادة . وكان الصبح البديع يتنفس عن حقول خضراء مزهرة تشرق عليها أشعة الشمس الأولى ، فأشعر بقلبي يتفتح ، وأشدت على يد پامپلينا ، وأتمنى لو طال السير على هذا المنوال الى أجل غير مسمى .

وإنى لأذكر ما آنتسته من سحر وسعادة ذات ضحى وقفنا فيه بمرج شذيل^(١) فى ظاهر لوشة ؛ وحملت العربية وأطلقت البغال للرعى ، وذهب السائق والمسافرون الى القرية المجاورة لشراء الطعام . أما نحن فجلسنا فوق العشب الخاف على ضفة شذيل نستمرئ سعادة الخلوة فى هذه الطبيعة الممتعة ، وتمددت پامپلينا كالنشوى ؛ تستنشق الربيع المبدع ملء رئتيها ، وتغنى وتقطف الزهر من حولها ، ثم وثبتت الى وعانقتني بعنف وقالت : أليس ذلك بديعا يامقدس ؟ ألسنا تتبادل الحب مهما حدث ؟

أجبت : بلى وأبدا .

ثم انهمرت القبلات .

ولكن وأسفاه ، لقد كانت آخر لقيا السعادة الخالصة .

فكلما اقتربنا من غرناطة ، غاض مرح پامپلينا وزاد صمتها واكتئابها ؛ ولما صرنا فى ظاهر المدينة نرى أنوارها ذات ليلة ، غادرت پامپلينا العربية ،

(١) النهر الذى تقع عليه غرناطة وله فى تاريخ الأندلس ذكريات خالدة .

وجاءت لتسير الى جانبي ثم قالت بلهجة تردّد :
— قد وصلنا يارامون ، فعليك أن تقيم في « بورتاريال » ، في منزل مفروش ، وسأخبرك أينما وكيف نلتقي متى قررت .

فصحت ذاهلا : كيف ؟ أأست أقيم أدا معك ؟
قالت : هذا مستحيل أيها الحبيب ، ففي غرناطة يجب أن أكون أشد احتياطا ، ولست أتمتع بمثل الحرية التي تمتعت بها في إشبيلية لأن ...
فصحت بلهفة : أكلي ، لماذا ؟

أجابت : لأن زوجي يقيم في غرناطة .
فصحت : زوجك ! وهل أنت متزوجة ؟

وخيل لي أن أرض المخرج « لاثيجا »^(١) تמיד تحت قدمي ، وإن غشاء أسود سقط من السماء حولي — أجل ! متزوجة ! — فلم أكن قد خرقت عهدي ونذري ، فقط لأعيش مع راقصة ، ولكنني أضفت الى ذلك إثم الزنا ، وقد فررت من إشبيلية لكي أقف على ذلك .

قالت : أجل ، يامقدس ، فانا متزوجة ، وقد كنت ستعلم بذلك عاجلا أو آجلا ، واني آثرت أن تعلم الحقيقة منذ اليوم . ولكن يا الله لا تبذل مثل هذا الكدر ولا تهتم ، فان سبستيان باكو رغم كونه زوجي ، ليس إلا ندلا ، يكبدني أجرا غاليا عن الحرية التي يتركها لي .

فلم أفهم جيدا ما قالت ، وانتهت عليها بالأسئلة وقد اضطربت مخيلتي لما سمعت ، فكشفت لي خلال دمع الحزن والخزي وتأكيدات الحب كل ما يعتور حياتها الزوجية من العار والإثم . وخلاصة قصتها أن أباه كان صاحب بهو للرقص ، فزوجها في الخامسة عشرة من سبستيان باكو ، وهو سائق عربية لا يريد تسير بين غرناطة ومالقة ، ولم يحجم باكو عن أن يستغل

(١) الوادي الجليل الذي يقع بظاهر غرناطة ، وقد أظن شعراء الأندلس في التغني بجماله .

جمال زوجته ، فباعها منذ العام الأول لثرى انجليزى كان يزور الحمراء ، واستقر فى تلك الحرفة الثنائه ؛ يغمض عينيه عن أهواء پاميلينا وخيانتها ، بشرط أن تنقده ما تريخ ؛ على أنه كان شديد الغضب اذا عرض شرفه الزوجى للاتهاك دون ثمن .

ثم قالت باستورا فلوريس : وهو لا يعيش معى ، ولكنى حين أحل فى غرناطة ، يطلق الجواسيس فى أثرى ، فاذا عرف أنى أحبك يامقدس ، فانه لا يحجم عن الكيد لك واستدراجك الى كمينه ؛ فعلينا بالخطر اذا ؛ ولا تبد علنا أنك تعرفنى ، وهذا لا يمنعنى من حبك أيها الحبيب ، فأننى بمجنونة بهواك . ولقد كنت أموت لوبقيت فى إشبيلية ، بل انى أعبدك وأقسم لك أننى لن أكون لغيرك منذ اليوم . أما ذلك الرجل فانى أبغضه ، وسأنتقم منه ذات يوم ! .

ثم تناولات يدى وغمرتهما لتسا ، ثم عادت الى المركبة ؛ وبعد ربع ساعة دخلنا غرناطة ؛ وتأنخت عن مركبة البريد ؛ وجزت وحدى حزينا الى حى «بورتاريال» حيث المنزل الذى عين لإقامتى .

ولم أعلم شيئا عن پاميلينا فى الأيام الأولى للإقامتى ، فاستسلمت الى نفسى والى تأملاتى المحزنة ، ولبثت عاطلا وحيدا فى تلك المدينة التى لا أعرف فيها أحدا ، وغدوت كالشريد الضائع الذى قضى عليه أن يحيا حياة منبوذ ، وشعرت أننى أصبحت تحت رحمة الجزع والمصادفة العاشمة . ولم يكن ذلك لأسباب مادية لأننى حصلت قبل مغادرتى لإشبيلية على مبلغ كبير من المال ، أستطيع أن أعيش به طويلا ؛ ولكن ريب المستقبل ، واعترافات پاميلينا المثيرة ، ملأتنى اكتئابا أسود كان ينغص على حتى جمال الطبيعة فى تلك البلاد الرائعة ، فى الوقت الذى كان يشملها الربيع المزهر بأبدع صورة .

وبادرت منذ الصباح بصعود مرقى غماره ، وجوب الأدغال البديعة

التي تحجب تل الحمراء ، وقد أسبغ الربيع عليها خضرة ساحرة؛ واكتظت بمئات البلابل المغردة، ولعلت الأزهار بألوانها الزاهية على ضفاف الماء ، وعكفت أنفق ساعات طويلة في كورة الأسود، وتحت حنيات بهو بنى سراج، فأجد أينما سرت نوافير الماء والإصباح الندى . ولكنى، رغم بدائع الحمراء، كنت للأسف، أشعر أنى فريد، تفصلنى عن ياميلينا مئات المراحل، وكنت أذهب أحيانا للجلوس في مشرفة الحدائق التي تمتد حول برج ألمرية، وحيث يمكن الإشراف على مرج غرناطة، وأرسل نظراتى المكتئبة من خلال الورود، إلى المدينة، وإلى السهل الأخضر المزهر، وإلى آكام الجبال الزرقاء . وكلما ذكرت اعترافات باستورا فلوريس المؤلمة، أشعر بالدمع يملأ عيني لرؤية هذه البدائع التي كأنما غادرتها السعادة حين رؤيتى ، فأبكى حبي الجريح إلى الموت، كما بكى أبو عبدالله^(١)، حينما ألقى من آكام البيرة نظرة الوداع إلى مملكة غرناطة يوم نفي منها إلى الأبد .

وفي ذات مساء، حينما عدت إلى منزلى، ألفتيت صبية صغيرة تحمل إلى من ياميلينا طاقة من الزهر ورقعة ، وقالت لى : إن الآسة سوف تنتظرك بالقرب من انجيلوس في روضة الصيف على ضفة شئيل . فذهبت في الموعد المحدد، وألفتيت ياميلينا، فأمسكت بيدي وشدتها إلى صدرها بحنان ، وجذبتنى إلى ممشى مظلم قائلة : آه أيها العزيز، يخيل إلى انى لم أرك منذ أعوام . فان الوغد باكو في غرناطة ، وقد جاء يقترح على ما تسميه نذالته صفقة حسنة ، فاستقبلته كما أستقبل كلبا، فغادرنى حانقا، وأطلق عيونه فى أثرى . واذا فالواجب يا مقدس أن تتذرع بالصبر والحكمة . هذا ما أردت أن أقوله لك الليلة إلى جانب عناقك فودا ! ولا تستوحش، فعما قريب أجد منزلا أميناً نلتقى فيه طويلا .

(١) السلطان أبو عبد الله محمد آخر ملوك الأندلس الذى سقطت على يده غرناطة .

والواقع أنه لم تمض بضعة أيام على ذلك حتى جاءت الصبية تخطرني
ان ياميلينا ستذهب عقب التمثيل الى منزل معين في حي ” بنيا “ تهودني
اليه الصبية .

وكانت الساعة العاشرة مساء حينما غادرت منزلي مع الصبية . وكان حي
بنيا يقع في مواجهة ادغال الحمرء ، وكان الليل مظلماً ممطراً ؛ فنبعت دليلي
متعثراً في الماشى الندية ، ووصلنا بعد أن جزنا صفوف الشجر الى ممشى فيه
منزل فريد حقير الظاهر ؛ لا يبدو في نافذته الوحيدة ضوء ما . وهنا قالت
الصبية : لقد وصلنا .

ثم قرعت الباب بعنف وأخذت تنظر من خلال فتحة الباب المشبكة
بالحديد . وبعد برهة جاء شيخ من وراء الباب يحادثها من خلال الفتحة
الصغيرة ، فلما اطمأن أدار المفتاح في القفل ببطء ، وفتحت لنا امرأة تحمل
مصباحاً نحاسياً ، وأشارت لي بالدخول كما أشارت للصبية بالانصراف . وصعدت
أعثر في أثر المرأة سلماً رطباً ، ودخلت بهوا مقبياً مظلماً ؛ وكانت ثمة فتاتان
ترقصان ، في حين كانت عجوزان تجلسان القرفصاء أمام المدفأ تستدفئان .

فدهشت اذ لم أر باستورا فلوريس ، وخشيت أن أكون قد وقعت
في كمين . ولكن إحدى الراقصتين وقفت وأمسكت بيدي ضاحكة ، وفتحت
باباً صغيراً في نهاية القاعة وأدخلتني في غرفة مجاورة أكثر نورا ، وهنا لك
رأيت ياميلينا تجلس على أريكة عتيقة وهي تقشر برتقالة .

وكانت ترتدي نفس الثوب الوردى الذي كانت ترتديه يوم رأيته لأول
مرة في أموردي ديوس ؛ ويضم قدها نفس المطرقة البيضاء ذات الزهر
الأحمر والأصفر ؛ ويزين شعرها الأسود زهر أصفر .

ولما دخلنا ابتسمت الفتاة من جديد وقالت : عما مساء ؛ ثم ارتدت
وأغلقت علينا الباب . أما ياميلينا فنهضت ؛ وألقت ذراعيها حول عنقي

وصاحت خلال العناق :

ياعزيزى المقدس ومالك قلبى ، لقد ظفرت بك أخيرا ، وفى وسعى أن أتمتع بك كما أهوى !

ثم جذبتنى الى الأريكة ، وألقت بجسمها المرن على جسمى ، وألقت برأسها على كتفى وقالت : لقد قضيت ياعزيزى أياما محزنة فى غرناطة ، ولكننى سوف أعوضك وسننعم بأوقات حسنة . فان الفرقة لا تمكث هنا كثيرا ، وسنذهب بعد شهر الى مرسية ، وهناك نكون طليقين كالهواء .

ثم أخذت تهوى على بالقبالات وهى دهشة من ردى لمداعباتها بشئ من الفتور . ومع أنى كنت سعيدا بلقائها ، فقد شعرت باضطراب ، وجزع غامض كان يشل عزائى . وكنت رغما منى أفكر فى زوجها السائق ، وكانت صورته المكدره ترتسم كل لحظة أمام عيني .

فقلت : هيا واستبشر ، ولننس الأوقات المحزنة ، ولننعم بهذا الليل الذى نملكه ، وليحيى الحب .

ثم ضاعفت عناقها ، فنفذت الى حرارة جسمها ، وصعد شذا عطرها الى رأسى ، فأغمضت عيني برفق . وقالت وهى متنهدة : شد عناقى ولا تكدرح ذهنك ، فإننا هنا بمأمن من ذلك الوغد باكو ...

وهنا صاح بخافة صوت رجل محنق : وهل أنت واثقة من هذا ؟
فنهضنا مروعين ، فألفينا الباب الصغير قد فتح ، ونفذ منه رجل لم يكن غير السائق .

فأدركنا أنه قد غدر بنا ، وأنه استطاع أن يرشى أصحاب المنزل .
فوقف يرمقنا وهو مستند الى الباب المغلق ، وما زلت الى اليوم أراه بجواربه البيضاء ورأسه العارى ، وصدره القوى ، وكتفيه العريضين . وكان يرتدى صديرية زرقاء ، ويضع فى نطاقه خنجرا يبدو مقبضه النحاسى ، وعلى

ذراعه الأيسر معطف بلنسى .

ثم قال سائحا : انك تزاولين يا حبيبتى حرفة شريفة .
فحدقت به باستورا فلوريس بجمرة وقالت : ماذا تريد منى ؟
قال : أريد أن أقول لك كلمتين .

قالت : قل اذا وانصرف .

قال : مهلا ، ولا تعجلى فى طلب الخلاص منى ، وإن غيى ليغضب ؛
ولييطش بهذا القى الذى خاطر بحياته لرؤيتك . أما أنا فأنى رجل طيب ،
وأقنع بأن أكرر ما اقترحته عليك الليلة السابقة . فهل تريدان الذهاب معى
غدا الى مألقة ؟

فامتعت باستورا غضبا ، وعضت شفيتها ، وأمسكت بذراعى بفاة
وقالت : أسمع يا رامون ؟ ليس يكفيه أن باعنى ثلاث مرات ، بل يريد
العود الى تجارتها الشائنة . اذهب أيها الوغد ، فابحث عن غيرى لعملائك ...
فدنا باكو منها مهددا بقبضته ، وهو يقول : حذار ، فلو فهدت بكلمة
أخرى لقضيت عليك أنت وخليلك .

وكنيت بلا سلاح ، واكننى تأهبت للدفاع ، وأخذت أبحث ببصرى
عن شىء ألقه على رأس السائق ، فاذا بعينى تقع بفاة على مقبض الخنجر الذى
يضعه فى نطاقه ، وإدنا مهددا ، وثبت نحوه بفاة ، وانتزعت الخنجر من
نطاقه فى لمح البصر ، ثم رفعتة فى وجهه منذرا ، فصاح صاخبا وارعد مذهولا .
وصاحت پاميلينا : آه ، لقد ألفت استاذك أيها النذل الخبيث .

فصاح باكو : سوف . أعود لاقتناصك أيتها الملعونة ، وأحمل البوليس
ليقبض عليك ويلقيك مع نظيرائك أيتها الملوثة فى حمأة الطين والقذر . وهنيئا
لك أيها الفارس بخيلتك ؛ فقد تعاقب عليها العشاق من كل فج ...

فاضطربت پاميلينا غيظا إذ ينهمر عليها أمامى هذا السيل من الإهانة ،

وألقت نحوى نظرة سوداء ماثية ، وضربت بقدمها الأرض ، ودفعتنى بيدها
وهى تصبح بغضب :
— أقتله ، ألا فاقته !

فدوى الطنين فى أذنى ، وصعد الى رأسى لذب الغضب فأعمانى ، فوثبت
الى باكوا وأغمدت الخنجر فى صدره .
فبدت منه صرخة خفيفة : وارتمى بوجهه على الأرض ، والدم
ينفجر منه .

فوثبت النسوة من الغرفة المجاورة على صوت الهرج ، وفتحت إحداهن
الباب ، ورأت الجثة ، وارتدت مروعة صائحة . أما أنا فامتقع وجهى ،
وسقط الخنجر من يدى ، وتحاذلت ساقى . فهزتنى ياميلينا بعنف وقالت
بصوت موحز :

— سوف تأتى الشرطة هنا ، فيجب ألا تبقى ، فهيا وأسرع .
ثم تخطت الجثة بلا اكتراث ، وجرتنى وأنا أضطرم روعا ، وصعدت
عدة درجات وفتحت نافذة تطل على الحقول ؛ وقالت : — ألج بنفسك !
فأمسكت بيديها قائلا : وأنت ؟ .

قالت : ان النافذة ضيقة جدا لا تتسع لشيأى . ولكن لا تجزع من
أجلى ، فنى وسعى أن أنقذ نفسى . اذهب فانتظرنى فى إشبيلية ، فى حى
تريانا .

قلت معتزما ألا أتركها : لست أستطيع الذهاب دونك .
قالت : لا تكن طفلا ، فلست أخشى أنا شيئا ، أما أنت فان وجدت
هنا ، فان مالك السجن بل ما هو أشنع . اذهب وسوف نلتقى فى تريانا .
ثم أعطتنى قبلة أخيرة ودفعتنى نحو الكوة . وكانت الأصوات والخطوات
الثقيلة قد أخذت تدوى لدى الباب . وساعدتنى على اقتحام الكوة ، فلما

صرت خارجا قالت لى :

' — اركض بكل قواك والوداع !

فوقعت على أرض رطبة ، وركضت نحو الحقول ، فلم تشرق الشمس حتى كنت بعيدا عن غرناطة . وكنت لحسن الطالع أحمل كل نقودى معى فاشترت فى الطريق بغلا ، واخترقت طريق الأندلس ، أسافر ليلا ، وأختفى نهارا فى زوايا القرى . وبعد أسبوع من الإعياء لحت أخيرا فى الأفق أبراج إشبيلية . وجزت الى حى تريانا ، ونزلت بالمنزل الذى وعدت باميلينا أن توافينى اليه .

وفى مساء ذلك اليوم خرجت تحت جناح الظلام ، وهرولت الى حى «دادوس» وأخذت أحوم حول منزل السيدة جوتيريز، حتى رأيتها تخرج مع أحد زملائى القدماء ذاهبة للنزهة كالمعتاد . وكانت مانوليتا تبقى عندئذ لحراسة المنزل . فلما غابا عن نظرى ، قرعت الباب ، فظهرت مانوليتا ، وامتقععت حين عرفتنى وصاحت : لقد عدت يا دون رامون فالحمد لله ، وسوف تجد غرفتك كيوم رحيلك ، وسوف أعدها لمقامك .

فقلت بحزن : كلا يا مانوليتا ، فلست خليقا بعد بأن أعيش مع الشرفاء ولن أبقى هنا غير بضع دقائق . فهل أنت وحدك فى المنزل ؟ .
قالت : ربه فماذا حدث ؟ .

قلت : لقد قتل رجلان ، وأرغمت على الاختفاء .

فشبكت يديها ، وارتدت ذاهلة مذعورة .

وقلت : لقد رأيت أنى أروعك ، فاسمعى لى بالصعود لى أتناول ثيابى الدينية فأنتكر بارتدائها .

فأشارت الى المصباح ، فتناولته ، ورأيت الغرفة التى عشت فيها سعيدا . وهناك غيرت ثيابى بسرعة . وحزمت ثيابى الأخرى التى كانت لاتزال ملوثة

بدم باكو، ونزلت الى الفناء حيث كانت مانوليتا، وقلت لها: الوداع الى الأبد وصلى من أجل يابنية .

فقدمت الى جبينها ، فطبعته وجلا بشفى الأمتين ، ولذت بالفرار .
وعدت الى تريانا ، واختفيت هنالك ، وأنا أنتظر فى لهف المحموم
قدوم باستورا فلوريس . ولكن الأيام مضت ولم تأت . فساورنى جزع
قاتل . وفى ذات ليلة رأيت فى فناء المنزل عازفا من الذين رأيتهم فى بهو
أمور دى ديوس وسافروا مع فرقة الراقصين الى غرناطة . فسألته طويلا
حتى أعرف مصيرى . فعلمت منه أن پاميلينا قد بقيت فى غرناطة ، وأنها
نسيتنى ، وأنها اتهمت بالاشتراك فى مقتل باكو فالتجأت الى حماية مساعد
الحاكم ، فعاونها على الخروج من المشكل وغدت له خالصة .

ثم قال العازف باسمنا : ماذا تريد يا سيدي ؟ فقد كان الضابط فتي
جميلا ، وقد أسدى اليها يدا كبيرة ، وليست پاميلينا ممن يخان بالوفاء .

ولقد كان نذير الخلاص ! فقد غدرت بى المرأة التى ضحيت من أجلها
بكل شيء ، وأثقل ضميرى بمقتل رجل ، وحطم مستقبلى ، وصرت عارا على
نفسى . لهذا عولت على أن أتخلص بأسرع فرصة من حياتى النكدية .
فغادرت إشبيلية ، وتطوعت فى إحدى العصابات البكارية التى تحارب
فى سيرامورينا . وكان الزعيم كابريرا فى ذلك الوقت يحارب فى منطقة بالنسية
فلحقنا به ، ورحلت بأسره الى ميدان "الإيرو" وقاوت قتال اليأس
المستमित ، راغبا فى الموت . ففى موقعة شنيئا أصابتنى رصاصة فى صدرى
وأملت الموت ، ولكن الله أباه على ، فعولجت وشفيت ، وسرت الى برقة
فى الوقت الذى فر فيه كابريرا مع فلول جنده الى الحدود الفرنسية ، بعد أن
خاب كل أمل . وهمت أياما على وجهى فى مفاوز "البرنيه" حتى وصلت
الى برنيان وقد كدت أهلك جوعا وضئى ، وهأنذا .

ولقد أثارت قصة الدون رامون أشجاني، حتى انني أخرجت رأسي من وراء الستار لكي أحسن السمع، ولكن كتابي سقط من على ركبتي حينما أتلفت بعنق؛ فلمح الإسبانيان في الحال وجودي. وقطب الدون رامون حاجبه وقال: من هذا الصبي؟

فأجاب الأب بلاشوس: هو جار لا أهمية له، اذهب أيها الصبي واركنا فسوف أتكلم مع السيد في شؤون خطيرة.

نفجرت أسفا. ولم تتح لي فرصة لرؤية الدون رامون مرة أخرى مع انه أقام في فيلوت. وعند انتهاء الإجازة سافرت أسرتي، ولم أعد الى البلدة إلا بعد خمس عشرة عاما من عام...

وهناك وجدت الدون پالمينو بلاشوس يقيم دائما عند جيراننا القدماء. أما الدون رامون، فانه لم تمض ستة أشهر على إقامته في فيلوت، حتى توفي مصدورا في المستشفى. ولقد رأيت قبره وأنا أجوب المقبرة، وقد غطته دغلة من العشب. وكان اسمه فقط منقوشا على الحجر، ولكن الدون پالمينو أمر أن ينقش تحته الأئشودة الأندلسية القديمة:

« كان أول أسباب ضياعي امرأة .

« ولا ضياع في الدنيا يا حبيبة القلب .

« أجل لا ضياع في هذه الدنيا .

« لا يأتي من النساء^(١) .

(١) أخذت هذه القصة من مجموعة Bigarreau .

صحف

من

فرانسوا کوپیه François Coppée

فرانسوا كوييه

كوييه ، شاعر وكاتب مسرحى وقصصى كبير . ولد بباريس سنة ١٨٤٢ ، وتوفى سنة ١٩٠٨ . وكان لمجهوده وفتاته القوية ، أثر كبير فى تطور الأدب الفرنسى فى أواخر القرن الماضى . بل ربما كان الأثر الذى خلفه كوييه ، بنماذج شعره وقصصه وطريف خلاله ، أعمق الآثار التى خلفها أقرانه ومعاصروه . ذلك لانه استقى وحيه من آلام التواضع والبؤس ، ونقل صورته عن أنفاس المنكوبين والمعذبين ، ووهب آثاره للسواد الأعظم فى مجتمع ما زالت الآلام أقوى ظواهره ، والبؤس نصيب معظم بنيه . لهذا كان أثره بعيد الغور فى أذهان المعاصرين ، والخلف جيل اليوم .

ويرجع ذلك الى طبيعة البيئة التى نشأ فيها كوييه ، والظروف التى أنفق فيها أعوام حداثته وفتوته . فقد نشأ فى مهاد البأساء ، وربى فى معترك من الفاقة والآلام والقناعة . وكان أبوه موظفا صغيرا فى وزارة الحربية ، وكان له من الولد غير فرانسوا ثلاث بنات كانت إحداهن آيت التى غدت فيما بعد أحب العالمين الى أخيها الشاعر . وكانت الأسرة تعيش فى فقر مرهق . وتلقى فرانسوا دروسه الأولى فى مدرسة سان لوى ، ولكن أباه أحيل على المعاش غير بعيد ، ثم مرض ولزم الدار ، فاشتدت الفاقة والحاجة بالأسرة ، واضطر فرانسوا أن يترك المدرسة دون أن ينال أية درجة أو شهادة ، وأن يبدأ العمل لغوث الأسرة وعولها ، فالتحق موظفا صغيرا بوزارة الحربية واحتمل على كاهله أعباء الأسرة مكان أبيه المريض ، ولبثت الأسرة تعاني شظف العيش ردحا آخر ، حتى أن كوييه كتب فيما بعد أيام مجده ، الى سائلة له عن أيام فتوته يقول : « ما رجحت أربعين فلسا حتى السابعة والعشرين » . على أن أن قبسا من السرور والأمل كان يضيء هذه الأعوام الأولى التى

قضاها الشاعر في معترك من الآلام والحلمان . فقد كان يقرض الشعر ، وكان يحوب أنحاء باريس . اكتشف الشعر وعالجه ، ولكن في نفس البيئة والظروف التي نشأ فيها . فكان البؤساء والمتواضعون نماذجه ، وكانت حياتهم وآلامهم وحيه ومستقاه . ذلك لأنه لم يعرف سواهم ، ولم ينعم بغير صحبتهم ، واليهم يدين ببودر عبقرية لبثت مخلصه لهم طول حياته . ثم كانت جولاته في أحياء باريس ، مسرته الثانية . وكان كوييه يعشق المدينة الكبرى التي ولد وترعرع فيها ؛ وكان يأنس لذة كبيرة في جوب أنحائها ؛ أزقتها وأعماقها وحدائقها ؛ وكان يعنى بأقل مناظرها وتفصيلاتها ؛ وتمثل في مخيلته المضطربة كل بدائعها وصغائرها ، وكل بوادر نعمائها وبؤسها . وكل له بعد ذلك من ذكريات لذية يستعرضها من هذه الجولات العزيرة ، حتى أنه ليذكر طربا يوم كان يذهب الى « المسرح الفرنسى » فيخوض الجموع الحاشدة ، وفي جيب ثوبه المدرسى قطعة من « السوسيس » ليشهد الحفلة المجانية ، فوق المسرح الذى ازدهر فوقه مجده بعد ذلك .

وكانت هذه الجولات من أسباب الوحي لشاعر الغد ، بل كانت وحي مجده الأول . فإن الشاعر يعترف لنا أنه كان في إحدى نواحي باريس ثمة نافذة يراها وهو يتنزه في إحدى الحدائق العامة ، فلا يستطيع أن يراها دون أن يخفق قلبه . ذلك لأن النافذة الصغيرة كانت اذا فتحت تسفر عن رأس أشقر يبدو بين الخضرة والزهر ، وقد يتسم له أحيانا . على أنه يقول لنا « إنها لم تكن مع ذلك حسناء ، ولا ناعمة ، تلك صاحبتى الأولى . وقد كانت الرواية قصيرة المدى ، ولم أشعر خلالها بسعادة ، بل اختتمت في نكد . أما الذى أحببته فيها ، فإنى أراه اليوم ، وقد كان خيالى ، ومثلى » . هذه النافذة الصغيرة ، ذات اللظ الأشقر ، هى التى أوحى بلا ريب الى كوييه أول بدائع المسرحية « الذهاب » Le Passant ، التى ظهرت سنة ١٨٦٩ ،

فكانت أول حجر في صرح مجده، وبطلها فتى يرتدى السواد هو كوبيه نفسه يضطرم بأهوائه وزغاته. فطارت شهرة الشاعر الفتى يومئذ، واحتفلت بظفره أندية الأدب والشعر. وأعقب ذلك بعدة مجموعات شعرية قوية مثل :
Poèmes modernes, Intimités, Olivier وغيرها .

وتألق نجم كوبيه سراجا، ولبت حيناً نقادة مسرحيا لصحيفة «لاپاترى» وفى سنة ١٨٧٨ عين أمينا للحفوظات فى مسرح «الكوميدي فرانسيز» ، فلبث فيه حتى سنة ١٨٨٤ ، أعنى الى العام الذى ظفر فيه بوسام الأكاديمية الفرنسية وانتظم فى سلك الخالدين . وعندئذ خاض غمار السياسة ، وانضم الى الحركة القومية العنيفة التى كانت تخاصم السامية يومئذ ، ونهض لمحاربة دريفوس وأنصاره أيام محنته ، وكان من أركان « مجمع الوطن الفرنسى » الذى أدى فى هذه الاضطرابات دورا لا يحمد . وأخرج فى ذاك الحين أروع قصصه المسرحية : « مدام دى مينتون » Mme de Maintenon « اليعقوبيون » Les Jacobites ، « فى سبيل التاج » Pour la Couronne ؛ ثم عالج القصة الصغيرة فكتب منها عدة مجموعات ساحرة مثل : Contes en Prose, Vingt Contes nouveaux, Contes rapides, Longues et brèves, « فتوة بأسرها » ، وفيها يصف أحداثه وفتوته فى شخص بطلها «أميديه» . وفى سنة ١٨٩٦ أخرج كوبيه أعظم آثاره القصصية : « الجانى » Le Coupable ، وهى قصة قوية مؤسسية لا تملك دمك عند تلاوتها فى مواضع كثيرة، وفيها يصف كوبيه ما يسميه جرائم الآباء على الأبناء ، ويصورها فى حياة دعى مسكين تركه أبوه « الجانى » لأهواء القدر تعصف به ، حتى ترعرع وشب فى مهاد الإثم والجريمة ، وحتى ألفت به المقادير ذات يوم الى محكمة الجنايات ، فاذا بالمدعى العمومى ، الذى عهد اليه بإقامة الأدلة

على جرم « لكرتيان فورجا » (بطل القصة) انما هو أبوه ، واذا بذلك الأب يذهل القضاة والنظاره بإعلانه أنه هو « الجاني » الحقيقى ، ويقص قصة الظروف التى عرف فيها أم هذا الولد الشريد ، وتركها مع ولدها ثمرة هواه ، ألعوبة فى يد القدر . وفى قصة « الجاني » يصل كوپيه الى الذروة فى تصوير مصائب البؤس وآلامه المستفيضة ، بأسلوب يذيب الفؤاد . وهذا هو خير ما فى تراث الشاعر الكبير ، الذى لبث بعد ظفره ، ونفاره ، ونعمائه ، فى أخريات حياته ، يسرح بصره دائماً حيثما بسط البؤس حجابيه ، فى تلك المهاد المظلمة التى تغص بها أزقة باريس وأغوارها ، وحيثما قضى أعوام حداثته وفوته ، يشعر بنفس الآلام التى يشعر بها أولئك الذين يقنعون من الحياة باسمها .

وهذا الحنين الى البؤس ، هو الذى أشاد بذكره أصدقاء فرنسوا كوپيه يوم احتفلوا بمرور العشرين على وفاته منذ نحو أربعة أعوام . ويومئذ وجه صديقه القديم موريس رويست الى ذكره خطاباً مؤثراً يقول فيه :

« عشرون عاماً مضت على رقدتك ، ولكن اسمك مازال يدوى فى ذاكرة الناس بأشد مما تدوى أسماء أوفر ريننا من اسمك . ذلك أن جمهرة كبيرة من الشعراء لا تنتسب الا الى الآداب ؛ أما اسمك فانه ينتسب الى عالم القلب الذى لا يقف امرؤ على أغواره . ولله ما أسعد ذلك الذى يستطيع ، لعشرين سنة من موته ، أن يوحى من الحنان أكثر مما يوحى من الاحترام ! فقرر عينا أيها الصديق القديم فليس يسيرا أن ينفذ المرء الى ذكرى البؤساء . وليصح القصص الذى بكتك فيه چنى (احدى بطلاته) ! أن أولئك الذين لا يصفون الشعر الا ببساطة مشاعرهم ، لأكثر قوة على لفظ الجمال الزائف ... » .

وتوفى الشاعر الكبير فى مايو سنة ١٩٠٨ ، بعد أن بعث الى أذهان عصره ، أسمى وأعماق آيات الإنسانية والحنان والحب .

زلة شباب

كان هنرى لوك يخترق حديقة اللوكسمبرج، متيحها من سان چاك حيث يسكن فى غرفة فى السطح، الى شارع رجار حيث يسكن الكونت دى فُنْدَى . وكان شهر أبريل قد كسا الحديقة بأوراق ناعمة وأزهار نضرة . وكانت الريح قارصة ، والسحب فائمة مثقلة بالمطر تشق السماء بسرعة ، ولكن السماء كانت تسفر مع ذلك عن بقع زرقاء صافية . وكانت الشمس تتبسم فى فترات متقطعة ، فآترة تشمر بمقدم الربيع .

وما كانت هذالأصبحة التى يستمرئها الشيوخ الكسالى لتروق فى ذا عزة ، فقيرا رث الثياب كهنرى لوك . فى الشمس الوضأة كانت ثيابه تبدو أشد رثانة ، وقفازه أشد قذارة ، وحرق حدائه أشد ظهورا . وكان يقول لنفسه ان ليس فى هيأته من الحشمة ما يابق بالقصد الذى يسعى اليه ؛ وكان يشعر بتسجاعته تخور ؛ فسوف يرى فيه المسيو دى فُنْدَى الذى قدم اليه بجمارة ، بلا ريب ، أفافا شريدا ، وسوف يصرفه بعذر من الأعذار . ولكن لا ، فما أبدع منصب يدر عليه ألفا وثمانمائة فرنك مقابل عمل بضع ساعات فى اليوم ، ويغمره بالرخاء والبسطة ، ويمكنه من العودة الى الدرس لتحصيل الليسانس والعالمية . ولكن لا ! فان النحس يلزمه وسوف تفلت منه هذه الفرصة البديعة بسبب حدائه المخروق ، وسوف يرغم على الركض والتجوال ثانية ، ليليج دروسه اليونانية واللاتينية بأجنس الأثمان .

وقف هنرى لوك برهة ليستمد من نفسه شيئا من الثقة والأمل ، وأخرج من جيبه خطا با غير معلق هو الذى يقدمه به أستاذه القديم فى البيان ، المسيو برتبيه ، الى الكونت دى فُنْدَى ، وأعاد قراءته بعناية ، وهذا نصه :

باريس فى ١٥ مايو سنة ١٨٧٤

سیدی الیونت وتلمیذی العزیز القدیـم .

« أقدم الیک الفقی الذی حدثک عنه ، وهو من أحسن من عرفتهم کراسی کلینا القدیمة «هنری الرابع» . وقد درس فیها ، ولكن حدث منذ عامین عقب نیله شهادة البكالوريا فی الآداب أن توفیت أمه ، وهی أرملة مسکينة ، تعيش من نفقة حکومیة قطعت بوفاتها . فعندئذ ألقى هنری لوك نفسه مجردا من کل معین ، وعکف بشـجاعة علی کسب قوته باعطاء الدروس ، وهو مما لا یثیب أحدا وخصوصا فقی فی مقبـل العمر . وقد سقط فی الشتاء الماضی فی امتحان اللیسانس ، ولكنی علی یقین من أنه سیصلح هذا العثار لأنه مجد واسع العلم . وأنی أحثه أيضا علی أن یحضر للعالمیة لکی یتطیع أن یندمج فی حیاة الجامعة . بیـد أنه یعوزه لتحقيق هذه الغایة مدى عامین أو ثلاثة ، عمل لا یتغرق کل عنايته بل یتـرك له سعة من الوقت . فلما قلت لی انک تبحث عن سـکرتیر فکرت فی الحال فی هنری لوك . وانی شمید بذکائه و غیرته و رفیع عواطفه ، ولن ترى منه إلا ما یتحقـق الشاء ، وانک لتسـدی الیه یدا کبری .

« والنقطة الدقیقة الوحيدة الـتی ألفت الیها نظـرک ، هو أن هنری لوك کمعظم شباب الیوم قد أشرب حب المبادئ المغرقة فی الحریة ، ولكنی أزیـد بسرعة أنه رغم حدائـته یفیض أدبا وتحفظا ، ولن یقول یوما کلمة تؤذی عقیدتک أو آراءک . وانی أعلم أن لـدیـک من التسامح قدر ما لـدیـک من ثبات فی العقیـدة . والدلیل علی ذلك هو اننی رجل حر الفکیر وجمهوری ، ولكن ذلك لم ینتقص شیئا مما تحبش به من الصداقة نحو أستاذک القدیـم . فباسم هذه الصداقة أرجو ک أن تنزل عما تشعر به من رغبة مشروعة فی أن تتخذ لک سـکرتیرا یشاطرک آراءک السیاسة والدیـنیة ، وأن تفضل تلمیذی الذی أعتقد أنه ، کما قلت لک ، ذهن مختار وفقی ینتظره مستقبل بدیع . ومالی أنوه بآراء صبی

فى التاسعة عشرة أوبالحرى بمبولة ، ولعلى أخشى أنه متى امتزج بجياتك فانه
يغير آراءه . وانى لأصرح مخلصا أن منظر فضائك الدينية واخلاصك الراضح
النزىه لقضية الملوكية ، لن تثير فى صديق القى غير الاحترام والإعجاب .

« وتقبل ياسيدى الكونت وياتلميدى العزيز القديم أرفع تحياتى —
ل . برتنيه استاذ البيان بكلية هنرى الرابع » .

وإذ اطمأن هنرى لوك نوعا لقراءة هذا الخطاب الحار المنمق ، عاد الى
السير فوصل بسرعة الى المنزل المقصود بشارع رجار .

وكان منزلا نفخا من طراز القرن السادس عشر ، فشرع القى يجزعه
يتضاعف وهو يجوز بابہ الأثرى . ولكن الكونت دى فندى كان يستأجر
فى هذا المقام الفخم مسكنا متواضعا يصعد اليه من سلم ضيق حجرى ، ويحتوى
على أربع غرف ضيقة منخفضة السقف ، ولكن نوافذها جميعا تطل على
حديقة زرعت بالبلوط القديم الغاص بأوكار البلابل .

قرع لوك الجرس ، فبرز اليه خادم كبير الشارب هو جنيدى قديم ،
وإذ عرف اسم القى ، قاده خلال غرفة للزيارة وأخرى للطعام ، كلتاهما
تخلف بشخص متوسط الحال ، الى الغرفة الثالثة التى كان فيها رب الدار .

وكانت هذه الغرفة مكسوة بورق أخضر ، غاصة بالرفوف والسجلات .
والأوراق . وكانت غرفة الكونت دى فندى تشعر كالأول وهلة بأنها
مكتب مراب . ولكن هذا الشعور كان يحوه على الأثر ، منظر صورتين
بديعتين معلقتين على الجدار ، إحداهما للبابا بيوس التاسع ، والأخرى للكونت
دى شامبور ، وكلتاهما مزينة بتوقيع صاحبهما ، وكذلك منظر رأس مسيح من
الخشب المحفور ، قد وضعت على حافة المدفأ الرخامى . وكانت المقاعد
الكبيرة والصغيرة ، ومكتب الكونت وهو من طراز لويس السادس عشر ،
تدلى رغم ما يكسوها من غبار وما يتكدس عليها من الأوراق بأنها أثاث محترم

الأسرة عريقة . وكان منظر الغرفة على العموم مختلا متباينا ، فهناك امرأة صغيرة رخيصة ، وإناء للطهى قد وضع على المدفأ ، وقرطاس من النقود الذهبية قد فرطت لفافته ، وعلبة من السيجار الفاخر ، وهناك سحابة معطرة كانت بلا ريب من أثر احداها .

وكان الكونت دى فندى يكتب وهو يدخل حينما دخل لوك ، فنهض وأخلى أحد المقاعد من أوراقه وقال له :

« لا ريب أنك ياسيدى ، الفتى الذى أرسله الميسو برتييه ؟ »

فأجبت الطالب مقدما خطاب التوصية : أجل ! هو أنا .

فأشار اليه الى المقعد الخالى إشارة لطيفة وجلس بدوره ، وأخذ يقرأ الخطاب ، وأخذ لوك يفحص ما حوله بأناة وتمهل .

وكان أول ما يدهش فى منظر الكونت ، وهو يؤمئذ فى الخامسة والأربعين ، نحفه الشديد وقوامه الذى لا تناسب فيه . فقد كان ذا رأس صغير ، وصدر هزيل ، وكان ظهره قد تقوس قليلا ، وكانت يداه ورجلاه طويلة جدا ، تسبغ على هيئته منظرا غريبا . ولكنك متى جلست برهة زال أثر هذه الدهشة . ورغم أن الكونت كان يرتدى سترة طال استعمالها ، وقد عم قذرها وسام الشرف الذى يحملها ، فلا يسعك إلا أن ترى فى الكونت أرسستقراطيا سليل الجنس الرفيع . وكان حذاؤه ينم عن قدميه الصغيرتين ، وكانت يده رغم بروزها من كم مهمل النظافة ، ذات أصابع شفافة ناعمة . وكان محياه بالأخص يعرب عن العزم والطيبة إعرابا ساحرا ؛ أشقر عليه دائما مسحة من الفتوة ، أخضر العينين ، أفنى الأنف ، خفيف اللحية ، لطيف الفم ، تبعث ملامحه كلها الى عطف لا تستطيع مقاومته . ولكن ذبول الأجفان وحده فى ذلك المحيا اللطيف ، كان ينم عن تقدم العمر ، وعن الدموع أيضا ، لأن الكونت دى فندى كان منكودا ولشد ما عانى .

وكان هنرى لوك يشعر وهو يتأمله ، أن ذلك التحدى ، الذى تبعته اليه .
حدثاته وديموقراطيته ، يغيب . أجل ، كان هذا هو الرجل الذى قص عليه
المسيو برتييه سيرته البديعة .

وكان الكونت دى فنسدى ينتمى بمولده ومصاهرات أسرته الى أرفع
الأسر الفرنسية النبيلة . وقد انتظم فى سلك الفرقة الافريقية وظهر بشجاعته
وعزمه . ثم تزوج واستقل من منصبه ، ورزق ابنتين . وفى سنة ١٨٧٠
عاد الى الجيش قائدا لفصيلة ، وجرح جراحا خطيرة وأحرز أوسمة رفيعة .
وبعد الحرب ارتد الى أملاك أسرته فى فندييه من أعمال برى ، وهناك نزل
به مصاب فادح ، فإن ابنتيه ، وكانت كلتاها مصابة بالسل ، توفيتا بالتعاقب
لا يفصلهما سوى أشهر ، وتبعتهما أمهما وهى تحمل جرثومة الداء الخطر ، الى
القبر . وكان الكونت رجلا وافر القوى . وكانت تقواه تذهب عنه شبح
اليأس ، وتدفع به الى عزم يلا فراع حياته ، فهجر مسقط رأسه الى الأبد
بعد أن عمرته الأشباح ، وجاء الى باريس وهو موقن بأنه سىرى فيها من
البؤس أكثر مما يرى فى أى مكان آخر . وعاش هنالك عيشة متواضعة جدا ،
وكرس كل نشاطه وكل إيراده الضخم ، الى غوث البؤساء والمرضى والمصدورين
بوجه خاص . واشترك فى جميع الجمعيات الخيرية ، وأضحى من أنشط أعضائها
وأشدّهم غيرة ، رغم اشتغاله من جهة أخرى بأعماله الخيرية الشخصية . وكان
يمضى فى الصباح من الساعة الثامنة الى الساعة العاشرة ، وفى المساء من الرابعة
الى السادسة ، فى مقامه الصغير فى شارع رجار ، وهنا لك يزوره سيل من
القسس والراهبات والسائين من كل ضرب . وينفق باقى الوقت فى التجول
فى المدينة لزيارة المعوزين والمنكودين من أصدقائه ، فيصعد الى المساكن
العليا ، وينحدر الى الغرف الحظيرة ، ويحلس الى جانب المرضى الراقدين على
حصير أو قش . وكان ضنينا على نفسه بخيره الذى يعبره ملكا خالصا

للبداء ، فكان يحرم نفسه من ركوب عربية ، وكنت تراه بقوامه المديد
وحياه المهموم ، يحوب الشوارع ومظلته تحت ابطه ، وينحدر من رصيف الى
رصيف ، ومن ترام الى آخر ، ولم يكن ينفق فى طعامه أكثر من ربع ساعة
للإكله . وأى طعام كان يتناول ! ألوان باردة دائماً ، يتناولها متأخراً . ولقد
اتهمت به حمى الخير ، وهو الفارس الجميل القديم ورجل النوادى ، الى أن
يهمل زينته وزيه . بيد أنه كان رفيع المنظر ، رغم قبعته القديمة وسترته
الباهته . وكان الترف الوحيد الذى لم يصبر على هجره سيجاراته الفخمة ، فقد
كان دائماً مدخناً شغوفاً . وكان يمضى كل ساعات راحته غير أوقات النوم ،
كل أحد ، فى كنيسة سان سليبس ، يشهد القداس والمواظ . فقط فى كل
عامين أو ثلاثة يترك باريس مهلة قصيرة إذ يذهب كعادته الى فروسدورف
ليقدم تحياته الى الكونت شامبور (مدعى الملوكية يومئذ) . وهكذا كانت
الحياة النبيلة لهذا السيد الكامل ، وهذا الهندى الباسل ، تنهى الى حياة قديس .
قرأ الكونت خطاب المسيو برتنيه ثم وضعه على مكتبه ، وأدار مقعده
نحو زائره وشبك قدميه الطويلتين ، وابتسم له نرى لوك فى رقة ، وقال بصوت
رخيم يفيض صراحة : «حسناً يا بنى العزيز ، فقد اتهمت المسألة وقد صرت
سكرتيرى . إن وصية أستاذى العزيز القديم لذات أثر عظيم فى نفسى ، ذلك
أنى اعتبره رغم ما بيننا من خلاف فى الآراء رجل خير بكل معنى الكلمة .
والتقدير الذى استطعت أن توحى به اليه يضمن لك تقديرى مقدماً .
وستبدأ عملك منذ صباح الغد» .

واذ أضاء وجه الفتى بابتسامة سعيدة ، فرك الكونت يديه مغتبطاً وقال :
لقد نشأت يا بنى فى معترك الأفكار الحديثة . فلتسمح أنشأنا لنثير معا أية مسألة
سياسية أو دينية ، فلدينا من العمل الكثير ما لا متسع معه لهذا الجدل . وأنت
تعرف شروط عملك . فهل توافق عليها ؟ أقول أجل — فهذا بديع ...

والآن فلنتكلم عن عملك .

ثم أتق حوله نظرة نجمل وقال : سترتب أولا هذا المكتب المختل ، وسوف تاتي في ذلك عناء ، بل إن هذا الخلل ذاته هو الذي حملني على البحث عن مساعد ، بعد طويل تردد . وإن القليل الذي أعطيك أياه كترتب ليعتبر نفقة جديدة ، ولدى جمهرة من الناس يجب أن أرضيها . ولقد لبثت طويلا أنظم كل شيء بنفسى . ولكن الحق انى غدوت عاجزا عن ذلك ، فلدى زيارات كثيرة ، ثم النظام وهذا ليس فى طاقى . فنى كل يوم ، بينما أستقبل أنا زائرى ، تقوم أنت بتاتى الرسائل واعدادها ، وترصد لنفقاتنا حسابا . وانى لأعلم انك ستشتغل لنفسك ، ولذا فلست أريد أن أرهقك... » . وكان الكونت يتكلم بمنتهى البساطة ، وقد بدت على وجهه اماره حياء ساحرة حينما اضطر أن يتكلم عن أعماله الخيرية ، حتى أن هنرى لوك رغم جموده تأثر لأقواله وطبعته وأجاب : « انى أنا المدين بفضلك ياسيدى ، وإن المنصب الذى تقدمه لى متواضع ، ولكنه كاف . وسوف أستعين به على المضى فى دراستى واعداد مستقبل ، ولن أنسى هذا الصنيع . أما العمل الذى تسند الى منه هذا الجزء اليسير ، فأعلم مقدما أنه لذبذ شائق ، فهو ليس الا توزيع الصدقات... ولم يخف عنى الميسيو برتييه غير وافر احسانك » .

ولكن الكونت دى فنسدى نهض عندئذ بقاء وقاطع هنرى لوك قائلا بلهجة المحسن المتواضع : « لا كلام فى هذا . لا كلام فى هذا ! ومن الجوهري أن نتفاهم على ذلك . والآن أيها الصديق أرانى مرغما على صرفك ، فلم أتناول الفطور بعد . ويجب أن أذهب فى الضحى الى فييت . . فالى الغد . وانى أعتمد عليك » .

أنفق هنرى لوك طفولته وأعوام حداثته الأولى فى غمار من الشدة .

وكان تلميذا مجانيا في كلية هنرى الرابع ينال كل الجوائز، ولا يحصل إلا على عشرة فلوس في الاسبوع لمسراته الضئيلة . ولم تكن أمه ، وهى امرأة حازمة ، تسعى قط الى لقائه في بهو الزيارة ، حتى لا تمزج ثياب حدادها الذابلة التى تم عن فقر وضعة ، بزينات الزائرات الأثريات . وكان أثناء العطلات يبقى في باريس الى جانبها ، في مسكنهما الصغير النظيف المحزن ، في نهاية شارع فوجيرار وهناك ينفق كل وقته في مراجعة كتبه كما يفعل في المدرسة . وقد استطاع بجده وذكائه أن يتقدم على أقرانه فصلا ، وأن يغدو أول فرقته الجديدة ، وكان أساتذته يعجبون بتفوقه ، ولكن زملاءه كانوا يولونه قليلا من العطف من جراء تحفظه وصمته . وهذا الصراع المدرسى والمنافسات بين التلاميذ مما يبالغ فيه عادة . ولكن هذه الطريقة تثير في بعض الطبائع عواطف الطمع والكبرياء . وفي السابعة عشرة ألفى هنرى لوك نفسه يتيا وحيدا في العالم ، وفي جيبه شهادته . ولكنه استقبل هذا البدء الشظف المتواضع في الحياة ، بشجاعة وجلد . وعكف على تحصيل قوته الضئيل من إعطاء بعض دروس قليلة يخفت بها آلام الجوع ، وانكب على القراءة في المكاتب العامة ، يشحن ذهنه بنظريات تذكى فيه غريزة الازدراء بالناس ، وأمل الإنتقام من مجتمع زائف . وكان قلما يقوم بصلواته طفلا ، فعدا في الثانية عشرة ملحدا متطرفا . وكان في ميسدان السياسة ، يحلم بإنشاء دولة شرعية ، تختلف كل الاختلاف عن ديمقراطيتنا الزائفة ، التى لا يستطيع أحد أن يغمر فيها إلا بكفايته وقيمته الشخصية . بيد أنه كان يستحل لنفسه في أعماق نفسه ، كما يفعل جميع الطامعين ، حق الانتفاع بقوته . ولكن سقوطه العاثر في امتحان اللسانس أثار في نفسه شجنا ومرارة ، وفل من شجاعته وجده ، فأخذت أهواء الشباب تضطرم في نفسه في أوقات فراغه ، لأنه رغم برود ذهنه وجفاء قلبه ، كان مضطرم الأهواء .

فى ذلك الحين، قدمه استاذہ فى البیان، وكان يبالح فى تقديره والعطف عليه، الى المسیودى قندى فعدا سكرتيره . وكان يحمل هنالك عواطف عدو كان یخدها بادئى بدء ظارف الكونت ورقته .

جاء هنرى لوك منذ الساعة الثامنة الى شارع رجار، وجلس فى غرفة الطعام یشغل أمام مائدة صغيرة . ولكنه كان یدخل من وقت لآخر الى غرفة الكونت، لیاخذ أو یعيد سجلا أو ملفا . وكان الكونت قد ترك بابها مفتوحا وأذن لسكرتيره اذا مطلقا بأن یجول خلال المسكن دون حرج، حتى أمام الزائرين . وكان زائروه كثرة . وكان الحاجب جسيار یجلسهم فى غرفة الزيارة على أریكتين عتيقتين ویقدمهم بالتعاقب كل بدوره . وكان راهب یعقب راهبة، أو یخلط النسوة العجائز، بشيوخ ذوى أطمار، أو أمهات یحملن ولیدا أو یقطن طفلة نخیلة . وكان الكونت یعطى كلا منهم مهلة قصيرة، یسمع هنرى لوك فى نهايتها دائما رنينا خفیفا لقطع الذهب . هذا الى أن الاوراق التى كان ینظمها، كانت تكشف له دائما عن وفرة الإحسان الذى یناله الكونت، ومنها مكاتبته مع المستشفيات والملاجئ والمكاتب الخيرية، وجمعیات الرعاية، والمعاهد الخيرية من كل ضرب، ثم الرسائل الخاصة التى یلفت بها نظره الى المصائب الخاصة، وكلها مذيلة بخطه بما یفید أنه ذهب بنفسه لأول دعوة لرؤية المنكوبین الذين وردت بشأنهم، وقدم اليهم الإسعاف السريع، ثم ميزانته، وهى تدل على أن الكونت لا یخصص لنفقاته الشخصية، عشر دخله الذى یتبلغ خمسين ألف فرنك .

وكان هذا الإحسان الذى لا ینضب معینة، هذا الخیر الذى لا تقتر همتة، والذى كان منظره وأدلتة تمثل دائما أمام عینی هنرى لوك، تثير منه بالرغم عنه تقديره بل إعجابه . بید أن عواطفه الشعبية والمادية، كانت تقاوم هذه العاطفة، وتملى عليه أن یحط من قدوة هذا الشریف وبره، فكان

كثيرا ما يقول لنفسه :

« يجب ألا نخدع . ولئن كان المسيودى قنندى يكتفى من دخله بمرتب
وكل قلم ، ويعيش كأحققر الناس ، فذلك لأنه يشتري فى كل عام مقدما ،
نصيبا فى الجنة بمبلغ أربعين ألف فرنك . وفكره هو أن صدقاته لا تعنى غير
ضمان لمستقبل روحه ، وذلك بدفعه ما يدفع فى خزينة شركة للتأمين على الحياة
الأخرى . وهذا مما ينتقص كثيرا من قدره . وإذا نظرنا اليه من هذه
الوجهة ، كانت صدقته حرما ليس غير ، واقتصادا حكيما . ومع ذلك فلنفرض
أنه لا يؤمن بالله ولا يؤمل ثواب الجنة ، ومع ذلك لا يحجم عن بذل كل
ما ملكت يده فى سبيل الخير . لماذا ؟ لأنه يرى فى ذلك لذة لا تنتهى ،
ولأنه يستمرئ الإحسان كما يستمرئ الوصل غيره . فمثلا ليس ذلك الذى
يعشق الحسان اللأئى يشفقن بالترف عجزهم ، وكما أنه يدعم رضاء محال الجواهر
والثياب ، فكذلك المسيودى قنندى ، يدعم رضاء الصيادلة بما يتناع من
أدوية لمعالجة المسالوين والمرضى . والفرق بين الحالتين أن لذته أميل الى
ناحية العقل من لذة العاشق ، وليكنها مع ذلك لذة . وإذا فلا مجال للإعجاب .
ولنذهب الى أبعد من ذلك فمقول إن قانون الاختيار الطبيعى هو الأفضل .
ألا يكون المسيودى قنندى عندئذ آثما بكونه يؤخر الراحة الأبدية لأولئك
المصابين ، وكونه يشجع تناسل أولئك السقام المشوهين ؟ أعرف جيدا أن
النظريات القاسية المتعلقة بتنازع البقاء لا تتفق إطلاقا مع أحلامنا فى المساواة
والمستوى الإجتماعى » .

بمثل هذه السفسطة والسخرية ، كان هنرى لوك يقاوم العطف الذى
كان يشعر به رغمًا عنه ، نحو فضائل المسيودى قنندى . ولعمر الحق لقد
كان يتمنى أن يكشف وصمة فى هذا النقاء ، وعيبا فى ذلك الكمال .
ففى ذات صباح ألقى غرفة الزيارة حافلة بالساعين ، ولما دخل غرفة

الطعام قال له جسيار : إن سيدي الكونت قد انحرف حقا عن جادة الصواب ، فإنه لم يبت هنا الليلة أيضا .

آه . أجل قضى المسيو دى قندى ليلته في الخارج . وكان معتادا على ذلك . ضحك هنرى لوك لذلك سرا وفي سخرية ، وشعر بغبطة خبيثة . أجل كان رجل البر يقضى بعض لياليه في الخارج ، وكانت له كغيره جوانب ضعف رقيقة . ومن يدرى ! فقد تكون له أسرة صغيرة في المدينة لا ييوح بسرهما حتى لا يلوك الناس ذكره ، فهو يخفى أمر زلته الرقيقة . فانزع ثوب الورع ، تكشف المنافق .

ودخل المسيو دى قندى بغفلة وهو محرم العينين مختل الثياب ، فقطع تأملات هنرى لوك الذى قال لنفسه بنخبث : « إن السيد ذابل نوعا . آه » ولكن الكونت جذبه الى غرفته وهو يقول : « عم صباحا ياولدى العزيز . هيا واسرع » .

ثم فتح درج مكتبه ، وكان من أثر اسرافه العديم أنه لا يقفله بالمفتاح ، ثم قال له بصوت مضطرب : « خذ هذه الخنفيات الثلاثة أيها الصديق وأسرع الى مدام جيو ، في شارع مولان دى بيرى پليزانس ، فقد توفى ولدها وهو غلام بديع في الخامسة عشرة ، بين ذراعى ، منذ ساعة فقط . آه ، يالروعة السل ! لقد أنفقت ليلي أمام فراش المحتضر ، وأمه تكاد تجن حزنا . وهنالك البؤس أيضا . فاسرع يا بنى العزيز » .

وهكذا كان المسيو دى قندى ينفق ليالى سروره .

وحدث مرة أخرى أن هنرى لوك رأى عند مقدمه ، الغرف كلها قاتمة يسودها كالعادة دخان أزرق ، فألقى اليه الكونت صندوقا من السيجار لم يكده يفتح وصاح به في لهجة محزنة مضحكة معا : « خذها ولا ترنى اياها بعد حتى لا أقع في شرك الإغراء ، ولقد أقسمت ألا أدخن بعد ... أجل خذها » .

انى أعرف أنك لا تدخن . ولكن خذها لأصدقائك ؛ أما أنا فلن أحرق في حياتى سيجارا بعد . ولقد عاهدت نفسى على ذلك منذ الذى رأيته بالأمس عند هذه المرأة المنكودة ... تصور أرملة لها ولدان تربيهما ، وليس لديها ما تعيش منه غير الخياطة من الصباح الى المساء ، وكل ما تكسبه خمسة وسبعون فلسا ، أعنى بالضبط ثمن واحد من هذه السيجارات . وأما أنا فأدخن منها خمسة أو ستة فى اليوم . خذها . خذها ، فان تراها بعد هنا ، وأعاهد الله على ذلك » .

وكان لوك يقول لنفسه : أيفعل ذلك مدخن مثله ؟ إنها بطولة ، بيد أنه لن يستطيع صبرا .

على أن المسيو دى فئدى ، بعد أسبوعين من المعاناة كان فيهما يحرك يديه العصبيين دائما ، استطاع أن يتغلب على نفسه ، وأن يضحى ببلذته الأخيرة فى سبيل الفقراء .

وهكذا كان هنرى لوك يقلل من غمطه واتهامه لمخدومه ، ونأسره خلاله الودية الأبوية ، حتى حدثت أزمة فى حياة القى .

ذلك أنه استطاع بمرتبته وما يكسبه من بعض الدروس ، أن ينفى بحاجات نفسه . وقد غدا أقل جفاء مذ غدا أقل بؤسا ، فلم يعد كما كان فى الماضى يباعد رفاقه فى المدرسة ، بل عاد فعقد معهم أو اصر الصداقة المقطوعة ، وأخذ معهم يغشى المقاهى ونوادى اللهو . وكان معظمهم من أسر ميسورة ، ينفقون المال فى بسطة ؛ فكان هنرى لوك ، وهو بطبيعته متكبر معتز بنفسه ، يجارهم ويسابقهم فى الإنفاق ، وينفق فى ليلة واحدة ما يكسبه فى أسبوع كامل ، وكان يعالج هذا الأسراف أولا بالانقطاع أياما يكتفى فيها بالضرورى . ولكن الأمور ساءت فيما بعد .

إن الكبير والزهو لا يتلازمان دائما . وقد يكون الكبير مشروعا أحيانا ،

بل نبيلًا ، أما الزهو فهو دائماً وضع حقير ؛ ولكنهما كانا يمتزجان في شخصية كهنرى لوك لا تقوم على قاعدة أخلاقية . فإن القى المغرور يتوهم أنه خصم للعالم ، وإن لأصغر أعماله أهمية كبرى . وقد كانت العزة تدفع هنرى لوك الى مجاراة رفاقه ، وإلى انفاق ما لم يستطعه ، فاستدان ، ثم تفاقم الضيق من حوله .

ثم كان شبابه يطالب بحقوقه ، ويضطرم بعنف بعد عهد البؤس والحرمان الذى جازه ، فكان يعيش عندئذ فى جماعة من المرحين الهائمين الذين يتمتعون بشبابهم ، بأسلوب مبتذل بلا ريب ولكن ناجع ، فكان فى ذلك قدوة دائمة واغراء مثيرا لهنرى لوك ؛ وكان بوسعه أن يظهر فى المقهى الذى اعتاد أن ينفق فيه سهراته مع رفاقه الأحداث لأنه كان أوفرهم ذكاء وعلماء ؛ وكان تفوقه أمرا مسلما به من الجميع ؛ وكان يستطيع دائماً أن يدفع شرابه لأنه كان يسدين فى نواح أخرى ، لدى الخياط وصاحب المطعم وغيرهما . غير أنه كان يرغم ، حين تأتى ساعة اصطحاب الفتيات والخليسات ، على الانسحاب والفرار ، وكان يأس لذلك سخطا وذلة ، وتجيش أهواؤه اذا ما خلا الى نفسه ؛ وتحفزه أشنع ضروب البغض والحقد على الأغنياء والسعداء .

وكان فى غدوات هذه السهرات ، حينما ينظم أوراق المسيو دى فندى ، يراه يستخرج النقود للصدقات من درج بغص بالذهب والأوراق النقدية ، فتمايكة لذلك ثورة من الغيظ ويقول لنفسه :

« وهل ترانى مع ذلك أعجب به ؟ ولماذا ؟ لأنه يستطيع أن يعيش كما يهوى ، إن الفضيلة ليست إلا كلمة جوفاء . والحقيقة هى أن الرجل يبحث عن سعادته ما استطاع ، ويغترفها أينما وجدت ، ومن فاز منها بالقليل أينما وأنى كان ذلك ، فهو رجل ممتاز ؛ وإن السيد لرجل أنانى ، فهو لا يلاحظ

قط أن الضحجر ينهشنى ، وانى أذوب حياء وحشمة ، ولا ينفحنى بحفنة
من الذهب ويقول لى : اذهب فاله وامرح ! ثم أعجب به مع ذلك ، ألا تبأ !
وكان الفتى المنكود هنالك ، فإذا بقاء امرأة ، يلقى بحياته وأفكاره الى
هاوية سخيفة من الاضطراب .

كانت الحسناء كلو — وهو مصغر غرامى لكلوتيد — شهيرة فى الحى
اللاتينى وبحق ، لأنها كانت رغم نشأتها فى الريف وبدئها الحياة عاملة
فى مصنع للثياب ، ذات قد رومانى ، وكانت تتمم بذلك الجمال المزدهر
الثقيل ، ذات عينين واسعتين تفيضان بأحلام الشهوة ، وشعر فاحم السواد ،
وجبين غبى متكبر على قول موسيه . ولو كانت هذه المخلوقة التى صوّرت
كما شئت ووهبت خلال الغانيات الكيبرات ، قد وهبت قليلا من الذكاء
وحسن الطالع ، لأفنت ثروات كيبرات ، ولكنها أرغمت على الاقتناع بالتهام
نقود بعض الطلبة ، وكان آخرهم طالب حقوق يابانى أنفق عليها آخر دراهمه ،
حينما انتابتها نزعة بخائية ، حملتها على مغادرة غرفة الأسيوى الوثيرة ، الى غرفة
هنرى لوك الحقيمة .

وكان ذلك التوفيق الذى ناله الفتى بوسامة وجهه النحيل ولحيته السوداء
الصغيرة قد أضاع صوابه ، وسرعان ما علم أن حب غانية ولو مجردا إنما
يهبط الفقير مع ذلك ، وإنه لمبھظ أيضا أن تحب لنفسك . ولكن كلو كانت
أكثر عقلا وروية ، فلما أن أتمدت نزعتها حتى أرادت أن تفارقه بعد
أسبوعين . ولكن ذلك المنكود الذى أضرمته حبا وزهوا ، انفجر فى عاصفة
من الغضب والغيرة ، وحملتها أيضا بادرة من الرقة ، فلم تجرؤ على مغادرته .

وانحدر هنرى لوك الى هاوية الدين وغدا مدينا لجميع رفاقه بمبالغ كبيرة ،
ولم يدخر وسيلة للحصول على المال ، حتى أضرب جميع المرايين عن إقراضه ،
ولم تبقى له كلمة عند الوسطاء والسماسرة الذين باعوا له كل تحفة أو سلعة

ذات قيمة . فكيف إذا يحتفظ بهذه المرأة التي كان ثملا بهواها ؟ ولم تكن
كلو تميل بلا ريب الى عيشة الهوى والفاقة ، وكانت قد بدأت تتذمر
وتسخط ، وكاد هنرى لوك يفقد الرشاد .

وفي ذات صباح قالت له كلو بصوت جاف يفيض بالوعيد : « تعلم أن
ليس لى حذاء بعد » وبعد أن أدى هنرى لوك عمله لدى الكونت دى فئدى
كالعادة ، وبعد أن شيع الكونت آخر زواره ، قال لسكرتيه : « إن أتغذى
اليوم هنا خلافا للعادة يا عزيزى لوك ، فأرجوك قبل ذهابك أن تردّ على
الخطابين اللذين تركتهما على مكنتي » .

ولما انصرف الكونت دخل هنرى لوك الى قاعة المكتب ليأخذ
الخطابين . وكان المسيو دى فئدى ، فى إهماله العادى ، قد ترك درجه نصف
مفتوح ، ورأى الفتى قطع الذهب تلمع فى قاعه . وكان يعرف من تجاربه
أن « السيد » قليل العناية والنظام ، وأنه يخطئ ضبط الأرقام بسهولة ...
وسرى اليه الإغراء !

ووثبت الرغبة المروعة الى رأسه ، مفاجئة صاعقة ، وخفق قلبه بشدة .
وأسفاه ، علام يقوم الشرف ؟ أنه لسقيم ضئيل . ولقد كان هنرى لوك
ولد أبرين فى منتهى الشرف والأمانة ، وربته أم عفيفة عزيزة النفس .
وكان هو الى اليوم الذى غزا فيه هذا الحب السافل حياته ، دائما كثير الحرص
والدقة فى مسألة النقود . ولكن ضميره تحطم فى لحظة كقتضيب الحديد
إذا تحلته قشه . ولم تكن له سوى فكرة واحدة ، هو أنه بقليل من ذلك الذهب
يستطيع أن يستبقى خليلته . وفى أيام قلائل يسعى بأية وسيلة الى رد المال
المسروق ، أستغفر الله بل الذى افترضه ، من ذلك الغنى الذى يبعثه من صميم
قلبه ، والذى لا يلاحظ شيئا ! .

فتناول ثلاث قطع من ذات العشرين فرنكا ، وركض الى الحسنة كلو ،

واشترى لها حذاءها .

وبعد ذلك بثمانية أيام ، أخذ جنبيين آخرين بعد أن فتح درج المكتب بمفتاحه الذى يتركه الكونت فيه دائماً ؛ بل كان السقوط سريعاً مروعاً ، لأنه لبث مدى بضعة أسابيع ، يتناول فى خفه وجنة من مال ذلك المخدم الوائق ، وذلك الأب البار .

بيد أنه حينما دخل ذات صباح الى غرفة الكونت ليتلقى أوامره ، اذا بالكونت يقف أمام المدفأ ، ويقول له بصوت هادئ مكتئب : أرجوك ياعزيزى لوك أن تغلق هذا الباب ، فسأحدثك فى أمور خطيرة .

فمرت السارق رجفة مفاجئة ، تلاها عرق بارد ، وشعر بنحore يختنق اختناقاً مروعاً ، كأنما عصرته يد قوية .

وقال الكونت ببطء : لقد علمت أنى أسرق . وإنى لمعتاد كما تعلم ألا أغلق هذا الدرج ، وهى عادة سيئة أندم عليها اليوم ، إذ يجب ألا يغرى المرء أحداً ! غير أنى مهما كنت من الإهمال ، فقد لاحظت منذ أكثر من شهر أن النقود التى أضعها هنا تذهب بسرعة ...

ثم قال إذ رفع لوك يده : أرجو ألا ترتاع ، واتركنى أتم القول ؛ لقد أودعت منذ ثلاثة أيام هذا الدرج مبلغاً معيناً من الذهب ولم أمسه ، ولكنه نقص بالأمس جنبيين . وإنى لأسرق بلا ريب ، وإنى لأصرح بأنى أشك فى جسدبار ، فقد اضطربت أحواله منذ حين وأخذ يشرب بل هو هذا الصباح ثمل من الأيسنت . وتالله لقد عجبته أن يسرق هو مالى ، وقد أنقذت حياته فى ميدان الحرب وحملته جريحاً على ظهرى خلال رصاص الألمان ! أليس من حقى يا بنى العزيز أن أكون بلا رافة ؟

ولا ريب أن الفتى المنكود لم يكن يتوقع هذا الإستنتاج . ولكنه كان أبعد من أن يرتاح إليه ، بل ضاعف روعته بالعكس ، لأنه لم ينزل الى ذلك

الدرك من النذالة، ليرتضى أن يعاقب أحد عن جريمة ارتكها هو . ففقد صوابه وارتجفت ساقاه ، وغلى دمه ، فاستند الى المكتب ، وصاح بصوت متهدج رنان :

« إن جسيهار برئ يا سيدي الكونت . وكفى نذالة ! فأنا ، أنا الذى أخذت من هذا الدرج تباعا ثلاثين جنيها ! ... أخذتها من أجل امرأة . وقد فقدت الصواب فافعل بى ما شئت ... »

فلم يتحرك المسيو دى فندي ، ولكن محياه الوديع الساحر ، امتقع امتقاعا مروعا ، وقال بصوت أجش :

« لقد كنت واثقا ، فإن جسيهار أنحى من الرضاع وأعرفه منذ الحداثة فهو الأمانة ذاتها ... ولكنى كنت الآن أضع لك شركا ، وقد سرى عني إذ رأيت أنك لم تنزلق بعد الى قاع الهاوية . وإذا ، فقد سرقت أيها الفقى المنكود هذا المال ، مال الفقراء ! أنت وأنت ذهن رفيع ، ورجل علم وفكر تشعر بكل فظاعة عملك . آه ترانى أستطيع بلا ريب فى هذه اللحظة أن أسحق كل نظرياتك الفارغة الكاذبة ... ولكنى اعترمت ألا ألقى عليك درسا عقيما فى الأخلاق ، بل رأيت ما هو أفضل ... فاجلس هنالك واكتب ما أملية عليك ... وأطع طاعة مطلقة وإلا أرسلت جسيهار فى طلب البوليس » .

فارتدى هنرى لوك فوق كرسي أمام المكتب وقد سحقه الخزي والعار ، وتناول قلما بيده المرتجفة .

وأملى الكونت بلهجة الأمر :

« أنا الموقع فيه أدناه أعترف أنى قد سرقت مبلغ ستائة فرنك من الكونت دى فندي الذى كنت سكرتيرا له ، وأقرر أنى مدين الى كرمه بأنى لم أسلم الى العدالة ... » .

ثم قال الكونت أرخ الورقة ووقع ، وأعطى إياها .

كتب الفتى المسكين اعترافه بخط مضطرب ولكن واضح . وتناول
المسيو دى فئدى الورقة وقراها بعناية ثم طواها ووضعها فى محفظته . ثم حذج
هنرى لوك مليا ، وقد نهض وخفض رأسه ، وصوب عينيه نحو الأرض ،
وأخذت أسنانه تصطك كرجل عراه الزمهرير .

ثم قال الكونت أيضا بلهجة جافة امرأة : أجبني ، هل عليك ديون ؟
وما مقدارها ؟

فلم يجد هنرى لوك جوابا على هذا السؤال الفجائى ، ولكن الكونت ألخف .
قائلا : كم ديونك ؟ قل أتبلغ ألف فرنك ؟ »

فانتهى الطالب الى التعالم وقال : أجل يلوح لى أنها تبلغ حوالى ذلك ...
فتناول الكونت من محفظته ثلاث ورقات مالية كبيرة ، وقال :
إليك ألفا وخمسمائة .

فذهل الفتى وبدرت منه صيحة مخنوقة

فقال الكونت : « اياك والشكر . وإنى لأحظر عليك قطعاً أن ترد الى
ما سرقته وما أعطيك اياه اليوم ، ومن حق أن أحظر عليك ذلك . وإنى
لأجرب فيك تجربة بسيطة ... فلو أنك تندم على ما فعلت ، وتعود الى العمل ،
وتسير فى المستقبل سيرا حميدا ، فعندئذ أكون قد أنقذتك وأكون راضيا ...
ذلك لأنى كنت أشعر بخوك بعاطفة صداقة ... ولست بعد اليوم سكرتيرى ،
ويؤلمنى أن أراك ثانية ... ولكن ها أنت قد حررت من ديونك بقليل من
المال لديك ، وفى وسعك اذا شئت أن تعود فتغدو رجلا شريفا ... ولكن
حذار فقط من هذا : إنى سأتابع حياتك ، فاذا نمت الى عنك عمل أعتبره .
سيثما ، وأرى الحكم عليك من أجله ، طبقا لوجهة نظرى ومبادئ الأخلاقية ،
فاذكر أنى أملك وسيلة لإهلاكك ، وسأقدم على هلاكك ... واذا فقد اتفقنا .
انى أصفح عنك اليوم ، ولكن اذا ظهر أنى قد أخطأت فى هذا الصفح ،

«واذا ارتكبت ما اعتبره أنا سيئة، فإني سأجرى القصاص يومئذ»
ثم قال الكونت بعد صمت قصير وهو يصرف هنرى لوك بإشارة :
«والآن فاذهب واجتهد فى أن تقوم اعوجاجك»

٣

ومضت عشرة أعوام

رفعت جلسة النواب، وأخذ النواب يغادرون قصر بوربون . وكان
شفق نوفمبر القصير ما يزال يثثر فى لمحات باردة فيما وراء التروكاديرو، وكانت
مصباح قنطرة الكونكوردي قد أخذت تسطع بنورها الذى كأنه أخضر إزاء
زرقة السماء .

وكان هنرى لوك، الخطيب الفقى المفوه لجناح اليسار المتطرف، يودع
بعض زملائه وأصدقائه السياسيين ، فى زاوية « كى دورسى »، وكان رافعا
عنى معطفه لأن البرد كان ينهمر، وهو يصباح أصدقاءه من حوله .
فقال له رئيس جماعته لوى ماتياس، ذلك الزعيم الأشهر الذى أسقط
غير وزارة والذى تعرفه باريس كلها : نستطيع إذا يا عزيزى لوك أن نعتد
عليك . فغدا متى جاء دور المناقشة فى ميزانية التعليم الدينى، فإن بارال يفتتح
الحملة ويطلب إلغائها، ثم تطلب أنت الكلام .
فقال هنرى لوك : لقد اتفقنا .

وهنا قال ديفيم وهو صحفي صغير القد، يضع نظارة مفردة على عينه :
هل أستطيع أيها الاستاذ العزيز أن أذيع هذا الخبر فى عدد الغد من
«حقوق الانسان»؟

أجاب هنرى لوك : بلا ريب .

وقال لوى ماتياس بصوته الخبيث الخاف : آه لو استطعنا هذه المرة أن
نقطع المؤن عنهم وأن نعمل «الكونكوردي»... ذلك لأن هذه الجمهورية الغبية

لتي تعيد كل أطلال «الفصلية» ، وتسير في أثربوناپارت . ولقد أكد
ن نواب الوسط الذين لا يفكرون إلا في إعادة انتخابهم ، قد زعنوا .
هر أن ريجا شديدة من المعارضة لرجال الدين تهب اليوم على الأقاليم...
تمد عليك جل الاعتماد يا عزيزي لوك ، فآه لو ظفرت بالأغلبية ! »

فقال هنري لوك ، وهو يغادر أصدفاه : « لا تخشوا بأسا فسا بذل كل
وسعى وأعدكم أن أكون شديدا ، كيسا في نفس الوقت . ولقد
ت منذ الآن أسس خطتي ، وسأحبس نفسي في غرفتي عقب العشاء ،
م نقط جدلي ، فاطمئنا ، والى الغد » .

ثم ابتعد الخطيب الفتي بخطوات مسرعة . وكان أمين المسيو دى فندي
ديم كما نرى ، قد شق له خلال الأعوام العشرة طريقا بديعا في الحياة .
ارع القول أنه شقه بعمله وكفائته بمنتهى الشرف والنزاهة .

كان الدرس الهافل العادل معا ، الذى عانا هـنرى لوك ، يوم اضطر نزولا
امر الكونت ، أن يكتب وأن يوقع اعترافا بزلاته الأثيمة ، كافيلا أن يردّه الى
ق الرشاد . ولم يك ريب في أن ذلك الفتي الذى كانت وفرة ذكائه وعزّة
ه ، تحتم أن يكون شريفا الى الأعماق قد ارتكب جرما . لا يغفر . ولكنه
، يومئذ قد دفع الى ذروة البؤس والجوى ، ثم غلبت عليه شهوة جسمية ،
كب ما ارتكب في غمرة من الحمى ، وفي نوع من فيض المرض المعنوى
ن تغلغل في نفسه ، ومع ذلك فلم تكن حالته تدعو الى اليأس ، بل كان
ه الذى تجرع كأسه الى الثمالة ، له علاجا شنيع الغضاضة ، عنيقا ناجعا معا .
غادر هنرى لوك منزل الكونت دى فندي كرجل يفر من لهب الحريق
نر لحظة ، وقد احمر شعره واشتعلت ملابسه ، ولكنه ما زال يخشى النار .
بـر خليلته ودفع ديونه . وقطع علائقه مع كل رفاقه ، وارتد الى العمل ،
مس فيه كما ينغمس في بحر من النسيان ، فلم يمض عام حتى جاز امتحان .

اللباسانس ، وكان الأول في مسابقة العالمية . ثم عين استاذًا في مدرسة ثانوية في مدينة من أعمال الشمال الشرقى ، فغادر باريس التي غدا يبغضها والتي عانى فيها وزلت قدمه ، بصيحة الفرح ، وتنفس الصعداء كأنه سجين يفر من سجنه . وعاش في الريف فتي وافر الإستقامة ، يذهب في الجرد والتحفظ الى أبعد مما يجب ، لا يطرب ولا يرقص ، لا ترغب فيه الفتيات ، ولكن ترغبه الأمهات جميعا زوجا لبناتهن ، ويذكره الآباء قدوة لأبنائهم . وكل ما هنالك أن البعض كانوا يأخذون عليه آراءه المتطرفة في السياسة والفلسفة ، ولكنهم جميعا كانوا يشهدون بأنه لا يرسلها الا اذا دفع الى ذلك ، وانه يرسلها في أسلوب جم الهدوء والأدب .

ولم تكن هذه المظاهر الشريفة خادعة ، ولم تك ثمة لحظة من الرياء في سلوك هنرى لوك ، فقد كان عوده الى الخير صادقا ، ولم يكن يطالب شيئا من الحياة بعد ، بغير الواجب والعمل ؛ وما كان يذكر زلة شبابه الأول ، وسقوطه القديم — وكثيرا ما كان يذكرهما — الا في غمرة من ألم النفس ووخز الضمير ، ولكن يرد اليهما دائما نهوضه من عثرته . ولم ينس شيئا أو يغفر شيئا ، بل كان يرى بالعكس أن واجبه أشد في أن يعيش حياة نقية طاهرة لأن في ماضيه وصمة خفية ولأنه كان شديد الإثم .

غير أن عاطفة سيئة كانت تجثم في قرارة هذا القلب المستقيم الفقير ، أو بالحرى كانت تنقصه العاطفة الطيبة . ذلك أن هنرى لوك لم يكن يشعر بعرفان نحو الكونت دى فئدى مع أن الكونت عامله بكرم وافر ، ففعا عنه رغم استطاعته أن يعاقبه ، وأمدده أيضا بوسيلة يسترد بها شرفه وسلامه . بيد أن الأستاذ الفتي كانت تعروه كتابة كلما ذكر مخطومه القديم ، أفلم يستكتبه ذلك الإعتراف ، ويهبه ذلك المال كما توهب الصدقة ؛ ويحظر عليه رده ؟ فياله من نحزى ! أجل ، كان هنرى لوك يشعر أن في ذلك ما يعكر صفاء حياته

الى الأبد، ويدبل الأزهار فى نظره، ويحجب الشمس عن عينيه .
وكان يقول لنفسه أحيانا «انى سخييف ظالم، فقد أحسن المسيو دى فندى
صنعا، وكان له بل كان واجبا عليه أن يذلنى وأن يلقى على هذا الدرس وأن
يتخذ ضمانا للمستقبل ، وقد أسدى بذلك الى أجل يد . أما هذه الورقة ،
فأعرف أن الكونت لا يفكر فى استعمالها أبدا، حتى ولو انحرفت عن طريق
الاستقامة، ولولم أسلك سبيل القدوة . أجل ، انى مخطئ مائة مرة ،
وجاحد، فقد عاملنى المسيو دى فندى فى هذا الظرف معاملة رجل وافر الشهامة
والمروءة» .

ولكن ذكرى الرجل الهمام المحسن ، بقيت رغم كل ذلك ، ترتبط دائما
فى ذهن هنرى لوك بعمله السيئ ، وتشير فى نفسه مر الألم .
وكان الأستاذ الفقى أثناء ذلك يتقدم فى منصبه ، وينال كل ضروب
النجاح فى القاء دروسه فى البيان . وقد ألفى أنه يملك موهبة الخطابة، فهذهبا
ونماها ، وبدا له مستقبل التعليم بساما . ولكن مصيره تحول بقاءة الى قبلة
أخرى .

ذلك أنه كان يتردد على منزل صديق له ، صاحب مصنع ، من كبار
المدينة، ورب أسرة كبيرة . وكانت ابنته الكبرى ذكية، محتشمة، حسنة .
وكانت تروق جدا فى نظر هنرى لوك، فأسرا اليه أن الفتاة — واسمها الآنسة
إيميه — تنظر اليه بعين الرضى أيضا . وكان مهرها صغيرا، لأنها كانت ذات
أخوة وأخوات . ولكن هنرى لوك، ألفى دون قصد، فى هذا الزواج المرغوب
الزىه ، نجمه يتألق . فقد كان حموه دائما يشتغل بالسياسة، وله فى المقاطعة
نفوذ كبير فى جماعة الناخبين . فلما خلا فى مجلس النواب كرسى من دوائر هذه
المقاطعة، رشع صهره، فانتخب نائبا عن هذه الدائرة، وجلس فى صف اليسار
الراديكالى، وألقى ذات يوم خطابا أبدع فيه عن القوانين المدرسية ونظم التعلم،

فعدّ بين كبار الخطباء .

وغدا هنرى لوك فى سن الثلاثين ، أعنى حيثما نعود إليه ، علمنا —
وليفغفر لنا التشبيه — فى الحقوقة البرابنية التى تتألف ، كما يعلم الناس جميعا ،
من جماعة من رعاى المهرجين . واستحق ببرايعته وإخلاصه وثباته ، لقب الفنان .
الحق . فلما جاء دور المعركة السنوية التى يثيرها أنصار الفصل بين الكنيسة
والدولة ، وذلك بمناسبة النظر فى ميزانية المعاهد الدينية ، عهد حزب اليسار
الراديكالى الى الخطيب الفقى بالدور الأول . وكان مقتررا أنه اذا سقطت
الوزارة على أثر الاقتراح بعدم الثقة بها ، أن يتولى هنرى لوك وزارة المعارف
فى الوزارة الجديدة . فكان هذا الأمل يذكى طعمه ويملق خياله ، فيتصور
أنه يعد فرنسا للمستقبل ، ويقود الشباب فى طريق علمى محض . وكان من
أثر الجامعة أنه يؤمن بالفضيلة رغم ضلالة عصمتها ، ويؤمن بالمناهج والخطط ،
ومن أثر مبادئه العقوبية أنه يعتقد امكان اخضاع الأفكار الى النير المطلق ،
ومن أثر مبادئه المادية أنه يتنى أن يجيب العلم عن كل خفايا الحياة وأغاز
الطبيعة .

سار هنرى لوك ، وهويتلو عبارات الخطاب الذى يؤمل أن يكون
ضربة قوية لرجال الدين والأفكار الدينية ، حتى وصل الى رصيف فولتير
حيث يقطن ، فألقى زوجه الفتية أمام المهده الذى ينام فيه الطفل الذى رزقاه
من عامين ، وهنالك أمام هذا المنظر الطريف المؤثر ، نسى الخطيب الفقى
مدى برهه أنه يجب عليه أن يسحق الدين غدا . فلما أغلق الطفل عينيه ،
وجلس الزوجان الى مائدة الطعام ، لم يتناول هنرى لوك سوى اليسير من الطعام
لأن خطابه كان يملك عليه كل فكر وكل رغبة . وكانت زوجه ترمقه باهتمام
صامتة ساحرة لأنها كانت تعبه وتعجب به . وكانت ترى أن الغاء معاش
الأساقفة والكهنة ضرورة لابد منها ، مادام زوجها يراها بمثل هذه الحرارة .

فلما انتهى العشاء تصفح هنرى لوك صحف المساء، فألفاها كلها تنبؤ
عن خطابه، وترى فى تدخله فى جلسة الغد حادثا جوهريا . وكان يجلس
عندئذ بجانب النار، ويستنشق دخان المجد، ويرى من خلال باب الغرفة
المفتوح زوجه الفتية فى غرفة النوم تروح وتغدو حول مهد ولدها، وتعنى
بزيئها الليلية، وعلى مقربة منه كتبه المفتوحة وأوراقه المنتشرة، يتصفحها على ضوء
مصباح كبير، ويفكر الى أى حد كان ذلك المثوى الهادئ، وتلك الدعة
العائلية، نفيسين فى حى السياسة والخطابة التى يجوز غمرتها، ويهمس لنفسه
بأنه سعيد .

وجعل هنرى لوك يقطع الغرفة جيئة وذهابا، وهو يردد فقرات خطابه
بصوت منخفض، ثم يجلس أمام مكتبه أحيانا ليراجع نصا قانونيا . واستغرق
فى تلك الحال مدة طويلة، وإذا بالخادمة تفتح الباب بعد أن قرعته مرارا
دون جواب، وتقدم اليه بطاقة زيارة لسيد، قالت إنه يلح جدا فى رؤيته
رغم تأخر الوقت .

فتناول البطاقة بفروغ صبر وألقى عليها نظرة، وسرت اليه رجفة أثلجته
حتى فؤاده حينما قرأ عليها اسم المسيودى فندى .

ذلك لأنه رأى فى قدوم ذلك الرجل، وهو الشاهد الوحيد على خزي
شبابه، وظهوره أمامه بقاء، وهو فى ذروة السعادة والنجاح، نذير شؤم أسود .

فقال لخادمتيه بصوت متهدج : «أدخليه» .

فدخل المسيودى فندى . ولم يكن قد تغير كثيرا شأن كل أولئك الذين
يملا حياتهم عمل موحد، وتنظيمها عادات ثابتة . ولم تفعل الأعوام العشرة
سوى أن حنت قليلا، قوامه الطويل المشقوق . ولم يكن يبدو فى ظل الغرفة
التي لا ينيرها سوى المصباح المحجب، أن الشيب قد وخط لحيته الشقراء،
ولم يكن أكثر عناية بثيابه مما مضى . فلما حياه هنرى لوك ودعاه الى الجلوس

بإشارة ، شبك ساقيه الهزيلتين ، ووضع قبعته القديمة الباهتة على منضدة قريبة ، ورأى هنرى لوك أخيرا مخدومه القديم فى نفس هيئته يوم فراقهما المشؤوم . وحجج الكونت النائب بنظرة ساطعة نافذة ، وقال : أعذر أولا عن قدومى فى هذه الساعة المتأخرة ... ولكنى علمت منذ قليل فقط وأنا أتصفح جريدة مساءية ، بالحادث الذى يحلنى على زيارتك ، وسوف ترى حالا أن مسعاى لم يكن يحتمل التأجيل .

فأخفى هنرى لوك انفعاله بجهد وقال : مهما كان الباعث على قدومك ياسيدى الكونت ، فأؤمل أن تثق ، أن قدومك لا يمكن أن يثير فى نفسى غير عواطف الاحترام العميق والعرفان الخالد .

فقال الكونت : أجل ، ولكنى سعيد اذ أسمعك تصرح بهذا ، لأننى جئت أتقدم الى هذه العواطف ... غدا فى مجلس النواب تجرى المناقشة فى استجواب لأحد زملائك ، وسيطلب أن تلغى ميزانية الشؤون الدينية ، وقد علمت من الصحيفة التى قرأتها أنك ستلقى بهذه المناسبة خطابا قد يؤثر تأثيرا عظيما فى اعطاء الأصوات ، ويجعل هذا الإلغاء أمرا محققا . فهل أجزؤ أن أسألك عما اذا كان هذا النبأ صحيحا ؟

فأجاب هنرى لوك جزعا لهذا السؤال : أجل هو صحيح . ومع ذلك فانى أبعد من أن أعتقد أن تدخل فى المناقشة ، يؤدى الى مثل هذه النتائج الحاسمة أو أن خطابى ...

ولكن المسيو دى فندى قاطعه بصوته الثابت قائلا : « لا فائدة من ابداء التواضع يا سيدى ، فانى أعرف مقدرتك الخطابية ونفوذك فى البرلمان ... وانى لأصل الى الغاية من زيارتى . إن كسرة الخبز هذه التى تعطيها الحكومة فى شح الى الكهنة ، والتى ليست فى الواقع كمرتب الموظف بل هى تعويض عما نزع بغير حق من أملاك رجال الدين ، لا يمكن الغاؤها دون أن يصاب

التعليم الديني في فرنسا بكثير من الضرر . هذا هو رأيي الثابت . واعتقادي ، سواء أخطأت أم أصبت ، أن إلغاء الميزانية الدينية إنما هو نكبة للكنيسة وللدین ، وقد تحققت أن خطابك قد يجعل بوقوع هذه النكبة ... ولعلك تحزر الآن ما جئت لأجله من رجاء ... فتغيب غدا ، أو امتنع عن الإشتراك في مناقشة غدا ، وعندئذ تبرهن لي بأشد مما تعتقد على قيام هذا العرفان الذي تقول إنك تشعر به نحوى ... ثم أجبني بلا مواربة يا سيدى ، هل أستطيع أن أنال منك هذا الرجاء أم لا ؟ » .

ولنقل إن الكونت دى فندى ، وهو يتقدم الى هنرى لوك بهذا الرجاء . ويطلبه بهذه اليد ، يحمله اضطرام رغبته وصراحة خلقه ، قد أودع عبارته مع ذلك ، أو على الأقل أودع لهجة طلبه ، كل ما يحويه الأمر من قوة . وشعر الفتى بذلك ، وأثلجه الحزى . وأدرك أيضا لأول وهلة أن الكونت كان دائما يزدريه غاية الزارية ، اذ يقترح عليه صراحة أن يتزل عن ضميره . وتوقع أن تنقض عليه العاصفة ، ولكنه حاول مع ذلك أن يلجأ إلى المداراة والرجاء .

فقال : « انى أشكرك يا سيدى الكونت على أنك لم تشر إلى سلوكك الجواد نحوى إلا بهذا التلميح البسيط . على أنه لم يكن عبثا . فإن المذنب الذى أنقذته من العقاب ، قد بذل كل ما فى وسعه ليصلح نفسه ، وأجرؤ أن أقول إن الذى يحدئك اليوم إنما هو رجل شريف يتقدم الى ولائك ويترك اليك الحكم على موقفه . انى ، وقد كنت دائما كما تعلم ، نصير للفكر الحر . وهذا الإلغاء لمعاشات الكهنة الذى ترى فيه أنت هزيمة للدين ، فى نظرى فوز للتقدم . فلنسلم بأنى مستطيع أن أحدث هذا الفوز . فهل انت ، وانت الجندى ، الذى يقترح على الفرار من الحرب ليلة الموقعة ؟ . كلا ، انك لن تطلب الى ذلك ، وانك لن تأمر رجلا رده شهامتك الى طريق الشرف ،

أن يغادر هذه الطريق الى الأبد ! . أفسم لك أنى لا أفكر فى هذه اللحظة فى اطاعى وفى مستقبلى . وان أردت برهاناً على حسن نيتى فقل كلمة ، أقدم استقالة وأعتزل الحياة السياسية ، ولكن فقط بعد أن أقوم بواجبى . أما فرارى غذا فهو الخيانة . وإذا لم يكن من سبيل لإرضائك غير أن أبدو خائناً فى عين حزبى ، فانى لقابل أيضاً . ولكنى أبى لإرضاء لضميرى ، ولكى لا أحمله مهانة ومذلة . هكذا غذا المكود الذى أدركته عند هاوية الجريمة . إن إبائى إنما هو من صنعك ، ولست بمستطيع أن تلومنى عليه . لقد غبت عن بصرك بفوهات تطوّرى الخلق . وفى الإقتراح الذى عرضته على عميق ازدراء لى ، وإبنى برفضه لأرغمك على تقديرى » .

وكان هنرى لوك وهو يتحدّث كذلك ، قد باع حدّ الإضطرام . وكان عندئذ قد وقف أمام المسيو دى فندى . ولكن الكونت لبث هادئاً ، مشبكاً قدميه دائماً ، وهو يصغى اليه باحتقار .

قال : « أتحدّث عن الشرف ... والواجب ... والضمير ... والذمة ! إنما عبارات حسناء رنانة تحدّث أثرها دائماً فى الجماعة البرلمانية . وأرى فى الواقع حقاً ما قيل لى عن فصاحتك . ولكن من سوء طالعك أننى لا أستطيع أن أرتضى هذه الكلمات الضخمة ثمناً ، إذ لى دليل كتابى موقع بيدك على أنه لم يكن من حقك دائماً أن تذكرها . أجل إنى أعرف أنك منذ افتراقنا قد سلكت الطريق السوى . وقد كان صديقنا المشترك المسيو برتييه الذى كنت أسأله عن سلوكك من وقت لآخر ، يحيطنى علماً بجيأتك . ولكن ألا بالله قل لى من الذى أنقذك من السقوط ؟ هو أنا . وإذا فاذكر أنك لا تستطيع أن تبدو فى ثوب الرجل الشريف إلا باذنى . إنك تتحدّث عن الواجبات . فأقدمها وأقولها بالنسبة اليك هو شكر الصنعة للرجل الذى أنقذك . وأنت الآن لا تصغى الى صوت الشرف ، وإنما تصغى

الى صوت كبيرائك ... بيد أنه يجب ألا نضيع الوقت في الجسد العقيم .
إني أريد ألا نتكلم غدا في مجلس النواب ، ولن نتكلم . وهذا أمر ألقيه
إليك ، فاذا جرؤت على مخالفته ، فاعلم أنى سأنشر عندئذ تلك الوثيقة التي
أملكها ، والتي تعترف فيها بأنك سرقت بعض المال من درج مكتبي كما
يسرق الخادم .

فصاح هنرى لوك بصوت مخنق : أنفعل ذلك ؟

وعندئذ نهض المسيو دى ثندى وأخذ يقطع الغرفة بخطوات كبيرة ،
ثم قال : ولماذا لا أفعل ؟ إنه عمل غير محمود بلا ريب . ولكنى أخدم به
غاية أسى . إني نصرانى وكاثوليكي كما أنك ملحد ، وليس عندى غير هذه
الوسيلة لإرضاء عقيدتى ... ثم حدق اليكوت فى هنرى لوك — وكان قد
ارتقى على كرسي — وقال : بل هدئ روعك ، فلست أريد إهلاكك .
وفى الإستطاعة تصريف الأمور . ألا يمكن مثلاً أن تصاب هذه الليلة
بانحراف طارئ فلا تستطيع الخروج غدا ؟ لاحظ أننى لا أطلب اليك أن
تنزل عن مبادئ حزبك . كلا ! ولكنى أطلب فقط نكولا مؤقتا وهذه
يوم واحد . واني ليدعشنى أن ألقى منك كل هذه المقاومة فترغمنى على الوعيد
وعلى أن ألقا إلى سلاح وضع . وإذا لم تكن قد فهمت بعد أنه يجب فى بعض
الأحوال أن تبدى شيئا من المرونة ، وأن تنزل عن بعض الأمور ، فاني لا أومن
بمستقبلك السياسى . هيا ، وقل لى انى أستطيع الإعتماد عليك .

وكان هنرى لوك قد أثقل كاهله ، وخارت قواه ، ووضع ذراعيه على
ركبتيه ، واستسلم الى أعماق يأسه . إنه لحق اذا ؟ أن هذه الجريمة التي ارتكبها
فى شبابه ، والتي تبعتها دائما كشاهد خفى مدى عشرة أعوام من الجهاد
والإستقامة ، هذه الجريمة تقفه اليوم فى الطريق السوى ، وتسقط ثقيلة على
كاهله كقبضة الشرطى . كان المنكود عندئذ فريسة لروع أبرص ، اعتقد

أنه شفى من مرضه منذ بعيد، فإذا به يرى بقعه الفظيعة تبدو بخافة . بم يجب ؟
فإذا قاوم الكونت سقط في أعين الناس جميعا، وإذا سلم سقط في عيني نفسه .
ومن الحق أن نقول ، إن هنرى لوك كان قد أعاد غزو ضميره ، لأن السقوط
العام لم يكن يروعه بأقل من السقوط الخفى . هذا الى أن عذابه المعنوى كان
يقترن بدهشة أليمة . أمن الممكن أن يكون رجل الولاء المسيودى فئدى
هو الذى يعرض عليه هذه المساومة الشائنة ؟ وهل حقا أن هذا الرجل الخير
العطوف ، هو الذى يخاطبه رغم جزمه بهذه اللهجة التى تفيض بالإحتقار المؤلم ؟
ماذا يصنع ؟ لم يك ثمة مفر . فقد كان بين هاويتين . . ولقد بلغ من عذاب
هذا المنكود أنه كاد يتنفس الصعداء حينما همس الصوت الخفى ناصح
البائسين ، فى أذنه بهذه الكلمة المؤسسية « الموت ! » .

فلم يتردد ، بل نهض بخافة ، ودنا من المسيودى فئدى وحقق فى عينيه
قائلا بصوت أجش : هل تصر اذا على ألا يلقى هذا الخطاب ؟
فأجابه الكونت ببرود : بلا ريب ، وهل أنا فى حاجة للتكرار ؟
قال ، اطمئن إذا ... فلن يلقى .
فضحك الكونت ضحكة صغيرة ، وهز كتفيه هزة خفيفة وقال : ها قد
اتفقنا .

ولكنه لمح بخافة عيني هنرى لوك تبهتان كأنما كان يحتضر .
وقال المنكود : لن أخطب غدا فى مجلس النواب ، لأنى الليلة سأحطم
رأسى برصاص مسدسى .
فصاح الكونت دى فئدى دهشا وفى لحظة من الريب : أتقدم على ازهاق
نفسك ؟

فأكد الفتى عزمه بهزة رأس قوية وقال : « وهل ترى هنالك حلا آخر
مقبولا ؟ لقد جئت ياسيدى الكونت هنا — وانى ليدهشنى انك أنت ،

أو على الأقل أنت كما عرفتك ، الذى يقدم على عمل كعمل الجلاد — أقول
إنك جئت هنا لترغنى على ارتكاب نذالة حكم المخالفة فيها السقوط الشائن .
ولكن موتى يحبك بأنه ان يحدث هذا ولا ذاك .

وهنا خفض المسوودى فئدى جبينه وقال مفكرا : أتقدم على الانتحار ؟
فقال هنرى لوك بمرارة : إعترف رغم تقاليدك الدينية أن هذا الانتحار
ينم عن شجاعة .

ثم قال مشيرا الى غرفته الغاصة بالكتب : أترى هذا المقام الهادئ ؟
لقد كان منذ برهة مقام رجل سعيد بقدر ما تسمح له ذكرى عمل سيء .
ولكنى كنت قد وفقت الى تهدئة هذه الذكرى بل إخمادها بقوة العمل ...
ولو فتحت هذا الباب الذى أمامك لرأيت زوجتى العزيزة وطفلى المسكين
ينامان بريئين هادئين . ولقد أخطأت فى حينها ، فمثل هذه المسرات
لا يسمح بها لمن كان مثلى ذا وصمة فى ماضيه . ولست أحديثك عن أحلامى ،
وعن المستقبل الذى يفتح أمامى . واليك رزمة من الصحف أذكر فيها
بالخطيب المفوه الأشهر . ياله من يؤس ! فاست آسف الحياة إلا على هذين
المخلوقين الفتيين ، اللذين سيغدوان أرمل ویتما . ومع ذلك فصرح ياسيدى
الكونت أن الإقدام على مغادرة ذلك كله ينم عن شجاعة وعزم . ولا ريب
انى كنت غير حقيق بتلك السعادة . ولعلك أنت الذى ترغنى بقسوة على
نهبها ، قد تفعل ذلك دون أن تعلم ، باسم العدالة ... لا بأس ، فالآن عند
ما أصوب فوهة المسدس الى صدغى أستطيع فى عزلة وكبرياء ان أقول اننى
قد كفرت عن زلة شبابى ؛ ذلك لأخنى أموت لكى أبقى رجلا شريفا ...
والآن فنفضل ياسيدى بتركى فريدا ، فلدى واجب الوداع وكتابة وصية ...
ولكن فى وسعك أن تذهب مطمئنا واثقا من أن هنرى لوك ان يظهر غدا
على منصة الخطابة .

ثم دنا من الكونت ليقوده الى الخارج؛ وكان الكونت يصغى اليه بعناية فائقة والتأثر باد في عينيه، فعندئذ أخرج من جيبه غلافا وقدمه الى الرجل الذى اعتزم الإلتحار، وهو يقول بصوت رنان :

«اليك دليل زلتك القديمة»

فقال هنرى لوك : ثم ماذا ؟ انك ان تذهب فى البغضاء والتحامل الى حد تدنيس ذكرى ، فإذا أنت فاعل الآن بهذه الوثيقة .

فتقدم الكونت من المدفأ حيثما كانت تضطرم نار ذاكية ، وألقى فيها الورقة فالتهمت والتمتها النار فى الحال .

فبدرت من هنرى لوك صيحة كبيرة ، وشعردون أن يدرك السبب بأن كل شىء قد تغير بالنسبة اليه .

وقال الكونت دى فئدى بخطورة : لقد غدوت حرا ، فإذهب غدا الى البرلمان وأوهن عفائدنا ، وادفع بكهنتنا الى البأساء . فسوف يؤلمنى كل هذا ، ولكن العدالة قبل كل شىء . استمع الى هذا : انك بعد أن وقعت هذه الورقة ، وغادرتنى وظهرك مثقل برأفتى وكرهى ، كنت أعتقد فى أعماق نفسى أن عملى عبث ، ولم أكن أعتقد أن فى بلا إيمان يستطيع نهوضا أدبيا بعد أن بدأ حياته بانتهاك الشرف . ولكنى لما علمت من المسيو برتيليه وغيره بدشائر نجاحك ، وبسلوكك الحميد المحترم ، شعرت كأنما لقيت خيبة أمل ، وكنت إذا سمعت اسمك يذكر بين أعداء الدين وأحد أولئك الذين لا يمكن نقد خلاطم أو الشك فى نزاهتهم ، أعانى وأتألم . وفى ذلك المساء قرأت ، كما ذكرت لك ، فى إحدى الصحف أنك ستهاجم الكنيسة ، فذكرت السلاح الهائل الذى أملكه ضدك ، فخابلجتنى رغبة سيئة فى أن أحقق بوسيلة أحمر لها الآن نجاحا ، سكوتك ، وثقتى بأنك لست إلا منافقا ... ولكنك قد أفتعتنى بالعكس اننى قد أسأت الحكم عليك ، وذ كرتنى بأننى لم أتقدم اليك تقدم الرجل النبيل ؛

ولكن كل شيء قد أصلح، وما على الآن إلا أن أطلب اليك قبول اعتذارى .
وكان الدمع ينهمر عندئذ من عيني هنرى لوك ، ويداه ترتجفان فرحا ،
فصاح : «أتقول اعتذارك ! فى الوقت الذى يجب أن أرتى فيه على قدميك ،
والذى أعدمته فيه آخر أثر لماضى الملوث ، والذى أعود فيه فأراك الرجل
الفياض بالصفح الذى رحمنى وأنتقذنى ! كلا، كلا، انى لن أخطب غدا
ضد أصدقائك، أعاهدك الآن وفى وسعى أن أفعل ذلك حرا من تلقاء نفسى .
ماذا أقول ؟ لقد سرى إلى اشتزاز مفاجئ من السياسة ، ومن هذه الحياة
الفياضة بالأحقاد، وقد أدركت أن هنالك فوق الأحزاب جميعا، حزب الرجال
الشرفاء الذى رفعتنى إلى صفة . إنك ياسيدى الكونت مثال الشهامة والجلود .
فأجاب الكونت وقد اشدت تأثره مخاطبا سكرتيره القديم بصيغة الحب التى
خاطبه بها فيما مضى : لقد افترقنا يا بنى العزيز منذ عشرة أعوام ، دون أن
نتلامس يدانا . فإليك يدى ، هل تريدها ؟ إنى أمدتها اليك فياضة بالحب
والتقدير .

وشعر هنرى لوك ، وقلبه يتفتح غبطة ، وربما لأقول مرة فى الحياة ،
وهو يشد بيديه على اليد الحارة الطاهرة ، أن زلة شبابه قد محيت حقا إلى
الأبد (١) .

(١) أخذت هذه القصة من مجموعة Longues et brèves .

انخار !

عرفت الشاعر لوى ميراز فيما مضى فى الحى اللاتينى حيث كنا نتناول طعامنا معا فى مطعم صغير فى شارع سين تديره عجوز بولونية كنا نسميها «الأميرة شكولافسكا» . وكان يؤم المكان عادة إلى جانب جماعة من الفتية قدر لهم النبوغ ، جماعة من فقراء البولونيين قاد معظمهم جيوشا أو ما يشبه ذلك . أما لوى ميراز فكان فتى شاحب اللون ، طويل الشعر ، حول عينيه هالتان . وكان أحد أولئك الفتية الذين يفدون على باريس فى عربة الدرجة الثالثة أغنياء ببعض المخطوطات . وكان شعره الغزير يومئذ يلوث بالعرق فوق سترته ، فتفاهمنا لأول الأمر وما لبث لوى ميراز أن قادنى إلى غرفته العالية فى شارع كاترقان ، وأخذ يتلو على شيئاً من نظمه ؛ ذلك أن لوى ميراز كان يقرض الشعر ، وكانت له قصائد فنية ساحرة لها غير الأزهار الأولى . وقد تبوأ فى فيما بعد مجموعته المسماة «العصافير الحرة» مقاما فى عالم الأدب الراقى . ثم نزع ميراز إلى مونمارتر وغاب عن نظرى حينما ، ثم رأيت توقيعه فى بعض الصحف ، حيث كان يكتب قصصا صغيرة أذاعت اسمه . ومضت خمسة أعوام ، ثم لقيت ذات يوم فى مكتب الجريدة التى اشترك فى تحريرها . فسر كل منا برؤية صاحبه ، وبعد التحيات الأولى جلسنا وجها لوجه نشد على الأيدى ونسفر بالتسامة البهجة عن أسناننا . ولم يكن تغير بل لم يعن بقص شعره الطويل الذى كان يلقيه إلى ورائه بحركة جميلة ، ولكنه لونه صفا وحلت السكينة فى عينيه ، شأن الرجل السعيد ، وكان يرتدى ثيابا أنيقة . فقال لى وهو يمسك بذراعى : لن نفترق بعد ، أليس كذلك ؟ ثم جذبنى إلى الشارع حيث كانت شمس ابريل تنثر ذهبها فوق الأوراق الفنية . أنعم به من يوم سعيد ! لقد استنفدنا عبارات الذكرى وصور مطعم

شكولافسكا وأضيافها . وكانت أيام البؤس قد زالت . وكان يغتبط لنجاحي عن بعد ، وكنت أعرف نجاحه ، ولكن الذي لم أك أعرف هو أن لوى ميراز قد تزوج من امرأة يعبدها ، وأنه رزق بابنة صغيرة هي ملاذ حبه . قال : تعال لتراهما وسوف نتعشى عندي .

فليت دعوته ، وقادني إلى « بستان ترن » حيث كان يقطن روشنا بين الأتجار . وكل ما هنالك يسم ، وما قرعنا الجرس حتى جاءت مدام ميراز وعلى ذراعها طفلتها ، وكانت شقراء ممشوقة القد مليئة الجسم ، فقال لها : هيا مكانا ثالثا على المائدة فهذا زميل قديم .

ثم تناول الأب السعيد ابنته ، وأخذ يرني منزله ، وكان نظيفا حسن الترتيب وغرفة المكتبة تطل على بسيط من الزهر . ثم قال لي : ليس هذا إلا بدءا ... فلم يمض طويل على العهد الذي كنا نتناول فيه على السطر ثلاثة أفلاس . وبينما كنت أتأمل دوحة زاهرة في الحديقة ، أخذ ميراز يخفف ملابسه ثم اتكأ في مقعده الضخم وأخذ يدلل طفلته .

ولعمري ما آتست شعور سعادة كالذي آتسته عندئذ . ثم تناولنا العشاء في حبور ، وكانت مدام ميراز الحسنة ترأس المائدة بابتسامتها المضيئة وإلى جانبها طفلتها على كرسى عال . وكانت قليلة الكلام ولكنها كانت تتبع بنظراتها النابهة العذبة حديثنا الهائم المشعب . ثم تناولنا القهوة في غرفة العمل ، وكان ميراز يعتزم أن يؤث بهوه قريبا بثن الرواية التي سينشرها محل ليشي ، وكان المساء ساحرا فأخذنا ندخن ونذكر الأيام الخاليات .

وأكثرنا من المقابلة باديء بدء ، ثم أقلنا . وكانت حياة الأديب الشاقة المعقدة تبعد كليتا عن صاحبه . ومضت أعوام أخرى ، وكنا نتقابل فتصاغف وتبادل : « كيف حالك ؟ » و « في خير حال » ليس غير ، ثم لاحظت بعد ذلك أن اسم لوى ميراز يظهر نادرا في الصحف والمجلات ، فقلت في نفسي

«إنه يستريح» ذاكرا أنه قد أحرز ثروة صغيرة . وأخيرا علمت في الحريف .
الماضى أنه مريض جدا .

فبادرت برؤيته . وكان لا يزال يقطن في بستان ترن . وكان يوما قاتما من .
أواخر نوفمبر فخل لي أن المنزل الصغير ينفتح البرد وكأنه عار بين الأشجار المجردة ،
وبدا لي كثيبا ، فدفعت الحاجز وجزت الحديقة وقرعت الجرس ، ففتحت لي .
ايلين التي كبرت وغدت فتاة في الرابعة عشرة ، وكانت أمها غائبة ، ثم قادتني .
وهي ترسل الى من تحت أهدها السوداء الطويلة ، نظرات وجلة مضطربة .
وألفت ميراز يرتى على مقعد أمام النار وهو في ثوب شيخ ، وقد ابيضت
خصلات من شعره . ومالبثت أن حزرت من برودة يده اليايسة التي بسطها
لي ونظرته البيضاء التي حدجني بها ، أنه هالك . أقطع بهذا ! الفيت في وجهه .
صديق المنكود صورة من ذلك التهدم الصاعق الذي كنا نأنسه أحيانا في فقراء .
البولونيين ضيوف الأميرة شكولافسكا .

قلت له : أنت مريض أيها الصديق القديم ؟ .

أجابني بابتسامه مروعة : أيها العزيز ، انى أذبل من السل كالحيوان ،
أو أتوارى كالفصل الخامس من رواية ... والفرق عندي هو أن عذابى
يطول ، بل إنه لا ينتهى أبدا ...

ثم قال ، وقد رآنى القى سيكارى : لا بل دخن فليس يضايقنى هذا ..
ولكنه قرن عبارته بسعال كالخشجة . فجعلت أتلصص عبارات التشجيع .
وكننت أحدثه وأنا أهسك بيده ، وأضرب على كتفه بلطف . ولىكنى رأيت .
اننى أحاول عبثا شأن الكذب دائما ، ولاح لى أن ميراز وهو يحدجنى ، يشفق .
من محاولتى . فأمسكت عن الكلام . ثم أشار لى الى مكتبة ، وقال : أنظر
فقد مضت ستة أشهر لا أستطيع فيها الكتابة .

وكان صادقا . وليس أشنع من تكدر الأوراق يعلوها الغبار ، والأقلام

علاها الصدا وجف في أسنانها الجرب؛ فحاولت أن أعزّيه من جديد . أيموت من في سنه ؟ أنه لهراء ! ولا ريب أنه لا يعنى بنفسه ، وواجب عليه أن يمضى الشتاء في الجنوب فيرد هنالك من مناهل الشمس . وهو قادر على ذلك . أليس لديه مال ؟

ولكنه وقفنى وهو يضع يده على ذراعى ثم قال بخطورة : أصغ الى . إنا لا نلتقى كثيرا بعد ، ولكنك أقدم بل أعز أصدقائى ، وهذا ما أثبتته والقلم فى يدك . فاسمع إني سأفضى اليك بسر تحفظه لنفسك ، الا أن تستعمله اذا أردت أن تثبط همم الكتاب الفتيان الذين يعرضون عليك كتاباتهم . ولعمري أنك تحسن صنعا : أجل لقد عرفت النجاح ، وقد غنمت فرنكا عن السطر الواحد . أجل ، وقد رجحت مالا . وهنالك فى هذا الدرج عدد من الاوراق الصفراء والخضراء والحمراء يمثل كل اذن منها أربعة آلاف فرنك من الإيراد . وهو نادر جدا فى المهنة . وقد أرغمت لإحراز هذا ، أنا الشاعر ، على أن أقتبس أقصى فضائل الأغنياء ، فعرفت كيف أرفض حلية لزوجى أو ثوبا للإبنتى . والخلاصة أن عندى هذا المال . وكثيرا ما قلت لنفسى : إذا مت فسوف أترك لهما الخبز محققا ، وأترك مهورا صغيرا لإيلين . وكنت أطرب لهذا وأعتبر به . ذلك أنى أعرف أخبار أراملنا وأيتامنا : إعانة من الحكومة قدرها أربعة فلسات . وإذا كانت الإبنة ذكية حسناء كابنتى ، فإن الكتاب المسرحى صديق أبيها ، ينصح اليها بالدخول فى «الكينسرقتوار» فيجعل منها ... رباه ، وهذا لن يكون أبدا . ولكن يجب لتحقيق هذا أيها العزيز أن لا يطول مرضى . ذلك أن المرض يكلف غالبا . وقد بعث الى الآن إذنين أو ثلاثة من أوراق الإيراد . فاذا ذهبت الى الجنوب كما تريد فيجب أن أبيع إذنا آخر ، وقد ينتهى الأمر بلفناق الجميع اذا تأخرت سبعة أعوام أو ثمانية فى حين أنى لا أستطيع أن أكتب شيئا . ولكن الأمر لا يحل على الخوف لحسن

الطالع... على أن ما أفاasih من عجزى عن الكتابة، ومن رؤيتى هذه الحفنة من الذهب تذوب تباعا، لرائع... وقد فهمت الآن، فلا تحاول نصيحى... بل أَدع الله إذا كنت لا تزال تذكر الصلاة، أن يبعث بى سريعا الى عالم العدم .

بعد ذلك بخمسة عشر يوما، كنا زهاء ثلاثين، وراء التابوت الذى يحمل جثة لوى ميراز الى مقبرة مونارتر. وكان البرد قد سقط فى الليلة السابقة، فقال لى الدكتور أرنول، وهو طيب ميراز وصديقه وهو يسير الى جانبي : إنه لبون مبتذل ولكن رائع... فإن الدفن وقت البرد كالأسود والأبيض .

ثم وصلنا الى المقبرة . وكان الزمان والمكان موحشين ، وكانت الأشجار الصغيرة، تحنى أغصانها تحت السماء القائمة لتلقى ما علق بها من البرد . فالتف المشيعون حول القبر، بينما أخذ الحفارون ينزلون التابوت . وكان الكاهن ينتظر وفى يده كتابه، وعلى مقربة منه مندوب «جمعية الأدباء» يمسك فى يده المكسوة بقفاز أسود، أوراق الرثاء الذى كتبه منذ ساعة فى زاوية من المقهى . وما كاد الكاهن يبدأ صلاته حتى أخذ الدكتور أرنول يبدى وقال لى بصوت منخفض : ألا تعرف أنه انتحر ؟

فنظرت اليه دهشا . ولكنه أشار بإصبعه الى مدام ميراز وابنتها، وهما تفران تحت قناعيهما، وقد تعاقتا فى نطق محزون، وقال لى :

لقد انتحر من أجلهما... أجل، منذ ستة أشهر وهو يلقى الى النار بكل دواء، ويرتكب عمدا كل الأخطاء. وقد اعترف لى بذلك قبل موته . ولم أك أفهم شيئا، أنا الذى كنت أقول أن أطيل أجله، مدى ثلاث سنوات على الأقل . وأخيرا، فى تلك الليلة التى انهمل فيها البرد، ترك نافذته مفتوحة عمدا، فأصابه التهاب فى الرئة... أجل وذلك لكى يترك الى المراتين قوتهما... وما يرتاب القسيس فى أنه يبارك منتحرا . على أن ميراز لقي جنة الشجعان^(١) .

صف

من

جی دی موپاسان Guy de Maupassant

جى دى موياسان

موياسان ، شخصية فريدة فى الأدب الفرنسى فى أواخر القرن التاسع عشر ، واذا لم يكن موياسان قد وصل فى عصره من حيث الكفاءة الأدبية الى صف الأعلام من أقرانه ومعاصريه ، مثل بورجيه ، وكوپيه ، وتيربيه ، وبانثيل ، وزولا ، وفلوبير ، فإن تراثه يعتبر من أبدع ما وهب القصص الصغير ان لم يكن أبدعه كله ، ذلك لأن موياسان استاذ القصة الصغيرة المبدع ، وكان فى فنه وفلسفته متقدما على عصره ، وكان فى إنخراج صوره يتخطى تقاليد عصره ، ويصور ما ينذر به المستقبل من ثورة فى فهم الحياة والاجتماع ، فكان من صوره الاجتماعية الجريئة ما يؤدى فهم عصره ، ويجاوز معيار الحياء فى مجتمعه .

قطع موياسان حياة قصيرة ، وتوفى فى إبان فنوته وازدهار إنتاجه . وكان مولده فى مير ومز نل من أعمال السين الأدنى سنة ١٨٥٠ . ودرس فى مدينة « روان » دراسة متوسطة ، وبدأ حياته العملية كاتباً فى وزارة البحرية ، ثم كاتباً فى قسم الفنون الجميلة بوزارة المعارف . وبدأ حياته الأدبية بنظم الشعر ، واتصل بجماعة من أقطاب الأدب فى هذا العصر مثل دوديه ، وزولا ، وترجنيف الكاتب الروسى — وكان يقيم وقتئذ بباريس — وكاتيل مانديس . وكانت صلاته قوية بالأخص بجستاف فلوبير صديق والدته وأسرته . وكان يرشده ويشجعه ويستد خطاه الأولى . ووقف موياسان جهوده الأولى للمسرح ، ولكنه لم يحرز نجاحاً كبيراً . ولم يظهر إلا فى الثلاثين من عمره حيث نشر مجموعة شعرية عنوانها Des Vers ، كادت أن توقعه فى قضية جنائية لولا تدخل بعض ذوى النفوذ من أصدقائه ، ثم عالج القصة ، فبدأها برواية قصيرة عنوانها Boule de Suif ، فلقيت نجاحاً . ومن ذلك الحين خص

موپاسان القصص الصغير بأطيب جهوده، فأخرج منه عدة مجموعات قوية ساحرة، تتميز بتنوعها، وإحكام فكرها، وظرف مفاجأتها، كما تمتاز ببساطة أسلوبها، وقوة بيانها، وبديع وصفها وفنها، ودقة تحليلها، ولاذع تهكمها، وأحيانا بشورتها على تقاليد الحياء وعرفه. وبلغت هذه المجموعات ثمانية عشرة نذكر منها : *La Maison Tellier* و *Contes de la Bécasse* و *Miss Harriett*، وهى قصة عجوز انكليزية تنتحر غراما، *Yvette*، وهى قصة فتاة ذات أم غانية، تنشأ فى معترك من الفساد ولكنها تقوى على مغالبتها، و *Mlle Fifi*، وفيها يشهر موپاسان بالضباط الألمان، و *La Main gauche*، وفيها يصف الفتاة البدوية، و *Les Sœurs Rondoli*، وفيها يصور أخلاق الإيطاليات، و *Misti*، و *Toine*، و *La Retite Roque*، وهى قصة اغتصاب فظيع، وغيرها. وكل مجموعة تسمى باسم القصة الأولى منها، وتحتوى على نحو خمسة عشر قصة. وكتب موپاسان أيضا عدة روايات منها : *Bel Ami*، و *Une Vie*، و *Pierre et Jean*، وغيرها. غير أنه لم يبلغ فى الرواية ما بلغه فى القصة الصغيرة من السمو والإبداع، وقوة الخيال والفن. وكتب أيضا عدة كتب فى السياحة وعدة قطع مسرحية.

ولبت موپاسان فى هذا الإنتاج القوى المخصب زهاء ثمانية أعوام. ثم اتابته أعراض المرض والإعياء والانحلال. وكان عملاقا قوى البنية، ولكنه بدد قوته وقواه فى إشباع أهوائه وحواسه المضطربة، وخاض غمار حياة لهو مشيرة منهكة، وأسرف فى الشراب والمخدرات حتى انهارت بنيته المتينة، وأصيب بأمراض واضطرابات عصبية كثيرة، ثم أصابه الشلل، ثم كانت الطامة الكبرى بإصابته بالجنون. وكانت أعراض الخبل قد ظهرت عليه منذ سنة ٨٧، ولكنه لم ينقطع عن الإنتاج والكتابة، وأخرج فى ذلك الحين قصة *La Horla* التى تبدو فيها أعراض الاضطراب

العقل ، وان كانت في ذاتها قطعة من الخيال المبدع ، و ”الجمال العقيم“ *L'Inutile Beauté* ، التي نقدمها هنا ، وفيها يصور موقف المرأة الحسنة الأنيقة ازاء مسألة الحمل . وفي سنة ٩٢ ، اشتدت وطأة المرض عليه ، فحمل الى إكس ليستشفى ، وهناك حاول الانتحار . ثم نقل الى باريس ، حيث توفي في ٦ يولييه سنة ٩٣ في آلام مروعة ، ودفن بمقبرة مونپارناس ، ووجدت بين أوراقه قصص ورسائل نشرت بعد وفاته .

ومو ياسان فنان من الطراز الأول ، وفيلسوف ذو طرافة . فأما الفن فقد ارتفع الى أسمى مراتبه . فهو يعالج مختلف الصور في المجتمع وفي الطبيعة ، بقوة وإبداع ، ويرى في جميع الكائنات ، وكل صور الحياة ، مادة للفن ، ويعرض صوره في ألوان قوية ساحرة ، يطبعها ابتكار فائق ، ودقة متناهية . وأما الفلاسفة ، فإن لمو ياسان فلسفة خاصة في الحياة ، فهو يرى انها سخافة ومعاناة وآلام فقط ، وليس فيها ما يشوق ويهيج ، ويرى أن الانسان حيوان مصقول تتغلب لديه الغرائز الحيوانية على كل عاطفة أخرى ، وانما يخفيها طلاء من الادعاء والتستر وصولاً للقانون ، وكل طبقات المجتمع سواء في ذلك . وانما المدنية تصقل وسائل المتعة وإشباع الشهوات . وقد درس مو ياسان المجتمع الخليع دراسة عميقة ، وخاض ظلماته وخفائيه ، وقدمه الينا في صور مثيرة ، ولكن بعيدة عن الغلو ، وقد لا يقص في معظمها غير ما شاهده وخبره . وهو يقسو في حكمه على المرأة ، فهي في نظره مخلوق خبيث ضال ، لا تصلح سوى أداة لإشباع الشهوات ، وغرائزها نار لا تحبوا ، وتعمل في طريقها كل شيء ، ويندر أن تخلص المرأة ، ويندر أن توجد زوج مخلص . والمجتمع كله يتخبط في معترك من الشهوات الوضيعة ، وهو في كل ذلك فنان مبدع ، يقدم الينا أشخاصه في أدق الصور ، ثم يجيد تصوير الطبيعة ، فيصف الريف والغابة والشمس والسماء ، والحيوان والطيور ،

فى ألوان قوية . ويطبع فلسفته نوع من التشاؤم وسأم الحياة ؛ وخوف الشيخوخة ؛ وروعة الموت . وأسلوبه غاية فى البساطة ؛ غاية فى القوة وسحر البيان ؛ وخياله وافر الخصوبة والطرافة ، حتى أنه قلما يكرر نفس الفكرة أو المفاجأة ، مع أنه كتب نحو ثلاثمائة قصة .

وقد غمط موباسان حقه إبان حياته ، ولم يتبوأ ما كان خليقا بروعة فنه وسحر خياله ، فى عالم الأدب فى عصره . ولكنه أنصف فى عصرنا ، وتبوأ ذكراه مقامها اللائق ، ورفع فنه وخياله الى السماكين . وفى سنة ١٩٢٥ احتفل بتخليد ذكراه ، ورفع الستار عن تمثال أقيم له فى ميرومزل مسقط رأسه ، فى المنزل الذى ولد فيه ؛ ونوه وزير المعارف الذى رأس الاحتفال بعبريته الفذة ، ودعا المجتمع الأدبى الفنى ، الى اجلال هذا الذى أسبغ عليه من سمو فنه ، وبديع خياله ، وسحر بيانه ، آيات رائعات .

الجمال العقيم

كانت العربية الأنيقة، يحرها زوج نخم أدهم من الجياد، تقف بباب القصر . وكانت الساعة نحو الخامسة والنصف ، والسماء تبدو فياضة بالصفاء والحرارة والمرح .

وظهرت الكونتة دى مسكارية على عتبة الباب ، فى نفس الوقت الذى وصل فيه زوجها عائدا ، فوقف بهمة يتأمل زوجته ، وتغير لونه قليلا . وكانت وافرة الحسن، رشيقة ، ذات محيا طويل بيضى ، ولون كالعلاج المذهب ، وعينين واسعتين خضراوين ، وشعر اسود ، فصعدت الى عربتها دون أن تنظر إليه بل كأنها لم تره ، وبهيئة الأنف المتحدى ، حتى أن الغيرة الشائنة التى تعذبه منذ بعيد عادت تقضم فؤاده من جديد ، فتقدم منها وحيائها قائلا : أتذهبين للتنزه ؟

فأجابته بإيجاز واحتقار : أجل كما ترى .

قال : هل تذهبين الى الغابة ؟

أجابت : ربما

قال : هل تسمحين لى بمرافقتك ؟

أجابت : ان العربية تحت تصرفك .

فلم تدهشه لمحتها ، بل صعد الى العربية وجلس الى جانبها ، وأمر السائق أن يسير الى الغابة ، وصعد الوصيف الى جانب السائق ، وسارت العربية . ولبت الزوجان جنبا الى جنب صامتين . ولبت الكونت يتلمس طريقا للحديث ، ولكنها لبت صرامة المحيا حتى أنه لم يجرؤ على الكلام . وأخيرا مديده نحو يدها ولمسها كمن يفعل مصادفة ، ولكن الكونتة سحبت ذراعها بحركة سريعة تعرب عن وافر الاشمئزاز ، حتى انه لبت جزعا

رغم استبداده وتعوده السلطة والأمر، ولكنه غمغم قائلاً : يا جبرائيل !

فقالت : ماذا تريد ؟

قال : انى أراك خليفة بالعبادة .

فلم تجب وظلت مضطجعة بهيئة ملكة غضوب .

ووصلت العربى عندئذ الى الشاتلزييه نحو قوس النصر . وكان الأثر الشاخ يسفر بقوسه الضخم عن سماء حمراء ، وكأنما الشمس تهبط اليه وهى تنثر من الأفق تراباً من النار .

وكانت العربات الفخمة ، ذات الأطراف النحاسية أو الفضية ، والبلور الساطع ، تغدو نحو الغاية ، وتروح نحو المدينة فى سيل مزدوج .

عاد الكونت مسكاريه يقول : يا عزيزى جبرائيل !

فلم تملك نفسها عندئذ ، وأجابته غاضبة : أرجوك أن تتركنى هادئة ، فقد حرمت حتى من حرية الإنفراد فى عمرى .

فتظاهر بأنه لم يصغ اليها ، وقال : مارأيتك قط من قبل بهذا الجمال .

فصبرها ، وأجابته بغضب واضح : انك تخطئ إذ تلاحظ هذا الجمال ، إذ أقسم لك جد القسم ، انى لن أكون لك بعد .

فتولته الدهشة والاضطراب بلا ريب ، وعادت اليه نزعتة العنيفة ،

فقال لها فى لهجة السيد الخشن لا الرجل المحب : « ماذا يعنى هذا ؟ » .

فأجابته بصوت منخفض حتى لا يسمع السائق والوصيف : ماذا يعنى هذا ؟ لقد عدت الى طبيعتك . أتريد أن أقول لك ماذا يعنى هذا ؟ وأن أقول لك كل شئ .

أجاب : نعم .

قالت : كل ما ينوء به قلبي منذ غدت فريسة لأثرتك الوحشية ؟

فاحمر وجهه غضباً ودهشة ، وقال وهو يصرف بأسنانه : أجل ! تكلمى .

وكان الكونت رجلا مديد القامة، عريض الكتفين، ذا لحية حمراء .
كان رجلا جميلا ، وسيدا أنيقا وافر الأدب ، يعرف بأنه زوج كامل ، وأب
بديع .

ارتدت نحوه لأول مرة منذ سارت العربية وحادثته مليا وقالت : سوف
تسمع أمورا لا ترضيك . ولكن اعلم انى متأهبة لكل شئ ، ولن أخشى شيئا ،
وأخشاك اليوم أقل من أى انسان .

خندق فى عينها وقد فاض به الغيظ ، وغمغم : أنت مجنونة ! .
قالت : كلا ! ولكنى لا أريد أن أغدو بعد فريسة لعذاب الأمومة
الشائن ، الذى تفرضه علىّ منذ إحدى عشر عاما ، وأريد أخيرا أن أعيش عيشة
النسوة الرفيعات كما يحق لى ، وكما يحق لجميع النساء .

فامتقع لون الكونت بغأة وقال متلعثا : لست أفهم هذا .
قالت : بل تفهم . لقد وضعت ولدى الأخير منذ ثلاثة أشهر . ولما
كنت لا زلت حسناء ، بالرغم من جهودك الشائنة ، كما اعترفت الآن منذ
برهة ، فإنك ترى أن الوقت قد حان لىكى أحمل من جديد .
قال : إنك تهذين .

قالت : كلا ، فإنى فى الثلاثين ولى سبعة أطفال ، وقد تزوجنا منذ
إحدى عشر عاما ، وتريد أنت أن تظل هذه الحال عشرة أعوام أخرى ،
وعندئذ فقط تقلع عن غيرتك .

فأمسك بذراعها وشد عليها وقال : لست أسمع لك أن تكلمينى بعد
على هذا النحو .

قالت : ولكنى سأتكلم الى النهاية ، وحتى أقول لك كل ما أريد قوله ،
وإذا حاولت أن تمنعنى فإنى أرفع صوتى حتى يسمعنى السائق والوصيف .
ولم أسمع لك بالركوب إلا لهذا الغرض نظرا لوجود شاهدين يرغمانك على

الإصغاء إلى " ويحلمانك على السكوت . فاصنع إلى " . لقد كنت دائماً ثقيلاً على نفسي ، وقد أظهرت لك ذلك دائماً لأنني لم أكذب قط ياسيدي . وقد تزوجتني بالرغم مني ، وأرغمت والديّ الفقيرين على أن يهباني اليك لأنك وافر الغنى ، وقد أرغمانى على ذلك وأنا أبكى .

« وأذا فقد اشتريتنى ، وما كدت أغدو فى حوزتك ، وما كدت أبدأ أن أغدو لك صاحبة ، تريد أن توثق بك عراها وأن تنسى ما تلجأ اليه من التهديد والإرغام ، وأن أذكر فقط أنه يجب علىّ أن أكون لك زوجة مخصصة ، وأن أحبك ما استطعت ، حتى أصبحت أنت تضطرم غيرة : غيرة لم تعرف عن رجل ، غيرة جاسوس مرذولة شائنة ، حاطة بقدرك ، جارحة لى . ولم يعض على زواجى ثمانية أشهر حتى أصبحت ترتاب فى ارتكابى لكل الخيانات ، بل لقد لوّحت لى بهذا ، فياللعار ! ولما كنت لا تستطيع أن تمنعنى أن أكون حسناء وأن أروق ، وأن أوصف فى الأبهاء وكذا فى الصحف بأننى من أجل نساء باريس ، فقد لجأت الى ما اعتقدت أنه يبعدنى عن الغزل ، وأخذت بتلك الفكرة الجهنمية ، وهى أن تجعلى أنفق حياتى فى حمل دائم الى حين يملكنى الإثمئزاز من جميع الرجال . آه لا تنكر ، فقد بعد ذلك عن فهمى مدة طويلة ، ثم حزرت بعد ذلك ، بل لقد فاحرت بذلك أمام أختك ، وقالته هى لى لأنها تحببى ولأنها تتور لخشونتك .

« آه ! أتذكر شجارنا ؟ أتذكر الأبواب المحطمة والأقفال المكسورة ؟ أى حياة تلك التى حكمت بها على منذ إحدى عشر عاماً . ثم إنى لا أكاد أحمل حتى يأخذك الإثمئزاز منى ، ولا أراك مدى أشهر ، إذ تبعدنى الى الريف فى قصر العائلة لى أضع هنالك ولدى ، فإذا ما عدت حسناء صبوحة خلافة ، وساورنى أمل فى أن أعيش قليلاً كما يجدر أن تعيش شابة غنية تنتهى الى الوسط الرفيع ، عاودتك الغيرة ، وعدت تطاردنى بتلك الرغبة الشائنة

البغيضة التي تضطرم بها الان الى جانبي ، وليست هي الرغبة في امتلاكى ،
اذ ما كنت لأمنع نفسى منك قط ، ولكنها الرغبة في تشويى .

«ولقد لاحظت غير بعيد هذا الأمر الشنيع الخفى ، ولاحظت أنك تحب
أولادك بقدر ما تبغضنى ، وأن مخاوفك الشائنة تهدأ ويساورك الفرح كلما
رأيتنى حاملا .

«أجل ، كم مرة شعرت بهذا الفرح ، وقرأته في عينيك ، وحزته ! ولقد
كنت تحب أولادك كآيات لظفرك ، وليس كقطعة من دمك . أجل !
هم ظفرك على ، وعلى شبابى وجمالى وسحرى ، وعلى التهانى التى تغدق على .
وأنت نفخر بهذا ، وأنت تصحب أولادك للنزهة ، وتصحبهم الى المسارح
لكى ترى بينهم ويقال عنك «أنعم به من أب ! » ...

وهنا أمسك الكونت بيدها بعنف وضغط عليها بشدة ألجأتها
الى الصمت ، وبدرت منها أنه خفيفة .

وقال لها بصوت منخفض : إني أحب أولادى أسمعهم ، ان ما
اعترفت به لشائن بالنسبة لأم . ولكنك أنت لى ، وأنا السيد ... أنا سيدك .
وفى وسعى أن أطاب اليك ما شئت متى شئت ... والقانون الى جانبي ...
وفى صالحى .

وحاول أن يسحق أصابعها بيده الضخمة ، وحاولت عبثا وهى تمتنع
الما ، أن تسحب يدها ، وأرغمها الألم على الأنين ، وبدرالدمع من عينها .

فقال لها : أنت ترين جيدا أننى السيد وأننى الأقوى .

وإذ خف ضغطه قليلا قالت : هل تعتقد أننى تقية ؟

فأجابها مندهشا : بلى .

قالت : هل تظن أننى أؤمن بالله .

— بل .

— وهل تظن أننى أكذب فى يمين القياها أمام هيكل مقدس ؟
— كلا .

— هلا صحبتنى الى الكنيسة ؟
— ولماذا ؟

— سوف ترى ، فهل تريد ؟
— اذا أصررت فلا بأس .

فنادت السائق قائلة له : سق الى كنيسة سان فيليب دى رول .
وكانت العرببة قد وصلت الى باب الغاية ، فلوى السائق العنان ، وارتد الى باريس

وصمت الزوج والزوجة خلال الطريق . فلما وقفت العرببة بباب الكنيسة ، نزلت الكونتة ودخلت ، وتبعها الكونت على قيد خطوات .
أما هى فذهبت توا الى باب المقدس ، وركعت فوق كرسي ، وخبأت وجهها بيديها وأخذت تصلى .

ولبثت تصلى طويلا ، ورآها الكونت أخيرا تبكى . وكانت تبكى صامتة كما يبكى النساء فى الأحزان الأليمة الكبرى . وكان جسمها يهتركله ، والأعين يخشع تحت أصابعها .

ورأى الكونت أن الموقف قد طال ، فمس كنفها بيده ، فانتهت كأنما أصابها مس النار ، ونهضت وحدقت مليا فى عينيه وقالت :

«إليك ما أريد قوله : لست أخشى شيئا ، وفى وسعك أن تفعل كل ما تريد ، بل لك أن تقتلنى اذا شئت . إن أحد أولادك ليس لك . وأقسم لك بهذا أمام الله الذى يسمعى هنا . وقد كان هذا هو الانتقام الوحيد الذى ارتكبته فى حقك ، وارتكبته ضد استبدادك الشنيع ، ضد هذه الأشغال الشاقة التى حكمت بها على . فمن كان خليلي ؟ هذا ما لن تعرف أبدا ، وسوف

تشك في جميع الناس ، ولكنك لن تظفر بأثره . ولقد استسلمت إليه دون حب ودون مسرة ، لكى أخونك فقط ، ولكنى حملت منه أيضا . فمن هو ولده ؟ هذا ما ان تعرف . فى سبعة أولاد ، وعليك أن تبحث عنه بينهم . وقد كنت أعترم ألا أفضى اليك بذلك الا بعد زمن طويل جدا ، اذ لا يتحقق الإنتقام من رجل فى حالة الخيانة ، الا اذا وقف عليها ، ولكنك أرغمتنى على الإفشاء اليك اليوم .

ثم هرولت خلال الكنيسة نحو الباب ، منتظرة أن تسمع وراءها الزوج المهان مهرولا ، وأن تلقى بها قبضته القوية على افريز الشارع . ولكنها لم تسمع شيئا ، وصعدت الى عربتها ، تضطرم جزعا ، وترتجف خوفا ، وصاحت بالسائق : « الى المنزل » . فسارت الخيل خبيا .

٢

لحأت الكونتة دى مسكاريه الى غرفتها ولبثت تنتظر ساعة العشاء كما ينتظر المحكوم عليه بالإعدام ساعة اعدامه . ترى ماذا سيفعل ؟ وهل عاد ؟ وما الذى دبره وأعدّه واعترمه ، وهو ذلك الطاغية المغرق المتأهب لكل عنف ؟ لم يرتفع صوت فى المنزل ، ولبثت تروق عقارب الساعة فى كل برهة . وجاءت الوصيقة لتساعددها على زينة المساء ، ثم انصرفت . ولما دقت الساعة الثامنة ، قرع بابها قرعا خفيا ، وظهر رئيس الخشم وهو يقول :
لقد أعد العشاء يا سيدتى الكونتة .

قالت : هل عاد الكونت ؟

أجاب : أجل يا سيدتى ، وهو فى غرفة الطعام .

نظرت لها مدى برهة أن تسليح بمسدس صغير كانت قد اشتريته استعدادا للأساءة التى تتخفى فى قلبها . ولكنها ذكرت أن الأولاد سيكونون جميعا هنالك ،

فلم تحمل معها غير زجاجة من الأملاح المنبهة .
ولما دخلت القاعة ألفت زوجها ينتظر واقفا بجانب كرسيه ، فتبادلا تحية خفيفة وجلسا . واتخذ الأطفال مقاعدهم . بفلس الأبناء الثلاثة مع مربيهم الأب ماران عن يمين الأم ، وجلس عن يسارها البنات الثلاث مع مربيتهم الآنسة سميث ، وترك الطفل الرضيع مع مربيته . وكانت كبرى البنات في العاشرة ، وصغراهن في الثالثة ، وكلهن شقراوات حسناوات . وأما أكبر الأولاد فكان في التاسعة ، وكلهم أقوياء .

غلب على الكونتة انفعال لم تتوقعه ، فلبثت خافضة العينين في حين أخذ الكونت يتأمل الأبناء الثلاثة حيناً ، والبنات الثلاث حيناً آخر ، بنظرات مربية تجول من رأس الى آخر ويعذبها الجزع . ثم انقلب كأس الكونت بخافة وانكسر ، فرفعت الكونتة عينها وتلاقت عيناهما لأول مرة ، ولبثا يتبادلان النظرات رغما عنهما ، ورغما عن انكماش فؤادهما ، ولاحظ الأب أن هنالك اضطراباً لم يدرك سببه ، فحاول أن يفتح باباً للحديث ولكنه قلب عدة موضوعات دون أن يفوه أحدهما ببنت شفة .

وحاولت الكونتة بلباقتها النسوية أن تجيب أكثر من مرة ، ولكنها كانت تبحث عن الكلمات في ذهنها عبثاً ، وكأنما كان يروعها صوتها إذا ارتفع في تلك القاعة الشاسعة ، التي لا يدوى فيها غير صوت الملاحق والصيحو . غير أن الكونت ارتد نحوها بخافة وقال : أتنقسمين لى في هذا المكان . وفي وسط أولادك على صدق ما صرحت به الى ؟

فثار بها الغضب المختمر في عروقها ، وحذجته بشدة ، وأجابت وهى تبسط يديها ، أحدهما نحو البنين الثلاثة ، والأخرى نحو البنات الثلاث ، بصوت ثابت قوى : أقسم برأس أولادى أننى قلت الحق .
فنهض الكونت عندئذ ، وألقى فوطته على المسائدة بغضب ، وجذب .

كرسيه نحو الجدار، ثم خرج دون أن يفوه ببنت شفة .
أما هي فقد أرسلت زفرة عميقة كأنها تحيي ظفرها الأول، وقالت بصوت
هادئ : لا تجزعوا يا أبناءى الأعزاء، فقد أصاب والدكم حزن شديد ،
وما زال يتألم كثيرا، وسوف يغيب عنا بضعة أيام .
ثم أخذت تحدث الأب ماران والآنسة سميث ، وتغدق على أولادها
عبارات العطف والملاطفة .

ولما انتهى العشاء ذهبت مع الجميع الى البهو، ولبثت حينما تتلو القصص
على الصبية، ثم قبلتهم، وصرقهم للنوم، وآوت وحيدة الى غرفتها .
ولبثت تنتظر كأنها لم تكن تشك في قدومه . أما الآن وقد بعد عنها
أطفالها، فقد اعتزمت أن تدافع عن جسمها، كما دافعت عن حياتها كامرأة
رفيعة، ولهذا خبأت في جيب ثوبها مسدسها الصغير .
وتعاقبت الساعات ونهدت كل حركة في المنزل، ولبثت تنتظر متحفزة
متهيجة، دون خوف ولا وجل، متأهبة لكل شيء، ظافرة لأنها ألفت له
عذابا يضنيه كل لحظة ومدى الحياة .

ولكن الفجر أخذ ينبثق من وراء الحجب دون أن يأتي، فأدركت
عندئذ ذاهلة أنه لن يأتي، فأغلقت بابها بالقفل والمزلاج وتمددت أخيرا
في فراشها، مفتوحة العينين، مفكرة، لا تفقه بعد، لا تدري ماذا سيصنع .
وفي الصباح، حينما حملت إليها وصيفتها الشاي، قدمت إليها خطابا
من زوجها، وفيه ينبأ بأنه اعتزم أن يقضى سفرة طويلة جدا، وأن مسجله
سيقدم إليها كل ما يلزم من المال .

كان ذلك في الأوبرا في فترة الاستراحة، وقد وقف الرجال في حلبة
الموسيقى، وقبعاتهم وقصباتهم الناصعة تبدو من الصديريات المفتوحة، مرصعة

بالذهب والجواهر، يسرحون البصر في المخادع (الألواح) الغاصة بنسوة عاريات النحور والصدور، مزدانات بالآلىء والجواهر، وكأنما يدعو جمال وجوههن ونصوع أكتافهن، النظرات، وسط الموسيقى والأصوات .

وكان ثمة صديقان، أدارا ظهرهما «للاركستر» يتأملان بالنظارة، معرض هذا الجمال الحق أو الزائف، ومعرض هذه الحلى، وذلك الترف الذى يغص به المسرح الكبير .

فقال أحدهما، وهو روجيه دى سالان لصديقه برنار جرانندان :
أنظر الى الكونتيسة دى مسكاريه، فهى حسناء دائماً .

فأرسل الآخر نظراته نحو مخدع مواجه تجلس فيه امرأة كبيرة القد، تبدو عليها الفتوة، وكأنما جمالها الباهر يدعو الانظار من جميع الأركان . وكان لونها الشاحب يجعلها كالتثال، وشعرها الأدهم يزينة تاج صغير من الجواهر . فتأملها جرانندان برهة وأجاب باهجة اليقين : أوافقك على أنها حسناء .

— ترى كم تباغ الآن من العمر ؟

— لانتظر، فأقول لك بالضبط، فإنى أعرفها منذ الحداثة، وقد رأيتها .

تبدأ الحياة فتاة؛ انها فى السادسة والثلاثين .

— يلوح أنها ما زالت فى الخامسة والعشرين .

— لقد رزقت سبعة أولاد .

— هذا مستحيل .

— وكلهم أحياء، فهى أم كاملة . أما عن منزلها فهو دائماً وافر السكينة .

والنظام . وهى تحقق مشكلة الأسرة الرفيعة .

— هذا غريب ! ألم يدع عنها شئ ما .

— أبدا .

— ولكن زوجها رجل غريب أليس كذلك ؟

— أجل ولا . فقد حدثت بينهما على ما يلوح مأساة صغيرة لا يشعر بها أحد ، ولا يعلمها أحد بالضبط ، ولكن يمكن التكهن بها عن كذب . ولست أعرف أنا شيئاً عنها . ولكن مسكاريه قد غدا اليوم جوالاً مرححاً ، بعد أن كان زوجاً كاملاً . وقد كان أيام استقامته الزوجية شنيع الخلال ، كثير الكآبة ، ولكنه مذ خاض المرح تبدلت خلاله ، ولكن يلوح أنه ذوهم أوحزن ، وهو لذلك بفرط في السهر .

وتحدث الصديقان بعد ذلك بضع دقائق عن الآلام الخفية التي قد يشيرها التباين في الخلال أو النفرة المادية في قلب الأسرة .

ثم قال دى سالان وهو لا يزال يتأمل الكونتيسة دى مسكاريه : لست أفهم كيف أن هذه المرأة جاءت بسبعة أولاد .

— أجل ، في إحدى عشر عاماً . ثم اختتمت أعوام انتاجها في الثلاثين ، لكي تبدأ عهد التمثيل الباهر الذي يلوح أنه لن ينتهى .
— وارضته للنساء .

— ولماذا تشفق عليهن ؟

— لماذا ؟ تأمل أيها العزيز حالة امرأة تنفق إحدى عشر عاماً في الحمل .
تبا له من حميم ! ان الشباب كله ، والجمال كله ، وأمل النجاح كله ، وكل المثل الشعرية للحياة الباهرة ، يضحي بها في سبيل قانون الإنتاج الشنيع الذي يجعل من المرأة العادية آلة بسيطة لإنتاج المخلوقات .
— وماذا تريد ، فهذا حكم الطبيعة .

— أجل ، ولكننى أقول ان الطبيعة عدوتنا ، وأنه يجب أن نقاتلها دائماً لأنها تردنا الى الحالة الحيوانية . وكل ما هنالك من جمال وإناقة وإبداع في الأرض ، لم يكن من صنع الطبيعة ، بل من صنع الرجل ، وصنع الذهن البشرى . فنحن الذين قد أدخلنا في الخليقة ، بالترنم بها ، وبتفسيرها ، وبالإعجاب بها في شعرنا ،

وتمثيلها فى فنوننا، وبحبها فى علمنا، شيئا من الظرف والجمال والسحر والخفاء .
ولم يوجد فى العالم غير مخلوقات خشنة ، تفيض بالجرائم والأمراض ، تقطع
بضعة أعوام من الإزدهار الحيوانى ، ثم تشيخ فى الأمراض ، وكل ما يسبغه
الإنحلال البشرى من عجز وسقم . والظاهر أن الانسان لم يخلق إلا لى ينتج
فقط ، ثم يموت كحشرات الصيف الطائرة . أقول أجل ! إنه لم يخلق إلا لإنتاج
فأى شىء أشنع فى الواقع من انتاج المخلوقات على هذا النحو المضحك الشائن ،
الذى تشور له كل النفوس الرقيقة ، وسوف تبقى نائرة الى الأبد ؟ ولماذا
لم يوهب الإنسان طرقا ووسائل أنقى للقيام بهذه المهمة المقدسة ، التى هى أنبل
الوظائف البشرية ؟ ان الفم الذى يغذى الجسم بالعناصر المادية ، يذيع الكلام
والفكر أيضا ، وبه يزدهر الجسم وتصل الفكر . والإنتعاش الذى يحمله الهواء
الى الرئتين يمد الذهن بكل عطر فى العالم ، عطر الزهر والغاب والشجر والبحر .
والأذن التى تصل ما بيننا ، قد ساعدتنا على اختراع الموسيقى ، وخلق الحلم
والسعادة واللا نهاية . ولكن يلوح لنا أن الطبيعة قد أرادت أن تمنع الإنسان
الى الأبد ، من أن يجعل من لقاء الرجل والمرأة مثلا عاليا نبيل . ومع ذلك فقد
وجد الإنسان الحب ردا على الطبيعة وملاؤه بالشعر . وقد استطاع أولئك
الذين لا يخدعون أنفسهم فى الهيام ، أن يخترعوا الرذيلة وأن يصقلوا الفجور
والملاذ ، وهو رد آخر على الطبيعة ، واجلال ونق للجمال . إن المخلوق العادى
ينتج الأطفال كالحیوان . فتأمل هذه المرأة ، أليس من المروع أن يتصور
الإنسان أن هذه الحلية ، هذه اللؤلؤة التى ولدت لتكون حسناء تعبد وتشير
الإعجاب ، قد أنفقت إحدى عشر عاما من عمرها فى انتاج ورثة للكونت
دى مسكاريه ؟

فقال جراندان ضاحكا : فى كل ما قلت كثير من الحقيقة ، ولكن كثيرا
من الناس لن يفهموك .

فقال سالان في حماسة : يكفى أن نتأمل لحظة لكي نفهم أن هذا العالم لم يجعل المخلوقات مثلنا . ان الفكر يتفتح ويتسع بأعجوبة عصبية من الخلايا التي في رأسنا ، وهو رأس عاجز جاهل يجعل منا جميعا ، نحن المفكرين ، أشقياء الى الأبد ، منفيين في هذا العالم . ألا فتأمل هذه الأرض وانظر لمن وهبها الله . ألم توهب للحيوان وتعمره به ؟ ماذا نفوز به منها نحن ؟ لا شيء . فللحيوان كل شيء ، له الكهوف ، والشجر ، والورق ، والمنايع ، والغذاء ، والشراب . وأولئك الذين تصعب الحياة عليهم مثل ، لا يجدون فيها خيرا . أما أولئك الذين يقتربون من الحيوان فهم الراضون . أما الآخرون وهم الشعراء ، وذوو الرقة ، والهائون ، والباحثون والحزنون ، فوارحمتهم لهم !

«إنا نأكل الخضر والبقول لأننا نرغم على أكلها ، بيد أنها غذاء المعز والأرنب وغذاء البقرة والحصان . إن الحيوانات لا عمل لها إلا أن تعيش في الأرض ، فهي في منازلها تقيم وتأكل ، وليس عليها إلا أن ترعى أو تصيد . أما نحن فعلينا أن نعمل ، وأن نبذل الجهد والصبر والاختراع والخيال والبراعة والعبقرية ، ومع ذلك فانظر كيف ترغمنا الطبيعة على الحياة الخشنة التي تنقصها النظافة والرفاهة والإناقة والتي لا تكاد تخلق بنا .

«وكلما تقدمنا في المدنية والذكاء ، وجب علينا أن نخضع الغريزة الحيوانية التي تمثل فينا ارادة الطبيعة .

« فتأمل كيف وجب علينا أن نخترع الحضارة التي تضم كثيرا من الأشياء من كل نوع : من الحذاء الى التليفون ، وانظر الى ما نراه كل يوم ، وما نستخدمه في مختلف الأمور .

«ولقد توسلنا الى تحسين مصيرنا ، باختراع كل شيء وصنع كل شيء ، فن المنزل ، الى الطعام الشهى ، الى الحلوى ، والمشروبات ، والأقمشة والأثاث والرياش والحلى والآلات التي لا تحصى ؛ كذلك اخترعنا الفنون

والعلوم والكتابة ، وأنجبنا الشعر والموسيقى ، فكل المثل العليا من صنعنا ،
وكذا كل ما فى الحياة من رقة وعظمة ، من زينة المرأة الى براعة الرجل .
«انظر الى تلك المرأة — الكونتيسة دى مسكاريه ، فقد خلقها الله لتعيش
فى كهف ، عارية أو متدثرة بجلود الحيوان . ولكن أليست أبدع هكذا ؟
وبهذه المناسبة أتدرى ، كيف ان زوجها الفظ ، بعد أن حصل عليها ،
وأولدها سبع مرات ، قد نبذها بفاة ليجرى وراء الغانيات ؟
أجاب جراندان : ربما كان هذا أيها العزيز السبب الوحيد . فقد
انتهى الى أنه من الصعب عليه أن ينام دائماً فى منزله ، ورأى أن واجب
الاقتصاد المنزلى ، يقضى عليه باتباع نفس المبادئ التى تضعها أنت للفلسفة .
وهنا قرعت الدقات مؤذنة بابتداء الفصل الأخير . فارتد الصديقان الى
مقعديهما ، ورفعوا قبعتيهما وجلسا .

٤

جلس الكونت والكونتيسة دى مسكاريه صامتين جنباً الى جنب
فى العربة التى تحملهما الى المنزل ، ولكن الكونت ما لبث أن قال بفاة :
يا جبرائيل .

قالت : ماذا تريد ؟

— ألا ترين أن هذا الأمر قد طال ؟

— وما هذا إذا ؟

— ذلك العذاب المروع الذى قضيت به على منذ ستة أعوام .

— وماذا تريد ، فلست أستطيع شيئاً ؟

— ألا تقولى لى أخيراً من هو ذلك الولد ؟

— كلا ، أبداً !

— اذكرى أننى ما عدت أستطيع رؤية أولادى أو أشعر بهم بالقرب

منى دون أن يمزقنى الشك . فقولى لى من هو ؟ وأقسم لك أنى أعفو عنك وأعامله كالباقين .

— ليس يحق لى هذا .

— ألا ترين أنى لا أستطيع بعد أن احتمل هذه الحياة ، وهذه الفكرة التى تنهشنى ، وهذا السؤال الذى أضعه لى نفسى دائماً ويعذبنى كلما رأيت أولادى . انى أكاد أجن لهذا .

فقلت : وهل تأملت اذا ؟

أجاب : أروع الألم . وهل كنت أفبل دون هذا ، روعة العيش الى جانبك ، وروعة شعورى بأنه يوجد بين أولادى واحد ، لا أستطيع الاعتراف به ، ولكنه يمنى من حب الآخرين .

قلت : اذا لقد عانيت حقاً وكثيراً .

فأجاب بصوت يشف عن الكتابة والألم : انى أكررك كل يوم أنى لا أستطيع احتمال هذا . وإلا فهل كنت أعود الى هذا المنزل الى جانبك وجانبيهم ، اذا لم أكن أحبهم ؟ لقد تصرفت فى حق أشنع التصرف . أنى أهب أولادى كل ما فى قلبى من حب . وأنت تعرفين هذا . وإنى لهم كأب من آباء العهد القديم ، كما أنى كنت لك زوجاً من أزواج العهد القديم ، لأنى بقيت رجل غريزة ، ورجل الطبيعة القديم . أجل ، لقد أثرت فى نفسى غيرة هائلة ، لأنك امرأة من جنس آخر وروح آخر ، ولك حاجات أخرى . أجل ، لست أنسى مدى الدهر ما قلته لى . فمن ذلك اليوم تركت كل اهتمام بك ، ولم أقتلك حتى لا تفلت من يدى الوسيلة الوحيدة لمعرفة الولد الزائف . وقد انتظرت ، ولكنى عانيت أروع مما تتصورين لأنى لم أجزؤ بعد أن أتهم أحداً منهم اللهم إلا الولدين البكرين ، ولم أعد أستطيع أن أراهم أو أناديهم أو أعانقهم أو أجلسهم فى حجرى دون أن أقول لى نفسى : « هذا هو » . وقد كنت

مع ذلك رقيقا فى حقك مدى ستة أعوام ، فقولى لى الحقيقة ، وأقسم لك
انى لن ارتكب أمرا سيئا .

وحسب الكونت أنه يراها فى ظلام العربى منفصلة متأثرة ، وشعر أنها
ستكلم أخيرا فقال : انى أتضرع اليك ، انى أتضرع اليك ...

فقال : ربما كنت جانبى أكثر مما تتصور ولكنى لم أستطع أن أمضى
فى تلك الحياة المشيرة ، حياة الحمل ؛ ولم أجد غير وسيلة واحدة لكى أبعادك
عن فراشى ، وقد كذبت أمام الله ، وكذبت ويدي مرفوعة فوق رأس أولادى ،
لأننى ما خشتك قط .

فأمسك بذراعها فى الظلام كليله أمسك به يوم نزهة الغابة المروعة ، وقال
مضطربا : أهذا حق ؟

أجابت : أجل ! هو الحق .

ولكنه قال ، وهو يضطرم ألما : إن الشكوك تحرق بى من جديد ،
ففى أى يوم كذبت أمس أم اليوم ؟ وكيف أصدق امرأة بعد هذا ؟
ولن أعرف قط أى خطة أسلك .

وهنا دخلت العربى فى فناء الدار ، فزل الكونت ، ومد ذراعه لزوجته
ليسندها حين صعود السلم . فلما وصلا الى الطابق الأول قال لها : هل أستطيع
أن أتحدث معك برهة ؟

أجابت : هذا ما أرغب فيه كل الرغبة .

فدخلوا الى بهو صغير ، أضواء الوصيف شموعه ، وانصرف .

ثم قال الكونت : كيف أعرف الحقيقة ، لقد تضرعت اليك ألف مرة
لتكلمى ، ولكنك بقيت صامدة جامدة لا تتحركين ، واليوم تقولين إنك كذبت .
وقد تركتني مدى ستة أعوام أعتقد صحة مثل هذا الأمر . بيد أنك تكذبين
اليوم ، ولست أدري لمأذا ، ولكن ربما خامرتك بى رافة .

فقلت بلهجة المخلص الوائق : لو لم أكذب لملت في الأعوام الستة الأخيرة بأربعة أولاد آخرين .

فصاح بها : أهكذا نتحدث أم ؟

فقلت : لست أشعر اطلاقا بأنى أم أولاد لم ألدهم ، ويكفينى أنى أم أولئك الذين رزقت بهم والذين أحبهم من كل قلبى . إنى ، بل نحن ياسيدى نساء من العالم المتمدنين ؛ ولم نعد ، ولا نريد أن نكون بعد ، أولئك الإناث اللائى يعمرن الأرض .

ثم نهضت ، ولكنه أمسك بيديها قائلا : كلمة ، كلمة فقط يا جبرائيل .
قولى لى الحقيقة .

قالت : لقد قلنا لك وما خنتك قط .

فحدق مليا فى وجهها البديع ، وعينها الخضراوين ؛ وعندئذ شعر بخفة ، شعر فى نوع من الوحى أن هذا المخلوق لم يعد بعد امرأة خصصت لتخليد نسله .

ولكنه ثمرة كل أهوائنا الغربية المعقدة ، التى ركبت فىنا منذ العصور ، وحولت عن غايتها الأصلية السماوية ، فسارت هائمة نحو جمال روحى لا يدرك . وإنهن كذلك ، بعض أولئك اللائى يزدهرن لأحلامنا فقط ، متجمعات بكل ما أودعت الحضارة فى الشعر ، وفى الترف الأمثل ، والدلال والسحر حول المرأة — ذلك التمثال الحى الذى يبعث الحياة ، كما تبعث الحمى الحواسية ، الأهواء المعنوية .

وقف الزوج جامدا أمام زوجه ، دهشا من ذلك الإكتشاف الغامض المتأخر ، باحثا فى حيرة عن سبب غيرته القديمة ، مضطربا فى فهم الأمر جميعه .
ثم قال أخيرا : إنى أصدقك ، وأشعر أنك لا تكذبين فى هذه اللحظة ، بل لقد لاح لى فيما مضى دائما أنك كنت كاذبة .

فمدت اليه يدها قائلة : اذا فنيحن صديقان ؟
فتناول اليد وقبلها قائلاً : أجل نحن صديقان . شكراً لك يا جبرائيل .
ثم خرج ، وهو يتأملها دائماً وقد سحره أنها بقيت على هذا الحسن ،
وشعر بانفعال غريب ، أشد وأروع من الحب الفطري القديم .^(١)

(١) هذه هي القصة الأولى من مجموعة *L'Inutile Beauté* وهو نفس عنوانها .

الناسك

ذهبنا مع الأصدقاء لنرى الناسك الشيخ الذى يقيم فى قبة قديمة تظللها الأشجار الباسقة وسط السهل الشاسع الذى يمتد من كان الى نابول .

وجعلنا عند العودة نتحدث عن أولئك الناسك الدنيويين وغريب أطوارهم ، وقد كانوا كثيرين من قبل ، ولكن جنسهم ينقرض اليوم ، وأخذنا نبحث عن الأسباب النفسية ونتعرف طبائع الأحران ، التى كانت تدفع بالناس فيما مضى ، الى وحشة العزلة .

فقال أحد أصحابنا فجأة : لقد عرفت فريدين ، رجلا وامرأة ، أما المرأة فعملها ما زالت حية ، وكانت تسكن منذ خمسة أعوام طلالا فى أكمة جبل قفر على ساحل كورسيكا ، يبعد عن الأحياء العامرة زهاء عشرين كيلومترا . وكانت تعيش هنالك مع خادمة لها ، فذهبت لرؤيتها . ولا ريب أنها كانت سيدة من الطبقة الراقية ، لأنها استقبلتني بحفاوة بل وفى ظرف رقيق ، ولكنى لم أعرف شيئا عنها ولم أحزر

أما الرجل ، فسوف أقص عليكم قصته الموحشة

ارتدوا بأبصاركم فترون هنالك تلك الأكمة المدببة الغاصة بالأشجار التى تتفصل فيما وراء نابول ، منفردة بنفسها فى مقدمة آكام «استيريل» وهى التى يسميها أهل تلك الجهة بجبل الثعابين . فهناك كان يقيم «ناسكى» فى خرائب معبد قديم منذ زهاء اثنتى عشرة سنة .

وقد سمعت به فاعتزمت أن أتعرف به ، فذهبت إلى كان على ظهر الجواد ، ذات صباح من مارس . ثم تركت جوادى فى فندق نابول ، وأخذت أقطع سيرا ذلك المخروط الغريب الذى يرتفع عن الارض زهاء مائتى مترا ، وتغطيه النباتات العطرة ، حتى لقد يصيب المرء حين اختراقه الدوار لقوة أريجها ؛

والأرض هنالك حجرية ينسل الى شقوقها كثير من الزواحف الصغيرة، ومن ثم سميت بأكمة الثعابين . وهنالك تروءك كثرة هذه الحشرات وتشعر كأنها تولد تحت قدميك . نخيل لى وأنا أصعد هذه الهضبة، انى أرقى جبلا عتيقا مقدسا، وتلا غريبا يغطيه العطر، وينبثق منه الخفاء، يغص بالأزهار، وتعمره الزواحف، وتوجه خرائب المعبد .

وهذا المعبد ما زالت خرابثه قائمة، فقد أكد لى على الأقل أنه معبد، بيد أنى لم أحاول أن أبحث فى تاريخه أكثر من ذلك، احتفاظا بما خالبنى من انفعال وتأثر .

تسلقت الأكمة إذن فى ذات صباح من مارس، بحجة مشاهدة مناظر الطبيعة، فلما وصلت الى القمة رأيت الخرائب، ورأيت هنالك رجلا يجلس فوق حجر. ولم يكن تزيد سنة عن الخامسة والأربعين وإن كان الشيب قد عم رأسه، ولكن لحيته ما زالت سوداء . وكان يداعب هرة تنام على ركبتيه وكأنه لم يلاحظ مفدحى، فدرت حول الخرائب . وكان قسم منها مسقفا، موصدا بالأغصان والقش والأعشاب والحصى، وكان هذا مسكنه، ثم عدت الى جانبه .

والطبيعة هنالك بديعة جدا، فانك ترى جبل استريل ذا الآكام المدببة، ثم البحر الزخار، يمتد إلى ما بعد قيد البصر الى ايطاليا ورؤوسه العديدة . وترى أمام كان جزر ليران خضراء منبسطة وكأنها عائمة، وفى أنحراها يقوم حصن قديم ذو أبراج بنيت فوق الموج ذاته .

وترى نحو الشرق جبال الألب وآكامها الشاهقة غائضة فى البرد .

فغممت قائلا، ما أبجل هذا !

فرفع الرجل رأسه وقال « أجل، ولكن المنظر يغدو عاديا اذا رأيته

كل يوم» .

وإذن فقد كان يتكلم ، وكان يتصجر .

ولم أمكث طويلا هناك يومئذ ، بل حاولت فقط أن أتعرف نفسيته ، فشعرت بالأخص أنه مخلوق سئم عشرة غيره ، وإن نفسه تفيض من نفسه اشمئزازا وخيبة أمل .

فتركته بعد ان حادثته نصف ساعة . ولكنى عدت بعد ثمانية أيام ، ثم عدت ثالثة بعد أسبوع ، ثم اعتدت أن أراه كل اسبوع ، فلم يمض شهران حتى كنا صديقين .

ففى ذات مساء من آخر ما يورأت الوقت قد حان ، فحملت طعاما نتعشى به معا على أكمة الثعابين .

وكان مساء جنوب زاه منعش ، من تلك الأمسية التى تزرع فيها الأزهار فى الجنوب كما يزرع القمح فى الشمال ، فى تلك البلاد التى تصنع فيها كل الروائح التى تعطر لحم النساء وأثوابهن : أحد هذه الأمسية التى ترسل فيها بساتين البرتقال الكثيرة فى تلك الأنحاء شذاها ، فتسحر الناس ، وتبعث الحب الى قلب الشيوخ .

فاستقباني ناسكى بحيا يتهلل ، وقبل أن يشاطرني طعامى رحبا . فسقيته شيئا من النبيذ الذى اعتاد مقاطعته منذ أعوام . فانتعش وأخذ يتحدثني عن حياته الماضية . والظاهر أنه كان يسكن باريس دائما ، وكان ينفق أيامه أعزب طروبا .

ثم سألته بفاة : أى خاطر غريب ساقك الى أن تنقطع فوق هذه الأكمة ؟ فأجابني على الاثر : آه ، ذلك لأننى أصبحت بشر صدمة يصاب بها امرؤ . ولكن لم أكنم عنك هذه النكبة ؟ انك قد ترى لى . ثم لاني لم أفض بسرى الى أحد ، لم أفض به قط وأريد أن أعرف مرة ماذا يرى فيه غيرى ؛ وبم يصدر حكمه على ...

لقد ولدت في باريس ، وريت فيها ، فترعرت وعشت في هذه المدينة . وترك لى والدى بضعة آلاف من الفرنكات ايرادا ، ثم ان كبيرا ساعدنى على الالتحاق بوظيفة متواضعة هادئة ، كانت ثروة بالنسبة لأعزب .

وقد عشت منذ حداثنى عيشة أعزب . وأنت تعرف ما هى . وإذ كنت حرا لا أسرة لى ، وإذ كنت أعتزم ألا أتخذ زوجة شرعية ، فقد كنت أنفق ثلاثة أشهر مع واحدة ، وسنة مع أخرى ، ثم سنة بلا صاحبة أخوض فيها جماعة البنات الساقطات أو اللاتى يبعن .

وكانت هذه الحياة الوضيعة ، المبتذلة اذا شئت ، تلائم أذواقى الطبيعية من القلب والمرح . فكنت أعيش فى الشوارع ، وفى المسارح والمقاهى ، دائما فى الخارج ، لا أؤم منزلى تقريبا مع أنى كنت أتخذ مسكنا حسنا . كنت أحد هذه المخلوقات الجمة الذين يحملهم تيار الحياة فيستسلمون اليه ، والذين يرون فى جدران باريس جدران العالم بأسره ، والذين لا يهتمون لأمر ، ولا يشغفون بشىء . كنت ما يسمونه فى حسنا لا خلال له ولا نقائص . هكذا كنت ، وحكى صحيح .

وهكذا لبثت حياتى من العشرين الى الأربعين ، تمر بطيئة سريعة ، لا يشوبها حادث بارز . ولما كانت أعوام باريس المتماثلة تمر سريعة ، فقلما يرسخ فى الذهن من تلك الأعوام الطويلة العاجلة ذكرى أو تاريخ معين ، ولا غرو فكلها مبتذلة طروبة ، تقضى فى الشرب والأكل والضحك الذى لا تدرك له سرا ، وفى تقبيل الشفاه التى تقدم لكل ذائق ومقبل . ولأنت فى ، فاذا بك تهرم دون أن تؤدى شيئا مما يؤديه الآخرون : دون أن ترتبط أو تتصل ، أو ترسخ قدمك فى شىء ، ودون أن يكون لك صحب أو أهل أو نساء أو أولاد .

وهكذا وصلت الأربعين فى رفق وعجلة معا . واعتزمت للاحتفاء بهذا

العيد، أن أقدم لنفسى فقط، عشاء طيبا فى مطعم كبير. ولا غرو فقد كنت وحيدا فى العالم، ولذا سرنى أن أحتفل بهذا التاريخ وحدى .

وبعد العشاء ترددت فىم أصنع . فكرت أولا أن أذهب الى المسرح، ثم خطر لى أن أذهب حاجا الى الحى اللاتينى، الذى أتممت فيه دراسى لل حقوق فىما مضى . فاخترت باريس ، وازدلفت بلا عمد، الى احدى هاته الحانات التى تخدم فيها البنات .

وكانت تلك النى تعنى بمائدتى فتيسة جدا، حسناء ، ضاحكة؛ فقدمت اليها شرابا تناولته للحال، وكانت تجلس تجاهى، وتحدثنى بعينها الثاقبة، دون أن تعرف أى رجل هذا الذى ترى . وكانت شقراء نضرة جدا، تخيلتها وردية عبلة، تحت ثوبها المنتفخ . فأفضيت اليها بعبارات غرامية بخيفة، من تلك التى تقال دائما لهاته المخلوقات . ولما كانت ساحرة حقا، فقد خطر لى بفاة أن أصطحبها ... وذلك حبا فى الاحتفاء بالأربعين كذلك . ولم يكن الأمر طويلا أو عسيرا، فقد كانت حرة منذ خمسة عشر يوما على قولها، فقبلت أن تأتى أولا للعشاء فى (هال) بعد أن ينتهى عملها .

ولما كنت أخشى ألا تبر بوعدى ، اذ ليس يعلم انسان قط ماذا عسى يحدث فى هذه الحانات، أو ماذا تهب من الرياح فى رأس امرأة، فقد لبثت أنتظرها طول السهرة . وكنت حرا أيضا، منذ شهر أو اثنين، فكنت أجدج هذه الحسناء، البادئة فى الحب وهى تسير من مائدة الى أخرى، لأرى ماذا كنت قد أحسنت صنعا باستئجارها الى حين .

انى أقص عليك إحدى هاته المخاطر اليومية العامة، التى هى ظاهرة لحياة الرجل فى باريس، ولكن أصفح عن هذه التفاصيل المملة . ذلك لأن أولئك الذين لم يحبوا الحب الشعرى، يأخذون النساء ويختاروهن، كما يختارون ضلع الضأن فلا يفكرون فى غير مزاياء لحمه .

اصطحبتها عندها اذن ، وليس عندي ، لأني كنت أحترم فراشي ، فوجدتها تسكن جناح عاملة صغيرة ، في الطبقة الخامسة ، نظيفا وضيقا . وقضيت هنالك ساعتين ساحرتين ، والحق أنها كانت ذات ظرف وسحر نادرين .

ولما هممت بالذهاب تقدمت نحو المدفأ لأضع فوقه الهبة المعتادة ، وذلك بعد أن ضربت معها ميعادا آخر ، فغانت مني التفاتة الى وعائين من الزهر ، وصورتين ، احدهما قديمة جدّا ومن الطراز القديم ، فانثنت نحوها عرضا ، ووقفت جامدا صعبا لا أفهم . ذلك لأنها كانت صورتى ومن أوليات صوري ، التي كنت أصنعها حينما كنت أعيش طالبا في الحى اللاتينى . فامسكتها بلهفة لأفحصها عن كذب ، فلم أكن مخطئا ، وغلبني الضحك لأني رأيت الأمر مفاجأة غريبة مضحكة وسألتها : من هذا السيد ؟

فأجابتنى وهى ما تزال فى الفراش ، هذا أبى الذى لم أعرفه . وقد أعطتنى إياه والدتى وأوصتنى بالمحافظة عليه لعل ذلك ينفعنى ذات يوم ...

ثم ترددت وأخذت تضحك وهى تقول : « ولست أدري بم ينفع ، ولست أظن أنه سياتى ليعترف بى » .

وكان قلبي يخفق عندئذ بشدة كأنه خيب جواد جامح . فوضعت الصورة على ظهرها فوق المدفأ ، ثم وضعت فوقها دون أن أدري ماذا أصنع ورقين بمائتى فرنك كانتا فى جيبي ، وفررت قائلا : « الى اللقاء يا عزيزتى ، الى اللقاء ! » .

فسمعتها تقول : « الى يوم الثلاثاء » . وكنت فى السلم المظلم أقطعها تلمسا .

فلما صرت خارجا ، رأيت المطر ينهمل ، فأنحدرت مسرعا الى أحد الشوارع ، وكنت أسير أمام نفسى ذاهلا مرتاعا أحاول التذكر . أمممكن هذا ؟ نعم ذكرت بغاة أن فتاة كتبت لى ذات مرة بعد نحو شهر من فراقنا أنها

تحمل منى فزقت الخطاب وأحرقته ونسيت كل ذلك . وكان واجبا أن ألخص صورة المرأة التى فوق مدفا الفتاة . ولكن أكنت أعرفها؟ اذ يلوح لى أنها كانت صورة امرأة عجوز .

ووصلت الى ضفة النهر، فارتيمت على مقعد وكان المطر ما زال ينهمل، والناس يمرون من وقت لآخر تحت المظلات . فتبدت لى الحياة كريهة مثيرة غاصة بصنوف البؤس والخزى والعار، الظاهرة أو المستترة . ابنتى ! لعل قد ملكت ابنتى . وباريس تلك المدينة الكبرى المظلمة الموحشة، المتعرجة الكثيبة، السوداء، وكل ما فيها من المنازل المغلقة، انما تفيض بأمثال هذه الأمور؛ تفيض بالفسق، وعشرة المحارم، وانتهاك الأولاد .

وأذكر أنى سمعت ما يقال عن بعض أولئك الأوغاد السفلة . ولكنى قد ارتكبت دون عمد ودون علم، أشنع ما يرتكبه هؤلاء . لقد دخلت فى فراش ابنتى !

وكدت ألقى بنفسى فى النهر؛ كنت مجنونا بفعلت أهم على وجهى حتى الصباح ثم عدت الى منزلى لأفكر .

وصنعت عندئذ ما رأيته خيرا للحلول، فرجوت مسجلا أن يدعو الفتاة اليه، وأن يسألها عن الظروف التى تركت لها فيها أمها صورة ذلك الذى تعتقد أنه والدها، قائلا أننى كلفت بذلك من صديق؛ فنفذ المسجل ما أردت . وكان أن تلك المرأة قد عينت لا بلتها صورة والدها، وهى تعالج سكرات الموت وذلك أمام كاهن ذكر اسمه . فعندئذ باسم ذلك الصديق أيضا، وهبت للفتاة نصف ثروتى، وهو نحو مائة وأربعين ألف فرنك، لا تقبض سوى ربعها، ثم استقلت من وظيفتى وها أنا ذا .

رأيت وأنا أهم فى تلك الأنحاء، تلك الأكمة فوقفت بها ... لإلام؟ هذا ما أجهله .

فماذا ترى فى أمرى وفيم صنعت ؟
فأجبتة وقد مددت يدى إليه : لقد صنعت ما كان واجبا أن تصنع ؛ وقد
كان كثير غيرك يعلقون على ذلك القدر المشئوم أهمية أقل مما عقلت .
فقال : هذا ما أعرف . ولكننى كدت أجن ، والظاهر أن كانت روحى
حساسة جدا دون أن أدرى ، وقد خشيت باريس كما يجب أن يخشى المؤمنون
من الجحيم ، وقد أصابتنى ضربة فى الرأس . ولكن نفسى قد برئت نوحا منذ حين .
فغادرت ناسكى وقد تأثرت لقصته كل التأثر .
ورأيتـه مرتين بعد ذلك ثم رحلت .
فلما عدت الى الجنوب فى العام التالى لم أجده فوق الأكمة ، ولم أسمع
عنه بعد ذلك قط .
وهذه هى قصة ناسكى ^(١) .

(١) أخذت هذه القصة من مجموعة La Petite Roque .

على القبر

انتهى الأصدقاء الخمسة من تناول العشاء — وهم خمسة رجال، راقون، ناضجون، أغنياء، تزوج ثلاثة منهم، وبقى اثنان بلا زواج . وكانوا يجتمعون كل شهر لاستعراض ذكريات الشباب، ويتسامرون بعد العشاء حتى مطلع الفجر، ويطربون بهذا الاجتماع أيما طرب، بل لعلهم يرون فيه أحسن أمسية في حياتهم . وكان الحديث يدور على كل شئ يشغل الباريزيين . ويسليهم . وكان أشدهم مرحا جوزف دى باردون، وهو عزب يحيا الحياة الباريزية على أكمل نحو وأظرفه . ولم يكن خليعا، ولا ساقطا، ولكنه كان متطلعا، فرحا . وما زال شابا لأنه لم يجاوز أربعين . وكان رجلا أنيقا بكل معنى الكلمة، كثير الملح دون تعمق، ذا معارف متبينة دون متانة، وذا فهم يقظ دون نفاذ خطير . فكان يستخرج من ملاحظاته، ومغامراته، ومن كل ما رأى ووجد، قصصا فلسفية مضحكة معا، وتعليقات طريفة تجعل له شهرة واسعة بالذكاء .

وكان خطيب العشاء . وكان له في كل مجال قصة يرويها دون أن يرجوه أحد .

وكان يدخن، معتمدا بمرفقيه على المائدة، وأمامه قدح نصف مملوء بالشمبانيا، وجو الغرفة يتنفس عطر الدخان وحرارة القهوة . وكان يشعر في هذا المقام أنه دائما في منزله، كما يشعر بعض الناس بذلك في أمكنة وفي لحظات معينة، أو كالعابد في زاويته .

قال في نفثة من الدخان : لقد وقع لى منذ حين حادث غريب .

فقال الجميع في صوت واحد : أرو لنا ذلك .

فقال : سمعا وطاعة . تعرفون أنى أكثر التجوال فى باريس، وأترىص

بالمناظر والناس ، وبكل مار وكل حادث . ففى نحو منتصف سبته بركان
الجو بديعا جدا ، فخرجت ذات عصر دون أن أعرف أين أسير . والمرء
يأنس دائما رغبة غامضة فى زيارة أية امرأة حسناء ، فيستأد اختياره ، ويفارن
بينهن فى ذهنه ، ويزن ما يثرن فيه من اهتمام ، وما يفرضن عليه من سحر ، ثم
يعترم عزمه طبقا لما يوحى اليه . ولكن الشمس اذا كانت بديعة ، والهواء
فاترا ، فإن رغبة الزيارة قلما تخطر لك .

وكانت الشمس بديعة ، والهواء فاترا ، فأشعلت سيكارا ، وسرت متمهلا ،
وإذ قد خطر لى أن أستمز فى السير حتى مقبرة مونمارتر .

وإنى أحب المقابر كثيرا ، فهناك تهدأ نفسى وتفيض كآبة . ونفسى
فى حاجة الى السكينة والوحشة . ولنا هنالك أصدقاء أعزاء لا نراهم بعد .
ولذا أذهب هنالك من وقت لآخر .

ولى فى مقبرة مونمارتر هذه أيضا حديث قلب : لى خليلة كانت فتاة
ساحرة ، تؤلمنى ذكراها ، وتشير فى نفسى كل شجن ، فأذهب هنالك لأطلى
العنان فوق قبرها لتصوّراتى ...

ثم انى أحب المقابر لأنها بطن عظيمة أهلة بالسكان . فتصوّروا كم ميت
فى ذلك الفضاء الصغير من كل الأجيال ، يرقدون هنالك الى الأبد ، فى تلك
الأوكار الصغيرة التى تغطيها الحجارة أو يعينها الصليب ، بينما يشغل الأحياء
أيما فضاء ، ويشيرون أيما ضجيج .

دحلت مقبرة مونمارتر اذن ، وتولانى بغاة حزن عميق ، هو ذلك الذى
يملك على التفكير وأنت صحيح مرير : « انه مقام روعة ولكن ساعى لم تأت
بعد » . وكان أثر الخريف ، وما يحمل من تلك الرطوبة الفاترة التى تنبعث
من الأوراق الذابلة ، والشمس المنعبة الضعيفة الباهتة ، يؤكد شعور الوحشة ،
ويشير فى النفس ذكرى تلك الخاتمة الأبدية التى ترفرف على هذا المكان .

فسرت بخطوات بطيئة في تلك الشوارع الحافلة بالقبور، والتي لا يتجاوز فيها
الخيران بعد ولا يبيتون معا، ولا يقرأون الصحف . وجعلت أقرأ الأسماء
المنقوشة على مهل .

ولم ألبس في هذه المقبرة بالأخص، نأيتها ووحشتها وقدمها .
فلم أأنفقت هنالك من الوقت ما يكفى لترويح النفس ، خشيت أن
أضجر، ورأيت أن أحل الى صاحبتى الزاهية ذكرى الإخلاص والحب .
وكان قلبى ينكمش حينما وقفت بقبرها . فوارحمته لهذه العزلة المسكينة ،
التي كانت تفيض رقة وحنانا ونعومة !

انثيت فوق السياج الحديدى ، وهمست اليها بحزنى الذى لا تسمعه
بلا ريب . وهممت بالذهاب ، فلمحت امرأة ترتدى السواد ، وتجتو أمام
القبر المجاور . وكان نمارها الأسود المرفوع ، يشف عن رأس أشقر بديع كأنما
يضىء خصلاتها نور الفجر تحت ليل سواد ثيابها . فوقفت ، وخيل لى أنها
تعانى حزنا عميقا ، لأنها كانت تحب وجهها بين يديها ، وترسل عنان تصوراتها
كالتشال ، أو كهيئة . ثم خيل لى فجأة أنها ستبكى ، ثم بكت فى رفق أول
الأمر ، ثم علا بكائها ، واهتركتها زفيرا . ثم رفعت يديها عن وجهها فجأة
فكانت عينها تفيض بالدمع والسحر ، عين هائمة أرسلتها حولها كأنها أفاق
من كابوس . فرأيتنى أنظر اليها ، وكأنما نجمت من ذلك نخبأت وجهها ثانية .
وعندئذ تحول زفيرها الى تشنج ، ومال رأسها ببطء على حافة الرخام ، وأسندت
جبينها اليه ، وانفرد نمارها من حولها على زوايا القبر الأبيض كأنه حزن جديد .
وسمعتها تنن ثم تسكن ، وخذها على الرخام ، ثم تلبث جامدة فاقدة الرشده .

فهرولت اليها ، وأخذت أروح على جفניה ، وأفرك يديها ، وأنا أقرأ على
القبر «هنا يشوى لوى تيودور كاريل ، ضابط فى قسم المشاة البحرية ، قبله
العدو فى طونيكين . صلوا لأجله» وكانت الوفاة ترجع الى بضعة أشهر ،

فانقبضت نفسى حتى سال دمعى ، وضاعفت عنايتى حتى أفأقت . وكانت
التأثر الشديد باديا على وجهى ، ففهمت من نظراتها الأولى أنها وافرة التأدب
والعرفان ، ففاض دمعها ثانية ، وأخذت تقص تاريخها بين الزفرات والدموع
فى عبارات متقطعة خارجة من صدرها المضطرب ، وكيف توفى الضابط
الميت لعام واحد من زواجه ، بعد أن تزوجته حباً وهوى ، لأنها كانت يتيمة
الأب والأم .

فعزيزتها وشجعتهما وأنفضتها ثم قلت لها : هيا ولا تلبى هنا بعد .

فقلت : لست أقوى على السير .

قلت : سأساعدك .

قالت : شكرا يا سيدى ، إنك للكرم فهل أتيت مثلى تبكى مينا ؟

أجبت : أجل يا سيدتى .

قالت : أميتة ؟ أجبت : نعم يا سيدتى .

قالت أزوجة ؟ أجبت كلا بل صاحبة .

قالت : قد يحب المرء صاحبه قدر ما يحب زوجه . وليس للهوى

قانون .

قلت : أجل يا سيدتى .

وهكذا سرنا معا ، وهى تنكى على . وأنا أكاد أحملها فى طرفات المقبرة .

فلما خرجنا غمغمت متخاذلة : أشعر أنى أكاد أسقط .

قلت : فهل تريدن أن ندخل محلا ما وأن نتناول هنالك شيئا ؟

أجبت : نعم يا سيدى .

فلمحت بالقرب منى مطعما ، هو أحد هذه المطاعم التى يؤمها أصدقاء

الموتى للاحتفاء بانتهاء سنوتهم . فدخلنا ، ولما شربت قدحا من الشاى الحار ،

انتعشت قليلا ، وبدت على شفيتها ابتسامة غامضة . فحدثتني عن نفسها .

وكانت في حالة مؤسسية جدا ، ولشد ما يؤسى أن تكون وحيدة في الحياة ، وحيدة في منزلها ، بالليل والنهار ، لا تجد من تغدق عليه عطفها وثقتها وحنانها . وكان يبدو على محياها الصدق ، وكان ثغرها ساحرا ، حتى جاشت نفسى حنانا . وكانت فتية جدا ، قد لا تتجاوز العشرين . فبدأت أقدم اليها تحياتى وهى تستقبلها شاكرة . ولما كان الوقت قد تأخر ، اقترحت أن أصحبها الى منزلها في عربة ، فقبلت . وفي العربة التصق كل منا بصاحبه حتى اختلطت الثياب والحرارة ، وهو لعمري أشد ما يثير .

فلما وقفت العربة بمنزلها غمغمت قائلة : أشعر أنى لا أستطيع الصعود وحدى لأنى أقيم في الطبقة الرابعة . فهل أستفضل بمساعدتى حتى مسكنى ؟ فبادرت بالقبول ، وأخذت تصعد ببطء . فلما وصلنا الى الباب قالت : ألا تدخل بضع دقائق حتى أستطيع شكرك ؟ فدخلت طبعاً .

وكان مسكنها متواضعا ، بل تبدو عليه بعض مظاهر الفقر ، ولكنه بسيط حسن النظام .

بخلسنا جنباً إلى جنب ، وأخذت تحدثنى من جديد عن وحشتها . ثم قرعت جرساً وأمرت خادمتها أن تقدم لى شيئاً لأشربه ، ثم لم تأت الخادمة بعد . فطربت لذلك لاعتقادی أنها من خادمات اليوم فقط . وكانت قد رفعت قبعتها . وكان لها رأس ساحر حقاً ، فأخذت تحدثنى بعينها الصافيتين ملياً ، حتى مالمكتنى رغبة لم أستطع أن أفأولها ، فطوقتها بذراعى بخاة ، وانهلث لثماً على عينيها اللتين أغلقتا بخاة .

وكانت تقاومنى وتدفعنى قائلة : ما هذا ؟ ما هذا ؟ ماذا كانت تعنى هذه العبارة ؟ انها تعنى فى مثل هذا الظرف على الأقل أمرين . فحولت قبلاقى الى فيها مفضلاً أن أفسر العبارة على ما انتهى .

فلم تقاوم كثيرا . فلما التقت نظراتنا ثانية بعد الذى أسأنا به الى ذكرى الضابط الميت ، لاحظت عليها امارات الفتور والخيال والاستسلام ، حتى تبدد كل ريب فى نفسى ، فغدوت شهما كثير العرفان . وبعد حديث مستفيض ، قلت لها : أين لتناولين عشاءك ؟

أجابت : فى مطعم صغير بالقرب من المنزل .

قلت : هل تتعشين وحيدة ؟

أجابت : نعم بالطبع .

قلت : هل تتعشين معى ؟

أجابت : وأين هذا ؟

قلت : فى مطعم من المطاعم الأنيقة .

فعارضت قليلا ، ثم رضيت أخيرا وهى تقول «انى أتضجر ... أتضجر كثيرا » ثم قالت : «يجب أن أرتدى ثوبا أقل كآبة من هذا» ثم دخلت غرفة نومها ، وعادت فى ثوب قاتم ظريف ساحر وفى زينة بسيطة . وكان العشاء بهجا فشربت بعض الشمبانيا ، وانتعشت ، وأضاء محياها . ثم عدت معها الى منزلها .

واستمرت هذه العلاقة التى ارتبطت على القبور بضعة أسابيع . ولكن المرء يعاف كل شئ ولا سيما النساء . فتركتهما محتجا بسفرة طارئة . وأثبتها بكرم شكرتى عنه أوفر الشكر ، وطلبت أن أعاهدها على العودة اليها متى عدت ، لأنها كانت ، على ما يلاحظ ، تخلص لى بعض الشئ .

وجريت وراء لذات أخرى ، ومر شهر قبل أن أفكر فى جبهة القبور الصغيرة ، ومع ذلك فإنى لم أنسها ...

وكانت ذكرها تعاودنى ، وكأنها لغز أو معضلة نفسية أو احدى هذه المسائل التى نحار فى حلها .

ولا أدرى لم تصورت ، ذات يوم ، أنى سآراها فى مقبرة مونمارتر ،
فذهبت الى هنالك .

ولبثت أتجول هنالك طويلا دون أن أقابل أحدا غير الزوار العاديين ،
أعنى أولئك الذين لم يقطعوا بعد كل رابطة بالموتى . ولم يكن ثمة بايكات على
قبر الضابط الذى قتل فى طونكين ، ولا زهور ولا أكاليل .

ولكنى إذ أتجول فى ناحية أخرى من تلك المدينة الحافلة بالموتى ، لمحت
بجأة ، فى نهاية ممر ضيق ، شخصين يرتديان السواد : رجل وامرأة . ولششد
ما كانت دهشتى حينما اقتربت المرأة وعرفتها : لقد كانت اياها .

فراثنى واحمرت . وأشارت لى ، وأنا أمر الى جانبها ، بطرفها اشارة
ذات مغزى ، وكأنها تقول لى « ألا تعرفنى » أو « عد الى يا عزيزى » .
وكان الرجل أنيقا ، يحمل وسام الشرف ، وفى نحوه الخمسين من عمره .
وكان يسندها ، كما كنت ، عند مغادرة المقبرة .

فعدت ذاهلا أسائل نفسى عما رأيت ، والى أى جنس من البشر تنتهى
هذه الصائدة بين القبور : هل كانت حقا فتاة ساذجة ، أم كانت عاهرا
ذكية ، تجتنى فوق القبور حزانى الرجال ، الذين يساورهم شبح امرأة : زوج
أو خاليلة ، وما زالت تؤسفهم ذكرى الخيال الذاهب ؟ وهل كانت وحيدة
من نوعها ؟ أم تنتمى الى جماعة عديدة ؟ وهل تلك مهنة ؟ وهل تجعل
المقبرة كالافريز فيؤمها صائدات المقابر ؟ أم هل ابتكرت من تلقاء نفسها تلك
الفكرة البديعة ، ذات الفلسفة العميقة ، فى استثمار مؤسسات الحب التى تعاود
جوانح المرء فى ذلك المكان الموحش ؟

وتالله كم وددت أن أعرف لمن كانت أرمل فى ذلك اليوم .^(١)

(١) أخذت هذه القصة من مجموعة La Maison Tellier

القاتل

كان يدافع عن المتهم محام فقي مبتدئ تكلم على النحو الآتى :

« ليست الوقائع منكرة يا حضرات المحلفين ، فهو كل واحد وهو رجل شريف ، وعامل نزيه ، رقيق نجول قتل مخدومه فى نزعة غضب لم أدركها . فهل تسمحون لى أن أصور لكم نفسية هذه الجريمة من غير ماتخفيف أو اعتذار؟ ثم احكموا بعد ذلك .

« ان چان نيكولا لوجير ولد أسرة شريفة جدا ، جعلت منه رجلا بسيطا محترما . وهذه جريمته : الإحترام ! تلك أيها السادة عاطفة لانعرفها اليوم بعد ، ولم يبق منها سوى الاسم على ما يظهر ، وقد غاضت كل قوتها . ويجب أن ننفذ الى بعض الأسر المتأثرة المحتشمة ، لنظفر بأثر هذه الخلة الصارمة ، ذلك الإيمان بالشيء أو الإنسان أو العاطفة أو العقيدة يصطبغ بلون مقدس ، أو ذلك الإيمان الذى لا يقبل الشك ولا الابتسام .

« وليس فى وسع المرء أن يكون شريفا حقا بمعنى الكلمة ، إلا إذا كان محترما لغيره . والرجل الذى يحترم ، مغلق العينين . أما نحن الذين سلطوا أعينهم واسعة على العالم ، نحن الذين يعيشون هنا فى دار العبدل الذى هو مهبط المجتمع ، وفيه نساقط كل الفضائح ، نحن الذين يفضى الينا الناس بكل عار ، نحن المدافعون المخلصون عن كل سخيفة بشرية ، الذين يشنون أزر كل ساقط وساقطة من الأمير الى الشريد ، والذين يستقبلون بالبشر والتسامح والابتسام كل آثم ندافع عنه أمامكم ، نحن الذين نشغف حقا بمهنتنا ونغدق ما يمزجها من عطف بنسبة فداحة الجرم — نحن لا نستطيع بعد أن تكون لنا روح محترمة ، فكثيرا ما نرى هذا التيار من السفالات يحرف رؤساء الحكم ، الى أخط الأوغاد ، ولذا فكثيرا ما نعرف كيف يحدث كل ذلك ، وكيف يسلم

كل شيء وكيف يباع كل شيء، وكثيرا ما نرى المناصب والوظائف والشرف تباع بطريقة وحشية، مقابل حفنة من الذهب أو مقابل أسهم أو أنصبة صناعية، أو بكل بساطة نظير قبلة امرأة . فواجبنا أو بالحرى مهنتنا نرغمنا على أن لا نجهل شيئا وأن نشك في كل الناس، لأن الناس كلهم مرييون، ومن ثم فإننا ندهش متى رأينا رجلا كالقاتل الذى يجلس أمامكم، يدين بدين الإحترام الى حد أن يجعل منه شهيدا .

« ونحن شرفاء أيضا أيها السادة، نزهاء لأننا نمقت السفالة، ولأن لنا عاطفة كرامة شخصية وكبرياء . ولكننا لا نجل في أعماق قلوبنا ذلك الإيمان الأعمى الوحشى الراسخ كما يحمله هذا الرجل .
« استحووا الى أن أقص عليكم سيرته

« ربى كما كان يربى الأطفال قديما على فكرة تقسيم كل الأعمال البشرية الى قسمين ما هو خير وما هو شر . وفهم الخير بسطة جعلته يميزه من الشر كما يميز النهار من الليل، ولم يكن أبوه من أصحاب الأذهان الرفيعة الذين ينظرون من عل، فيرون مصادر الاعتقاد ويعترفون بالضرورات الإجتماعية التى تولد منها هذه الميزات .

« وهكذا ترعرع متدينا، واثقا متحمسا، ضيق الذهن .

« ثم تزوج فى سن الثانية والعشرين : زوجه بابتة عم له ربيت مثله على البساطة والنقاء . ورزق بهذه المصادفة التى لا تقدر، وهى الفوز بزواج شريفة القلب، أعنى بما هو أرفع شيء فى العالم وما يغدو أندر فى كل يوم . وكان يحل والدته ذلك الإجلال الذى يحف بالأمهات فى الأسر القديمة أو بتلك العبادة العميقة التى تسدى للآلهة، فنقل الى زوجه شيئا من ذلك الدين، وعاش يجهل النفاق كل الجهل فى استقامة مطبقة، وسعادة هادئة جعلت منه مخلوقا فريدا . وإذا لم يكن يخدع أحدا فقد كان بعيدا عن

الإرتياب فى أن أحدا قد يخذله كذلك .
« وكان قد التحق قبل زواجه بقليل ، صرافا عند المسيو لانجليه الذى قتله مؤخرًا .

« ونحن نعرف يا حضرات المحلفين من شهادة مدام لانجليه وأخيها وشريك زوجها المسيو برتويس ، ومن شهادة كل الأسرة وكل الموظفين الكبار فى هذا البنك أن لوجير كان نموذجًا للإستقامة والطاعة والرقه واحترام الرؤساء .
« وكان من أجل ذلك يعامل بما يستحق من الاعتبار ؛ كان معتادا على هذا التقدير اعتياده على ما يقوم من إجلال لزوجته التى كان مديحها حديث كل إنسان .

« على أنها توفيت بالحصى فى بضعة أيام .
« فتولاه ألم عميق بلا ريب ، ولكنه ألم بارد هادئ اعتاده القلب المنتظم ، لم تبد بوادره إلا فى شحوب لونه وانكاش ملامحه .
« وعندئذ حدث أيها السادة أمر طبيعى جدا .

« ذلك أن هذا الرجل كان متزوجا منذ عشر سنين . وكان منذ عشر سنين قد اعتاد أن يجد المرأة الى جانبه دائما . كان معتادا عنايتها ، وذلك الصوت الأنيس يحببه مودعا فى الصباح مرحبا فى المساء ، معتادا خفيف الثوب الحريرى الذى تعبدته المرأة ، وتلك الملاحظات الغرامية أحيانا ، الأمومية أخرى ، التى تخفف أعباء الحياة وتحلو الغمة ، وتلك الصحبة المحبوبة التى تقتل أبطأ الساعات . كان معتادا كل لذائذ المائدة الناعمة ، وكل هذه الخدمات التى لا نشعر بها لكنها تغدو ضرورة شيئا فشيئا . فلم يعد يطيق الحياة منفردا . عندئذ اضطر لى يقضى أمسيته الطويلة ، أن يعتاد الذهاب الى مقهى قريب ينفق فيه بعض الوقت ، فكان يشرب قدحه ، ويلبث جامدا ، يرقب بعينه الشاردة كرات البليارد تتعاقب راكضة تحت دخان السجائر ،

ويصغى الى صخب اللاعبين دون تفكر ، والى مناقشات جيرانه فى السياسة ، والى الضحك الزان تثيره أحيانا مزحة ثقيلة فى إحدى زوايا البهو . وقد يغلبه التعب والضعف فينام فى مكانه . على أنه كان يشعر فى أعماق قلبه وفى أعماق نفسه ، بالحاجة المحتومة الى قلب والى جسم امرأة ؛ وكان يقترب فى كل مساء شيئا فشيئا دون أن يشعر أو يقصد ، من مائدة الصنف حيث تجلس «الصرافة» وهى فتاة صغيرة شقراء ، كانت تدفعه نحوها قوة قاهرة لأنها امرأة .

« وسرعان ما تحدثا ، وسرعان ما اعتاد عادة لذيذة ، هى أن يقضى الى جانبها كل أمسيته . وكانت رشيقة خلابة شأن كل فتاة تنجح بالإبتسامة ، وكانت تلهو بتجديد شرايها ما استطاعت خدمة لصاحب الخانة . وكان لوجير فى كل يوم يزداد شغفا بتلك المرأة التى لا يعرفها والتى يجهل كل حياتها والتى يحبها لأنه فقط لا يرى سواها .

« فلاحظت الفتاة ، وكانت خبيثة ، أنها غدت تستطيع أن تستغل هذا الابله ، وفكرت فى خير الوسائل لاستغلاله ، وخيرها هى بلا ريب أن تتزوج منه . فوصلت الى بغيتها دون مشقة .

« أترانى فى حاجة ، يا حضرات المخلفين ، لأن أقول لكم أن خلق هذه الفتاة كان من أسوأ الأخلاق ؛ وأن الزواج بدلا من أن يضع حدا لنذاتها ، قد زادها على ما يظهر ؟

« لقد لاح أن هذه الفتاة مدفوعة بغريزتها النسوية ، كانت تطرب بخيانة هذا الرجل الشريف مع كل موظفى المصرف . أقول معهم جميعا . ولدينا أدلة كتابية أيها السادة . ومالبث الأمر أن غدا فضيحة عامة لا يجهلها ، كالعادة سوى الزوج .

« وأخيرا رأت هذه الذئبة تحقيقا لمصلحة ظاهرة ، أن تغوى ولد صاحب المصرف ، وهو فى فى التاسعة عشرة من عمره ، فما لبثت أن ملكت على عقله

وحواسه نفوذا خبيثا . وكان المسيو لانيجه يغمض عينه حتى ذلك الوقت طيبة منه وشفقة على موظفه . ولكن ما لبث أن شعر بغضب حق حينما رأى ولده بين يدي هذه المخلوقة الخطرة أو بالحري بين ذراعيها .

« وكان من خطئها أن دعا لوجير على الأثر وخاطبه وهو تحت تأثير غضبه الأبوى .

« لم يبق على أيها السادة الا أن اقرأ عليكم خبر الجريمة كما نطق به المحتضر ودونه التحقيق .

« — علمت أن ولدى قد أعطى هذه المرأة قبل ذلك بيوم عشرة آلاف فرنك ، فتغلب عندي الغضب على العقل . لا ريب انى لم أرتب قط في شرف لوجير ، ولكن بعض العمى أسد خطرا من الغلط .

« فاستدعيته عندئذ الى وقلت له انى مضطر الى الاستغناء عن عمله .

« فوقف ازأى جامدا لا يفهم . ثم انتهى بأن طلب منى بشدة أن أوضح له السبب .

« فأبيت أن أجيبه مؤكدا أن السبب يرجع الى عوامل شخصية جدا ، فظن عندئذ انى أتهمه بسوء الخلق فاصفر لونه ، وتضرع الى أن أوضح له السر وتغلبت لديه هذه الفكرة فعلا صوته .

« أما أنا فلبثت صامتا ، ولكنه لبث يرجونى أحيانا ويهيننى أخرى ، ووصل الأمر الى حد خشيت معه على نفسى من الاعتداء . وما شعرت بخافة الا وأنا ألقي بالحقيقة فى وجهه عندما بدرت منه كلمة جارحة .

« فوقف برهة وهو يحرق فى وجهى بعين شاردة . ثم رأيت يتناول من فوق مكتبى المقص الطويل الذى أستخدمه لفض بعض المغلفات ، ثم انهل على بخافة بذراع مشهورة وشعرت بالصاب يدخل فى عنق وفى صدرى دون أن أشعر بألم ما . »

«هذه يا حضرات المحلفين قصة هذه الجناية بكل بساطة . فإذا أقول
بعد هذا الدفاع عن القاتل ؟ لقد احترم زوجه الثانية احتراما أعمى ، لأنه
احترم زوجه الأولى بحق .

✱
✱

وبعد مداولة قصيرة برئ^(١) المتهم .

(١) أخذت هذه القصة من مجموعة Le Rosier de Mme Husson

رسالة منتحرة

لايمضى يوم دون أن نقرأ فى احدى الصحف أمثال النبأ الآتى :
« فى ليلة الخميس انتبه سكان المنزل رقم ٠٤ بشارع ... على أثر دوى
طليق متوالين ، ونخرج الدوى من جناح يسكنه الميسو ص ... وكان الباب
مفتوحا ، وقد وجد هذا السيد غارقا فى دمه ، وما زال يمسك بيده المسدس
الذى انتحربه ... والمسيو « ص » يناهز الساعة والأربعين من عمره ، وكان
ميسور الحال ينعم بكل ما يحمل السعادة ، ولم تعرف قط أسباب عزمه
الأسود » .

أى آلام مبرحة ، وأحزان قلبية ، وضروب يأس خفية ، وجروح دامية
تدفع بأشخاص سعداء الى الانتحار ؟ يتساءل الأنسان ، ويتصور مآسى
غرامية ، أو نكبات مالية ، فلا يهتدى الى تعليل حق ، فيسم هذه الميئآت
بالخفيا .

وقد نجد فوق مائدة « أولئك المنتحرين دون سبب » خطابا كتب
فى الليلة الأخيرة بجانب السلاح المحشو ، فتمسكه وعتقد أن فيه ما يشوق ،
فاذا به لا يكشف عن أية نكبة من النكبات التى نتصورها دائما ، وراء هذه
الزعات الفياضة باليأس ، ولكنه يكشف عن توالى صنوف صغيرة من بؤس
الحياة فى بطن ، وعن اضطراب خطير فى حياة فريدة غاضت أحلامها ،
واذا به يقدم لنا سبب هذه النهايات المحزنة التى لا يدركها سوى العصبيين
وذوى الحس الدقيق . واليك ما فيه : —

« نحن فى منتصف الليل . فإذا فرغت من كتابة هذا الخطاب فسأنتحر .
لماذا ؟ سأحاول أن أفسر السبب لأولئك الذين يقرأون هذه الأسطر ،
ولكن لنفسى ، لكى أدمع شجاعتى الحائرة ، ولكى أبرر ضرورة هذا العمل

الخطير .

« نُسأت في حجر والدين ساذجين يعتقدان في كل شيء ، فاعتقدت مثلهما . وطال حلمي فلم تمزق أوصاله الأخيرة إلا أخيرا .

ومنذ أعوام تحدث في نفسى ظاهرة . فإن كل حوادث الحياة ، التي كانت فيما مضى تبدو لعيني كسنا المشارق ، تبدو اليوم في ثوب من الظلمات ، وقد ظهرت معانى الأشياء أمامي في حقيقتها الوعرة ، وبث في سبب الحب الصحيح مقت ألوانه الشعرية .

إنا دائماً لعبة الأوهام السخيفة الساحرة التي تتجدد أبدا .

ولما كنت أشيخ ، فقد أخذت بنصيبي من بؤس الأشياء المروع ، ومن عبث الجهود ، ومن كبرياء الانتظار . وإذا بي يتبدى لى هذا المساء ، بعد العشاء ، ضوء جديد يكشف لى عدم كل شيء .

وكنت فيما مضى مرحا ، وكان يسخرنى كل شيء : النساء اللاتي يسرن ، ومنظر الشوارع ، والأماكن التي أسكنها ، بل كنت اطرب لشكل ثيابي . ولكن تكرر هذه المناظر قد انتهى بأن ملأ قلبي ضنى وخجرا ، كما يحدث لمشاهد يغشى نفس المسرح في كل ليلة .

فمنذ ثلاثين عاما ، انقض في كل يوم ، في نفس الساعة . ومنذ ثلاثين عاما أتناول طعامي في نفس المطعم ، في نفس الساعات ، وأشهد نفس الألوان يجلبها الى الخدم المتعاقبون .

وقد حاولت السفر . ولكن الوحدة التي نشعر بها في الأماكن الغريبة روعتني ، واشتدت على وطأة العزلة حتى بادرت فسلكت طريق العودة الى وطني .

ولكن منظر أثاثي الذي أستهده منذ ثلاثين عاما ، في نفس المكان ، ورائحة مقاعدى التي عرفتها جديدة ، ورائحة مسكني (لأن كل مسكن يتخذ

مع الزمن رائحة معينة) كانت تبعث الى كل ليلة غرابة الأطوار، وكآبة سوداء للحياة على هذا النحو . فكل شيء يتكرر بلا انقطاع وبأساليب مؤسسية . بل إن نفس الطريقة التي أتبعها في فتح الباب ، والمكان الذي أجد فيه الثقب عادة، وأول نظرة ألقها على غرفتي متى أضأت الثقب، تحمل الى رغبة في أن أشب من النافذة، لكي أتخلص من هذه المناظر المتماثلة التي لا نقلت منها على الإطلاق .

بل انى لأشعر في كل يوم ، حينما أحلق لحيتي برغبة قوية في أن أنحر نفسي ، وكثيرا ما بكيت لمنظر وجهي الذي اراه بشكاه الذي لا يتغير في المرأة الصغيرة كل يوم .

ولم أعد أستطيع أن أجالس الناس الذين كنت أسر برؤيتهم فيما مضى ! ذلك لأنني عرفتهم جد المعرفة، وعرفت ما سوف يقاؤون، وما سوف أرد به ، ونفذت الى كامن أفكارهم وتصوراتهم . والذهن كسرح يدور فيه دائما جراد مغلول مسكين ، فهما كانت جهودنا وحيلتنا فان النهاية قريبة دائرة الى الأبد، لا مفاجأة فيها ولا باب لها يطل على عالم الخفاء . وواجب أن تجوز دائما نفس الآراء ونفس المسرات، ونفس النكبات، ونفس العادات، ونفس الاعتقادات .

وقد كان الضباب الليلة حالكا . وكان نخبم مطبقا فوق الشارع الذي كانت تبدو مصابحه كشموع داخنة . وكان ثمة عبء أثقل من المعتاد ينهك كتفى . والغالب انى كنت مصابا بسوء هضم .

ذلك لأن الهضم الحسن هو كل شيء في الحياة، فهو الذى يلهم الفنان ، ويمد الفتية بالأهواء الغرامية، والمفكرين بالآراء الرائقة، وهو الذى يمد العالم كله بلذة العيش، ويساعد على الأكل الجيد، وهو أسعد شيء في الوجود . أما المعدة السقيمة فانها تدفع صاحبها الى الشك والإنكار، وتحمل اليه الأفكار

السود ورغبة الموت ، وهذا ما لاحظته كثيرا ، ولعلى كنت لا أنتحروا أنى نعمت بالطنضم الحسن فى هذا المساء .

فاما جلست فى المنعد الذى أجلس فيه منذ ثلاثين عاما ، سرحت البصر حولى ، فنولانى يأس هائل حتى شعرت أنى على وشك الجنون .

وتامست ماذا عسى أفعله لأهرب من نفسى ، فروعت لكل فكرة جالت بخاطرى ، ورأيت أنها جميعا شر من السكوت . عندئذ فكرت فى أن أنظم أوراقي . وكنت أفكر منذ بعيد فى تنظيم أدراجى . ذلك أنى منذ ثلاثين عاما أنى الى نفس المكتب بالرسائل والإيصالات ، وكثيرا ما كنت أتضجر لرؤية هذا الخلل . بيد أنى كنت دائما أشعر بتعب جسمى وعقلى ، اذا ما هممت بذلك ، حتى انى ما جرؤت قط على اتمام هذه المهمة الكريمة .

جلست اذن أمام مكتبى ، وفتحته ، معترفا أن أتخير من أوراقي القديمة جانبا كبيرا مما يجب إتلافه . فلبثت فى بادئ الأمر مضطربا أمام هذه الرزم المكسدة من الأوراق الصفراء ، ثم تناولت بعد ذلك واحدة منها .

ألا خذار أن تقربوا أبدا ذلك المكتب ، أو ذلك القبر الذى يضم ميت الرسائل ، اذا كنتم تفضنون بالحياة ! فاذا فتحتموه عفوا ، فأمسكوا الرسائل التى يضمها خفية ، وأغمضوا أعينكم لئلا تقرأوا شيئا منها ، ولكى لا تلقى كتابة قديمة نسيت ، بكم بقاءة إلى بحر الذكريات . احمالوا الى النار هذه الأوراق القتالة ، فثقي صارت هشيا فاسحقوها لتغدو ترابا ، وإلا فقد هلكتم كما هلكت أنا . منذ ساعة .

آه ، إن الرسائل الأولى التى أعدت قراءتها لم تثر شيئا فى نفسى على أنها كانت حديثة ، جاءتنى من أشخاص أحياء ما زلت أقابلهم ، ولا أتأثر لرؤيتهم . ولكن غلافا جعلنى أضطرب بقاءة ، وكان اسمى مكتوبا عليه بخط كبير مخوف . وفى الحال وثب الدمع الى عيني . ذلك أن الرسالة كانت من أعز أصدقائى ،

ورفيق صباى ، ومستودع آمل الى . فبسدا الى واضحاً با بتسامته الطفلية ، ويده
ببسوطة نحوى حتى سرت الرجفة الى عظامى . أجل . أجل . إن الموقى
يعثون ، لأنى قد رأيته ! وإن ذا كرتنا لعالم أدق من الكون لأنها تهب الحياة
الى من لا يحيا بعد !

ولقد قرأت ، ويدى ترتجف ، وعينى مظلمة كل ما يقول . وشعرت
فى قلبى المسكين الزافر قتلة أليمة ، حتى أخذت فى الأنين كرجل حطمت
أعضاؤه .

وعندئذ استعرضت كل حياتى وعدت أصعدها كما تصعد نهرا ، فذكرت
أناسا خيم النسيان البعيد عليهم ولم أعد أذكر أسمائهم ، ولم يبق منهم فى ذا كرتى
سوى وجوههم . وذكرى عند رؤية رسائل والدتى ، الخدم القدماء ، وشكل
منزلنا ، وما يعانى بذهن الصغار من تفاصيل .

أجل ، رأيت بخاة كل أزياء والدتى القديمة ، وطلعاتها المختلفة طبقا
للشباب التى ترتديها والقبعات التى تلبسها .

وعدت بخاة ففتحت درجا آخر استعرضت فيه ذكرياتى الغرامية ،
ورأيت فيه حذاء رقص ، ومنديلا ممزقا ، وشعورا ، وأزهارا جافة ، فعندئذ
حملتن قصة حياتى العذبة ، التى مازال بطلاتها يعشن اليوم بشعور بيضاء ، الى
الكتابة المرة التى تقترن بذكري الأشياء التى طويت الى الأبد . آه ، لنعم
الجباه الفتية التى تظلمها الشعور الذهبية ، ولنعم مداعبات اليد ، والنظرات
المتكلمة ، والقلوب الخافقة ، وهذه الابتسامات التى تعد بالشفا ، وهذه الشفا
التي تعد بالعناق ! ثم يا لسحر القبلية ! . . تلك القبلية التى لا نهاية لها والتى
تغمض عينيك لها ، والتى تقتل كل فكرة أخرى غير سعادة الوصل العاجل .

حملت هذه العهود الناعمة القديمة ملء يدى وغمرتها لثما حارا ، ورأيت
فى روحى المعذب كل واحدة منهن ساعة الاستسلام ، وشعرت بعذاب أشد

من كل مما يتصور في خرافات الجحيم .
وبقيت رسالة أخيرة ، وكانت منى ، أملاها على منذ خمسين عاما ، أستاذى
في الخط واليك نصها :
« أمى الصغيرة العزيزة .

« لقد بلغت اليوم عامى السابع . وهو سن العقل ، فأنتهز الفرصة لأشكرك
على أنك أخرجتنى الى الضياء
ولذلك الصغير الذى يعبدك
« روبر »

لقد انتهى كل شىء . وقد عدت الى البداية ، ثم ارتددت لأتأمل
يقية أيامى ، فرأيت الشيخوخة المروعة الفريدة ، والعاهات العاجلة . لقد
انتهى كل شىء ، أجل انتهى ، ولم يعد حولى انسان !
وكان مسدسى هنالك ، على المائدة ، ... فخشوته « لا تقرأوا رسائلكم
القديمة » .

وهكذا ينتحر كثير من الناس الذين نجحت عبثا في ظروف حياتهم لنكتشف
عما عسى أن يكون قد وقع بهم من صنوف الحزن المبرح .^(١)

(١) أخذت هذه القصة من مجموعة Les Sœurs Rondoli .

يوم الربيع

لما تبدأ الأيام الحلوة ، وتستيقظ الأرض وتخضر ، ويداعب جسمونا فتور الهواء العطر ، ويدخل الى صدورنا وكأنما ينفذ الى قلوبنا ؛ عندئذ نأنس رغبة غامضة في اجتناء سعادات غامضة ، ونتوق الى التجوال والجرى وراء المصادفة ، والبحث عن المغامرة ، والارتواء من مناهل الربيع .

كان الشتاء قاسيا في العام الماضي ، فكان الشغف بهذا التنفس في شهر مايو ، كأنه ثمول غمرني ، وكأنه غيث منهمر .

وقد استيقظت ذات صباح ، فرأيت من نافذتي ، فوق المنازل المجاورة ، الأفق الشاسع الأزرق يغشاه ذهب الشمس ، والشارع فياض بالمرح ، فخرجت صافي الذهن ، لا أعرف أين أتجه . وكنت أرى الابتسامة تملوكل ثغري ، وأنس ريجا من السعادة تهب في كل صوب ، في ضوء الربيع الحار . وكانت المدينة ترح في غمرة من الحب ، والفتيات يخطرن في زينة الصباح ، وكأن عيونهن تم عن حنان دفين ، وقدودهن عن ظرف رقيق ؛ ففاض قلبي اضطرابا ، وسرعان ما وصلت الى السنين دون أعرف كيف أو لم ؛ وكانت السفينة البخارية تتأهب للسير الى سيرصانص ، فخطرت الى رغبة فجائية في أن أسير الى الغابات . وكانت السفينة غاصة بالركاب ، فالتفت فاذا الى جانبي جارة ، هي عاملة صغيرة بلا ريب ، ولكن ذات ظرف باريزي ، ورأس أشقر فاتن ، تهدل خصلاتها على خديها كأنها ضوء منتشر ، وتداعبها الريح فوق أذنيها وعنقها البديع الأشقر .

فجعلت أحدها مليا حتى التفتت نحوي ، ثم خفضت عينيها فجأة ، وارتمت على ركن فيها غضن كأنه شروع في ابتسامة .

وكان النهر الهادئ يتفتح أمامنا والضوء الحار يملأ السماء ، وكأن غمعة

من الحياة تملأ الفضاء الشاسع . فرفعت جارتى عينها ثانية وكنت مصرا على التحديق بها ، فابتسمت عندئذ ؛ وكانت ساحرة في الواقع ؛ وتحيلت في نظراتها الهائمة ألف مسألة ، ورأيت فيها أعماقا مجهولة ، ورأيت بخير الحنان ، وكل ما تتصوره من الشعر والسعادة مما نسعى اليه أبد الحياة ، وملكتني رغبة جنونية في أن أفتح ذراعى وأحملها بعيدا ، لأغنم في أذنها أنغام الحب الموسيقية .

فهممت أن أفتح في لأحادثها وإذا بشخص يمس كتفى ، فالتفت منذ هلا فإذا برجل عادى المنظر ، لا هو بالفتى ولا بالشيخ ، يحدق بى بنظرات مكتئبة ، ويقول : أود أن أحدثك .

فألتيت بحركة تضجرف فشرع بها وقال : أود ذلك لأمر مهم .

فنهضت وتبعته الى الناحية الأخرى من السفينة .

فبدأ يقول : « سيدى ، لما يقترب الشتاء فى كل يوم بقره وبرده وطره ، يقول لك طبيبك « أدفى قدميك جيدا ، واحذر من البرد والزكام والتزلات الصدرية » فعندئذ تأخذ لنفسك ألف تحوط ، ولكن ذلك لا يحول دون أن تمضى شهرين فى الفراش دائما . ولكن الربيع اذا أتى بخضرته وأزهاره ورياحه الحارة الفاترة ، وأنفاسه الناعمة التى تحمل اليك اضطرابات غامضة ، وميولا لا باعث لها ، فما من أحد يأتى ويقول لك « حذار ياسيدى من الحب ، فانه جائم فى كل ناحية ، يتربص بك فى كل ركن ، وينصب لاقتناصك كل شراكه وكل أسلحته الماضية وكل خياناته ! حذار من الحب ! ... حذار منه ! فانه أخطر من الزكام والتزلات الصدرية والسل ، وهو لا يغفر بل يحمل كل انسان على ارتكاب زلات لا تعتقر ! » — نعم ياسيدى أقول إنه يجب أن تعلق الحكومة فى كل عام على الجدران اعلانات عليها : « عودة الربيع : حذار من الحب أيها الفرنسيون ! » كما يكتب على أبواب المنازل

أحيانا: «حذار من الدهان !» وما دامت الحكومة لا تفعل ، فاني أنوب عنها وأقول لك : حذار من الحب ! ، فهو يهيم أن يبتطش بك وواجب على أن أخطرك كما يخطرون في روسيا مارا قد تجدد أنفه ! » .

فلبثت جامدا ذاهلا أمام هذا الشخص الغريب ، تم تكلفت الأنفة وقالت :
« يلوح لي ياسيدى أنك تتدخل فيما لا يعنك » .

فأتى بحركة سريعة وأجاب : « لو رأيت ، يا سيدى ، رجلا أشرف على الغرق في مكان خطر فهل أتركه اذن يغرق ؟ . ولكن اصغ الى قصتي ياسيدى فتعلم لم جرؤت أن أحدثك على هذا النحو .

« كنا في العام الماضى في مثل هذا الوقت ؛ ويجب أن تعلم أولا ياسيدى اننى موظف بوزارة البحرية ، فأطلت من نافذة مكنتى ذات يوم ، فأطرتنى زرقة السماء وصدح البلابل ، حتى كدت أرقص بين الصناديق والأوراق المكسدة . فلما انصرفت سرت الى السين ، وكان الجو بديعا كما هو اليوم ، فركبت نفس هذه المركب قاصدا أن أترىض في سان كلو ، وخيل لى أنى أتمدد من حرارة الشمس ، وأطربنى منظر كل شئ : منظر المركب والنهر والشجر والمنازل وجيرانى . وكنت أتوق الى معانقة أى شئ في العالم ، فاذا بالحب يهيم لى شراكه ، وإذا بى أرى فجأة ، فتاة تصعد الى المركب من التريكاديرو ، فى يدها حقيبة صغيرة ، وتجلس أمامى .

« وكانت حسناء — أجل ياسيدى ، ولكن المدهش هو ما يخيل الينا من أن النساء يبدون أكثر حسنا إذا صفا الجو وجاء الربيع ، وعندئذ نأسى فيهن سحرا خاصا .

« فحدثت بها وحدثت بى ، ولكن من وقت لآخر فقط ، كما تفعل جارتك الآن . وأخيرا رأيت بعد المناظرة حينما فى تبادل النظرات ، أن الوقت قد حان لمحدثتها ، فخطبتها فأجابتنى ؛ وكانت رشيقة ككل امرأة ، فتملت لحديثها

ياسيدي .

« ثم نزلت في سان كلو ، فتبعتهما ، وكانت ذاهبة لتسليم طلب من الطلبات ، فلما عادت كانت المركب قد سارت ، فسرنا معا ، وجعلت رقعة الهواء تنتزع الزفرات من كلينا .

قلت لها : « لا بد أن يكون الجو بديعا في الغابة . فقالت : أجل بلاريب قلت : فهل توافقين أيتها الآسة على أن نتجول هنالك قليلا ؟

فخدجتني بنظرة سريعة شاملة كأنها تختبر شخصي ! وقبالت دعوني بعد تردد قليل . واندفعنا نسير جنبنا الى جنب بين الأشجار ، في ظلال الأغصان الرطبة ، وفوق الأغصان النامية التي تنعكس الشمس على خضرتها . وكانت الطيور تصدح في كل ناحية ، فتملت صاحبتى طربا لهذه البدائع الطبيعية ، وأخذت تثب هنا وهنالك ، وأنا من وراءها .

ثم أخذت تغني مختلف الأناشيد بنبرات رخيمة حتى كدت أبكي . آه هذا ما تضطرب له النفس دائما ، فلا نتخذ ياسيدي امرأة تغني في المروج ! وسرعان ما غلغها التعب بغاست على العشب الأخضر ، بغاست عند قدميها وأمسكت بيديها اللتين ارتسمت فوق أناملهما وخزات الإبر ، فتأثرت لذلك ، وقلت في نفسي : « هذا طابع العمل المقدس » . آه ياسيدي ، أتعرف ما إذا تعني علامات العمل المقدسة ؟ إنها تنم عن كل ما يحويه المصنع من اضطراب في الذهن ، ومرض في النفس ، وعفاف مثلوم ، تعني كل سخف الثرثرة ، وكل بؤس العادات اليومية ، وكل ضيق الفكر الذي هو خاصة للنساء العامة . ثم حذق كل منا في صاحبه مليا .

آه ! عين المرأة ، لشد ماتبطن من قوى ، ولشد ماتشير ، وتغزو ، وتملك ، وتأسر ، وآه كم تبدو عميقة فياضة بالإغراء ، وبما ليس له نهاية ! يعبرون عن ذلك بفراءة الروح ! آه ياسيدي ياله من سخف ! اذ لو كنا نستطيع حقا أن

نمراً هنالك ما في الروح لكأ أحرص وأوفر تعقلاً .
وأخيراً اضطربت جوانحي ، فاردت أن أطوقها بذراعي ، فقالت : حذار
بفئوت الى جانبها وفاتحتها بحبي ، ونثرت على ركبتيها كل ما يحرقني من
جوى ، فبدت عليها الدهشة من تغيرى وحدجتني بنظرة مائلة ، كأنما تقول
لنفسها : « هكذا ياحب بك فسوف نرى » .

ونحن في الحب ياسيدى سذج دائماً ، والنساء فيه دائماً تاجرات .
وقد كان في وسعى أن أملكها بلا ريب ، وقد أدركت حماقتي بعد ،
ولكن الذى كنت أبحث عنه لم يكن جـمـا ، وانما الحب والمثل الأعلى ، وقد
ركبت متن العواطف في ظرف كان واجبا أن استخدم فيه وقتي بأحسن
مما فعلت .

فلما فرغت من بث جواى اليها نهضت ، وعدنا الى سان كلو ، ولم أتركها
الا في باريس . وكانت منذ العودة شديدة الكآبة ، فسألتها عن السبب
فأجابتنى : « أفكر في مثل هذه الأيام التى لا تمر كثيرا في الحياة » فاشتد خفوق
قلبي حتى كاد يثب من صدرى .

ثم رأيتها في الأحد التالى وفي الأحد الذى ولاه ، وكل أحد من بعده .
وَمَا تترىض في بوجيفال وسان جرمان وميزون لافيت وپواسى وفي كل مكان
تدور فيه أحاديث الحب .

وكانت الحبيثة الصغيرة من جانبها تثير هواى ما استطاعت الى ذلك سبيلا .
وأخيراً ، فقدت صوابى بتاتا ، ولم تمض ثلاثة أشهر حتى اقترنت بها .
ماذا تريد ياسيدى ، اذا كان المرء ، موظفا وحيدا ، لا أسرة له ، ولا ناصح ؟
يقول المرء لنفسه : إن الحياة تغدو سعيدة مع امرأة معينة فيتزوج من هذه
المرأة .

ولكنها عندئذ تسيئه صباح مساء ، ولا تفهم شيئا ، ولا تدري شيئا ،

وتتفرغ الى الشجار، والغناء (آه الغناء ياسيدى !) وتقص على خادمة المنزل كل أسرار البيت ، وتفضى الى خادمة الخيران بكل أسرار الفراش ، وتبهظ زوجها فى الحوانيت ، وتملا رأسها بالمضحكات والخرافات والسخافات والاساطير والتقاليد الرائعة ، حتى لقد كنت أبكى ياسا ياسيدى اذا ما تحدثت معها .

ثم صمت ، وقد غلبه التعب والتأثر ، فنظرت اليه مشفقا على سداخته ، وهممت بأن أجيبه بعارة ما ، ولكن المركب وقفت عندئذ ، ووصلنا الى سان كلو .

ونهضت المرأة الصغيرة التى اضطربت لنظراتها للنزول ، فمرت بالقرب منى وهى تلاحظنى خلسة وعلى شفيتها ابتسامة داعية — احدى هذه الابتسامات التى تطير صوابك ، ثم وثبت الى البر .
فوثبت لاتباعها ، ولكن صاحبى أمسك بكى فتخلصت منه بحركة سريعة ،
ولكنه أمسك بذيل سترتى ، وهو يضحك ويكرر : « ان تذهب لن تذهب » ،
بصوت عال التفت له كل الناس .

فتعالى الضحك من حولنا . فوقفت جامدا ، غضوبا ، ولكنى فقدت كل جرأة أمام السخرية والفضيحة .
ثم ارتدت المركب عائدة ، والمرأة الصغيرة تحدجنى ، بهيئة الأسف ،
بينما كان مطاردى يهمس فى اذنى وهو يفرك يديه :
« تالله لقد أسديت اليك يدا » ^(١) .

(١) أخذت هذه القصة من مجموعة La Maison Tellier

صف

من

تیودور دی بانقیل Théodore de Banville

تيودور دى بانثيل

بانثيل، شاعر مبدع، وقصصى ساحر. ولد في مولان سنة ١٨٢٣ وتوفي في باريس سنة ١٨٩١، ونشأ في أسرة حسنة، ودرس في باريس، ونظم الشعر حدثاً، وأخرج أول مجموعة منه سنة ١٨٤٢ وعنوانها *Les Cariatides*. وبعد بضعة أعوام أخرج مجموعته الثانية *Les Stalactites*، فلقبت نقداً عنيفاً، ولكنها أذاعت شهرته. واتصل في ذلك الحين بأعظم شاعرين في هذا العصر وهما الفريد دى ثيني، وفكتور هوجو، ولقي منهما إعجاباً وتشجيعاً. وأخرج في الأعوام التالية عدّة قطع مسرحية قوية. ثم عني بالثر والقصص الصغير فأخرج عدّة مجموعات قصصية ونقدية ساحرة منها: *Contes : Cam'és parisiennes* و *Contes Bourgeois* و *Contes pour les femmes* و *Contes féeriques* و *Héroïques* وغيرها. وفي معظمها يعنى بانثيل بدراسة المجتمع الباريزى عناية خاصة، ويصور لنا أحواله وخطاه وتقاليده في ألوان قوية ساحرة، ويمجد بالأخص تصوير المجتمع الرفيع، ثم الشعراء والكتاب والفنانين والمثلات. وله في ذلك أسلوب شعري بدع، يفيض رقة وحلاوة، ويطبعه طابع قوى من الرشاقة والظرف، حتى أنه يطير بقارئه سحراً وفتنة، وخياله ممتع رائع، يسمو دائماً إلى أرفع الخلال والفكر، وقد يطبعه لذلك شيء من الغلو. وهو أستاذ في الحكم، يلجأ في كثير من الأحيان إلى السخرية اللاذعة، ولكن بأساليب رقيقة مختارة. وكان بانثيل قدوة للنظم في عصره، يدعو إلى تحرير الشعر الفرنسى من تماثله القديم. وله في الشعر وأساليبه رسالة قيمة. وكان يتبوأ في النظم في عصره أرفع مكانة، ويتصل بأكابر عصره من المفكرين والكتاب والفنانين بأوثق الصلات. وكان شديد الإعجاب بهينريش هينه الكاتب الألمانى، يتأثر به أشد التأثر حتى لقد شبه به.

الحب الأول

يقول الشاعر : تسألينى يا سيدتى فى أى سن يبدأ الحب ، فأجيب أنه لا يبدأ أصلاً ؛ فإن يحب المرء حالة كونية للإنسان ، كأن يكون أسود ، أو يكون ذا أنف أففى . وأولئك الذين قدر لهم أن يكونوا محبين ، كانوا دائماً كذلك . وقد نفت شكسبير من عبقريته الشاملة ، فى تلك النقطة كما نفت فى غيرها ، فصور روميوكاد يموت غماً لما ناله من ازدراء روزالين ، وذلك فى نفس اللحظة التى سار فيها للقاء جوليت ! وإليك قصة محدثة توضح لك هذا القول :

ربيت فى دار « كريوليس » الواقعة فى شارع ريشيه ، وهى دار كانت تحيط بمحديقتهما الصغيرة الموحشة ، حدائق نخمة كانت لمنازل كبيرة هدمت أو حورت لما أنشئ شارع ترفيس . وكان فيها بالأخص صبية أغنياء ، فكانت الحياة هنالك أنيقة جداً ، وإن كان ما يقدم إلينا من الأطعمة سيء لا يكاد يصلح لسجاء المنفى . وبلغ من وفرة ما يحمل التلاميذ من المال أن استطعنا أن نشترى حلة تمثيلية كاملة ، من ثياب وأغطية ملونة ، وخوذات من الورق المقوى ، ملبسة بالورق المفضض أو المذهب ؛ وسيوف صغيرة لكنها من الصلب ، وغيرها . وكنا نلهو أيام الآحاد بتمثيل مأس وقطع ، بعضها محفوظ ، وبعضها مرتجل ، ولم يكن مسرحنا سوى الفصل الكبير ، نكس موائدته لى نفوز بالفراغ اللازم .

وكان الأساتذة يغتبطون لكل ذلك إذ كان التلاميذ فى هذه الأمسية يعدون الفطائر الفخمة التى قد يبلغ ثمنها عشرين فرنكا ! كانت دارا كما قلت أنيقة يحق لك فيها أن تلبس أحدث الأزياء ؛ وكان من أظرف صبية الدار اثنان يجمع بينهما الحب الأخوى هما شيدوم وبسوناي ، وكلاهما ابن تاجر

غنى من المناظر ، وكنت أراها دائما فى أوقات الرياضة يلبسان صديريات خضراء تزينها شرائط بيضاء . كان ذلك فى سنة ١٨٣٦ ، وكان كلاهما فى سنى أعنى فى الثالثة عشرة . أما شيدوم فكان له وجه فتاة ناعم أبيض وشعر طويل أشقر ، وأما بسوناي فكان ذا شعر قصير ، ورأس صغير موحش ، تبدو عاينه أمارات الرجولة .

ففى ذات يوم بينما كنا نجوز شارع بروفانس الى الكلية ، وكان شيدوم الى جانبي فى الصف ، إذ قال لى بعد كثير تردد إنه يريد أن يفضى الى بأمر ، ثم انتهى بأن فتح لى قلبه بصوته الرقيق الرخيم ، فقال لى إنه يجب روزالى ، وانها تحبه . وكانت روزالى هذه وصيفة صغيرة سمراء كالبحيم ، هزبلت ، لامعة العينين ، وكان يظن أنها صاحبة رب الدار الميسو كرىوليس . وحدث أن شيدوم ذهب الى مخدع الثياب ليتسلم بطات عتق جديدة له ، فسقط منه هنالك دبوس وانحنى لأخذه ، فلما رفع جبينه إذا بيدي روزالى تمسكان بهذا الجبين ، وإذا بها تلثم شعره بشغف ، ثم تلت ذلك اعترافات سريعة ، ثم موعد وخلوة قطعها دخول العمدة بيجات ، وهى امرأة شاحبة جافة تدير شئون الدار . هذا ما قصه على شيدوم بعبارات متقطعة ، وفى حى المراهقة الساحرة ، وكان ذلك فى أوائل شهر أبريل إذ كان الهواء فياضا بحرارة الربيع ، وإذا كان شذى الأزهار فى الحدائق المجاورة يعطر الأرجاء ، وكنت استمرى كلماته ، بل كانت تقع على قلبي وقوع النار على البارود ، فقد كنت عاشقا أيضا ، ولكنما كنت أهوى كل نساء « هوراس » .

سارت المساة بسرعة عجيبة ، وانقطعت أياما عن شيدوم إذ كنت أقضى أوقات الفراغ فى نظم مقطع صغير ، ولم يحىء دورنا فى الرياضة معا . ثم إذا بى معه فى الصف ذات يوم لعشرة أيام من لقائنا الأول ... فرأيت ماضطربا حبيرا شاحبا يعرض شفثيه الباهتين ، وقد بلغ من غضبه أن أخذ يحدثنى

بصوت متقطع متهدج . قال لى : « بلى لقد خاننى وهو صديق وأخى بسونائى ! » وعبثا حاولت أن أقاطعه وهو يقول : « سوف أقبله » عندئذ أفضى الى بكل شىء . ذلك أن مبارزة عقدت للغداة بينه وبين بسونائى ، وقد خرجا فى رياضة الى الحديقة فتضاربا هنالك ورأهما جميع التلاميذ من نوافذ الفصل . فاستنفدت كل منطق لتجويد عن مشروعه فصاح بـ ملقيا بشعره البديع الى الوراء « وشرفى ! » ثم زفر زفرات متوالية ، ثم جرى دمعه مدرارا ، وقال « ليس الأمر هذا ، ولكن ما دامت روزالى قد غدرت بى فيجب أن أموت لأنى أحبها ! » ثم أغرق فى البكاء ، ولم تساورنى قط فكرة التبليغ عن صديقى ، فقد كنت اعتقد يومئذ كما اعتقد اليوم أن سلطان الغاية يبرر كل واسطة .

وأغرب من كل ذلك ، أن مشروع هذين الطفلين المسكينين قد تحقق خطوة خطوة ، من غير صعوبة ، ففى الغداة انتحل كل منهما عذرا للخروج ، وبسرعان مارأياهما معا فى الحديقة وعلى كل سرواله وقيصمه فقط ، وقد صعد كل منهما فوق جواد خشبى من جياذ الملعب ، وشهرا سيفين أخذاهما من عدة المسرح . وقد أرادا أن يتبارزا مرتفعين ليراهما كل انسان فكانت قلوبنا تخفق جميعا ، ولم يدرك الأستاذ سر انقطاعنا عن العمل ، ولم يلاحظ لفرط غباوته بريق أعيننا ، ولا نظراتنا الملتبهة ، التى كنا نأقياها نحو الحديقة خلصة .

كان صديقانا ، وهما شجاعان ، ثائران ، تغمرهما الشمس ، جيلين كاللائكة . ونشبت المبارزة عنيفة ، شنيعة ، لأنهما لا يعرفان عن البراز شيئا ، ولم يلاحظا وهما فى ثورة الغضب ، أن قيصميهما قد تمزقا وخضبا بالدماء . وفى النهاية هوى سيف بسونائى على جبين شيدوم فأصابه بضربة هائلة خرقت جبينه نحرقا كبيرا وانكسر السيف فى الجرح ، فسقط شيدوم صريعا

من فوق جواده الخشبي . فوثب بسوناي اليه يبكي ويمسح دمه ، ونحرت من صدورنا جميعا صرخة واحدة ، فافتحنا الموائد ، وانحدرنا جماعة الى الحديقة ، وهرول معنا المسيو كريوليس وزوجه وبناته والأساتذة والعممة بيجات والحشم ، وبالاختصار كل حى فى المنزل ولشد ما كانت روعتنا لهذه المأساة ، إذ حمل شيدوم مغميا عايله الى غرفة إحدى آنسات كريوليس حيث مدد ، واستمر فى إغمائه ، ولم يجب الأطباء عن حياته . ومضى على ذلك شهران ، عاش فيها كل من فى الدار فى عذاب واضطراب ، كأما الحياة كابوس أو حلم رائع ، حتى تماثل شيدوم وحمل الى والديه .

أما بسوناي فحمل فى نفس اليوم الذى وقعت فيه المأساة الى الهافر برفقة أحد الأساتذة ، وسلم الى أسرته على أن يبقى رهن تصرف القضاء .

وبعد ياسيدتى فإنى لم انعم ببقاء شيدوم إلا فى سنة ١٨٧٤ أى بعد ذلك بثمان وثلاثين سنة . قابلته لأول مرة منذ حادث الصبا وقد غدا الرحالة الأشهر الذى لا تجهل رحلاته وأعماله . وقد عمل ، وناضل ، وعانى ، وعرف المجد ، ولاقى أروع صنوف المصائب ، وكثيرا مادهمه الوطنيون فى إفريقية ، وافتحه سعي الشمس ، وعانى ألم الجوع والحمل فى الصحراء ، ونجا من الموت ألف مرة . وقد ماتت زوجته الحسنة غريقة ، وهلك ابنه فى الحرب الأخيرة شرمهك . ومع ذلك فأكاد يلقانى فى نيس حتى هرول نحوى ، وأمسك بيدي وصاح بى بلهجة يغلبها فرح الصبية : « ألا تذكر قصة خصلة شعر روزالى ؟ فقد ظهر أنها لم تعطها الى بسوناي ، ولكنه سرقها من غرفتها ، وقد لقيته فى العام الماضى فى ريودى چانير وفاعترف لى بهذا ! » ، فخدجت عندئذ شيدوم ، ولحمت عنقه الهرم يرتجف فرحا ، وقد أضاء جبينه الأصابع الجعد .

الثوب الحريرى

دخلت ذات يوم على الشاعر الشيخ كروزى لأستمد النصيح منه فى أحد الأمور — ويتعلم الإنسان فى كل سن — فوجدته هادئاً باسمه كعادته ، فى مخدعه الصغير الذى يزينه الوشى ، وقد جلس الى نار تضطرم ، فى كرسى ضخم ، وأخذ يداعب لحيته البيضاء الطويلة ، ويقرأ نظم رابليه فى سفر قديم ضخم . فقال : لى لعمرى لقد أرسلتك الآلهة واسوف تقوم لى بخدمة . إن أختى كما تعلم لم تغادر مرسيليا قط ، وسوف تزف فى الأسبوع القادم ، وقد رجتنى أن أرسل إليها عاجلاً ثوباً بديعاً جداً . ولما كنت أعلم أنك ما زلت من أبناء هذا العصر ، فقد رأيت أن أعهد إليك بشرائه .

ثم مد الى صديق الأشهر يده برزمة من الأوراق المالية ؛ ذلك أنه يعلم كل شئ ولا يجهل أن الثوب يقتنى اليوم بما كان يقتنى به من قبل منزل رجب أوقطعة أرض بديعة ؛ فقلت : أيها الأستاذ العزيز إني رهن إشارتك . ولكن ألسنت ؛ وأنت المصنف العظيم ؛ تستطيع أن تحسن الاختيار عني ؟ فأجابنى : كن كريماً ؛ ولا تضطرنى أن أزور أحد هاته المحال البابلية التى تغص بالأستار والورق اليابس ؛ والتى ترغب أن تقطع فيها ثلاث مراحل لتشتري بضعة مناديل ، والتى تباع فيها ساعات ومظلات وأقراط مموهة ، وترتسم على وجوه عمالها آيات السياسة ، وتقدم إليك فيها البسط التركية مكان أعطية الفراش ! — ثم أضاء وجهه بشراً ، وقال : وبعد فإني أؤثر أن أصدقك القول : ذلك انى أقسمت منذ ست واربعين سنة — بلى كان ذلك فى سنة ١٨٣٤ — ألا اشتري بعد أثواباً قط !

قلت لكروزى : عفوا أيها الأستاذ العزيز ، فما كنت فى سنة ١٨٣٤ تتجاوز الثامنة عشرة ، وما كنت تملك شيئاً من المال ، وقد جئت الى باريس دون

مورد للعيس غير الشجر الغنائى ، هذا ما قلت لى الف مرة . فكيف حدث
أذن أنك استطعت أن تسترى الأبواب الحيرية ؟

أجاب الشاعر الشعبيخ : لقد اقتضت أثر واطنى ميرى فى نظم التهم
المياسى ، فكنت أنظم القطع وأبيعها للمكاتب بدرهمات ، أو كنت أطبعها
نسيئة فلا يكاد دخلها ينهى بالغمات . وقد نظمت فى العهد الذى أحدثك
عنه ضد الوزارة ، إحدى هاته القصائد الملتبهة ، وأمدنى الطابع وتاجر الورق
نسيئة بما احتاج إليه لطبع ديوان خفم ، وكنت أحمل بنفسى نسخ الديوان
الى مكاتب الباليه رويال فلا يجذب من يعبل على شرائها .

« وكنت أقيم تحت السقائف فى المخزن السمير ، وهو ما كان يصلح
لسكاي حتى بعد ذلك بعامين أعنى لفتيان فى سن العشرين ، بيد أنى كنت
أختنق هناك . وكنت أفات كل يوم بقدر من اللبن ورعيف بفلس ،
كما كان يفعل بلزك الذى تعرفت به يومئذ ، على أنى ما كنت أنظم قصائدى
فى ذلك الوكر ، فقد كان لى طبقا لعادة ذلك العصر حبيبة ، كنت أفضى لديها
معظم أوقاتي ، وكانت القصائد المادرة التى أبيعها بمائة فلس والتي كانت ثمرة
الإلهام والوحى ، ندوب فى أزهار وتتحف لهذه الحبيبة .

« وكانت تدعى أجات . وكان لها رأس من أبداع ما ينصور الذهن ، ذات
عينين سوداوين كبيرتين ، وأنف صغير أفتى ، وفم أحمر كالزهرة ونحر طويل ،
وكانت ملبئة مشوقة ساحرة ، فى ثيابها البسيطة الأنيقة ، كانت مثل الفتاة
العامية الحقة ، وكان لها خيال رائق وذوق حسن فى الغناء ، وكانت تتحدث
كإحدى بطالات بول دى كوك ، فتصف الروابط الغرامية بقولها « أن تكون
مع أحد من الناس » .

« وكان محصل عزتها كفتاة شريفة أنها لا تتخذ فى نفس الوقت
سوى حبيب واحد ، على أنها كانت تحدثنى دون تحفظ عن أولئك الذين

تقدمونى . وكانت منذ الصباح الى المساء تجيل إبتها بانتظام يثيرنى ، فاذا قاطعتها بقبلاى شكت مر الشكوى من أنى أضعت عليها يوما تكسب فيه ثلاثين فلسا ، فتأمل ماذا كنت أرى فى ذلك الأسف الذى تثيره خسارة فلس أو فلسين ذهباً ضخمة لنشوة هوى ، أنا الذى كان يؤمل أن يكسب فى القريب العاجل من وافر الذهب ، ما يكفى لأن يسكن أجاث قصرا .

«ومع ذلك فقد كان يثيرها قلمى حين يجرى على الورق ، كما كانت تثيرنى إبتها . وأذكر أنها سألتنى ذات مرة متهمكة عما أكتب ، فأجبتها بالطبع أنى أنظم شعرا . فقالت لى اذن فغنه فقلت إنه شعر لا يغنى ، وكنت أحق فى هذا التصريح فقد حدجتنى بغضب بارد كما لو قلت إن النور تسيح فى الماء أو إن التماسيح تطير فى الهواء . ذلك أن فكرة الشعر الذى لا يغنى لم تفسر لها شيئا . ثم سألتنى بصوت أجس : وماذا تعنى أن تعمل بنظمك هذا ؟ فأجبتها : أريد أيتها الحسنة أن أشتري لك ثوبا من الحرير .

«فما قلت هذه الكلمات المدهشة حتى فتحت أجاث عينيها ، وبدت عليها أمارات الدهشة والشك والخشع والشهوة المضطربة . بيد أن ذلك لم يكن سوى قبس سرعان ما انطفأ ، ذلك انها ما كانت لتستطيع أن تعتقد أمرا عظيما كهذا الذى قلت ، وقد كان الثوب الحريرى والدولاب ذو المرايا والزهور الصناعية أحلامها العظيمة . سألتنى بتهكم : تقول ثوبا من الحرير ومتى يكون هذا ؟ فأجبتها بشر : « فى ظرف خمسة عشر يوما » وما كنت أعرف بأى روح من الترقب كانت هذه الفتاة الحازمة تعد الدقائق والساعات .

«مضت الخمسة عشر يوما ، وكان آخر يوم ١٠ أغسطس . ففى صباح هذا اليوم لم يكن معى من الدراهم ما أتناول به قدحى من اللبن ولا رغيفى الصغير ، فسرت أطوى الحشا الى مقام صاحبتى فى شارع ماى . ولما اخترقت الباليه رويال ، ألقيت على المسكاتب نظرة الإجمام ولكنى أجبت لسوء الطائع

أن شيئا من قصائدى لم يبيع ، وكان أصحاب المكاتب يجدوننى باحتقار؛ فلما انهكتنى الذلة وقوارص الجوع فكرت فى عيى أجات النجلوين وفى شعرها الجعد ، وفى شفتيها الحمراوين ، وخطت أنى أتأسى فى الحال اذا ما رأيتها تبسم . بيد أنى وجدتها باردة قاسية ، وكأنما غدت أجنبية عني ، وسألتنى عن الثوب الحريرى كما يسأل رسول القضاء دفع الدين ، فلما أجبتها مكتئبا انى لم اشتريه ، امتقع لونها جدا ولمعت عيناها ببارق من البغضاء الوحشية ، وصاحت وهى تفتح الباب : « آه انك لم تشتريه اذن ففى وسعك ان تذهب فلا تعود إلا به » .

وكنت جائعا جدا ! ومع ذلك فقد شعرت أن دمتين حاريتين تجريان على خدى ، اذ كنت أعبد هذه الفتاة ذات العقل الصغير ، والصوت الرخيم . ولكن سرعان ما تحول مجرى أفكارى إذ لاحظت حين خروجى فى الشوارع حركة غير عادية ، ورأيت الناس مجتمعين جماعات يتحدثون بحاسة ، ويندفعون هنا وهناك . ثم سمعت بضع عبارات فهمت منها حقيقة الأمر . ذلك أن أخبار ليون وصلت الى باريس ومؤداها أن العمال وثبوا بالأحياء الصناعية ، فقتل وجرح من جنسد الحكومة والعمال مئات عدة . وفهمت أن الثورة أخذت تتحرك فى باريس أيضا ، ذلك أنه قبض على معظم أعضاء لجنة حقوق الإنسان ولم يفلت منهم سوى اثنين ،

كل هذه : قتلى ليون ، والاضطراب فى باريس وفرار الجمهوريين ، اختلطت فى رأسى المحطم ، بقصيدتى ، وبأجات ، وبالثوب الحريرى . فلما جرت الى الهاليه رويال أدركت لأقول وهلة أن اصحاب المكاتب ينتظرونى ويتقبنونى ، ذلك أن قصائدى اختطف على ما يلوح ، بيد أنى ما كنت أتصور الى أى مدى . واذا بصاحب مكتبة قد وثب نحوى وأمسك بى متبيجا ، وكأنما يرى أن ليس لديه وقت يضيعه فصاح بى مباشرة : يامسيو كروزى ، أتبعينى ملكية قصيدتك « الجيزوتيد » بثلاثين ألف فرنك ؟ فلم تمض ثلاث

دقائق ، حتى جذبت الى داخل الحانوت ووقعت العقد المعد ، وألقيت نفسى
فى الحدائق وفى جيبي ثلاثون ورقة كبيرة .

ثلاثون ألف فرنك ! وكنت فى الثامنة عشرة ، وكنت جائعا ! كان
فى وسعى ، وأنا أنتظر الغداة الغامضة وما تتجمل من صراع مستعر ، ودخان
بارود ، وحصار ، أن ادخن سيكارات هافانا الشقراء ، وأن أشتري الأثاث
والرياش ، وأن أتمتع باولئك النسوة الأنيقات اللأى كنت ارى مناهن بعيدا
فيما وراء الأفق الأزرق . وكان فى وسعى بالأخص أن اتعشى ، ولكن هل
تخز ما صنعت ؟ هل تظن انى فكرت فى العشاء ؟

أجبت كروزى : كلا ! بل أظن أنك اشتريت الثوب ، ففى مثل هذه
الأحوال يشتري المرء الثوب دائما .

قال الشاعر : نعم فقد اشتريت ثوبا ، بل اشتريت عشرة أثواب مختلفة
الألوان ، وسرت بها الى مقام أجات يتبعنى عاملان ينوء عاتقاهما بما يحملان .
وكانت حاجبة المنزل تقف بالباب ، فاستوقفتنى با بتسامة شيطانية ، وقالت
« ان الآنسة أجات لم تعد تقيم هنا فان السيد الذى تصحبه الآن قد اقتادها
فى عربته » فحملت أثوابى العشرة . ولكنى منذ هذا اليوم أيها الصديق العزيز
لم أشتري ثوبا قط ، ومن أجل هذا رجوتك أن تقوم بهذه الخدمة .

قلت لكروزى : أيها الأستاذ العزيز ، من السهل أن يعتقد المرء أن فتاة
من العامة حازمة ذات عواطف ، قد غيرت حبيبها فى خمس دقائق . ومن
الطبيعى أيضا أن يحدث خلال العواصف السياسية التى تجعل نزعاتها كل شىء
ممكنا ، وفى سن الثامنة عشرة التى تتم فيها كل معجزة ، أن شاعرا فرنسيا
يستطيع أن يربح من نظمه ثلاثين ألف فرنك . ولكن الذى لا أدركه اطلاقا
هو أن امرأة مهما كانت ، تتجمل اليها أثواب عشرة دفعة واحدة ، فلا توحى اليها
بذلك نبوءة صادقة ، ولا تشعر بأن أثوابا تتجمل اليها .

سوء التفاهم

أجل ياسيدتى ، يعلم الله وحده كم تجشم رولان داريه ، من شدائد ، وكم خاض من معارك ، وكم ضحى ، وكم جاز من أسفار وصعاب ، فى سبيل إعداد الغرفة التى تصورها ونظمها كما ينظم خريدة من الشعر ، ليستقبل فيها الممثلة الحسنة الشهيرة جنى ليثرون . فما فرغ من إعدادها حتى أضحت بطلائها ، وأثاثها الحريرى ذى اللون الوردى البديع رسمت عليه أزهار المروج ، وسريها الابيض الذى هو آية من تحف القرن الثامن عشر ، ومكتبتها المطرزة بالعاج النفيس ، ومرآتها التى تمثل اختطاف جانيميد ، وساعتها المصدفة ، وبسطها الناعمة الكشيفة ، وآنيتها الفئيزية المذهبة — أضحت حقا جنة دنيوية للهوى ؛ ولكن شاء نكد الطالع أن لا ترى جنى ليثرون تلك الغرفة التى كانت وليدة فكرها اذا صح القول . ومع ذلك فقد نال رولان دارسى كل ما بغى وأمل ، وهذه هى قصة السعادة البشرية التى تذهب من بهاء الشكل الذى تخيلناه صورة لها ، اذا ما ظفر نابها مصدفة ، والتى لا يحل الفشل فى نبيلها امرأ على الموت .

كانت جنى ليثرون ككل أولئك الذين عرفوا رولان ، ذلك الشاعر الظريف الذى ينعم بعلم الساحر وبراءة الطفل ، والذى لبث طول حياته يتردد بين الحلم والجنون — تشعر نحوه بصداقة جملة خالصة ، غير أنها كانت بعيدة جدا عن أن نتصور ذلك المخلوق الوديع النابه يهيم بها غراما ؛ وكانت المثلة يومئذ فى أوج شهرتها وذروة شبابها المعبود ، وكان رولان يأتى لرؤيتها فى دار الاوبرا الهزلية ، فى مخدعها الذى يغص بكار المؤلفين ، ونخبة الضباط والنبلاء فلا تشعر أنه يفتريها بعينيه ، ويحرق كتفها بنظراته الملتهبة ، وأنه يكاد يتحطم على صخرة رغبة يفوق اضطرامها كل قوة بشرية . ولكن شاء القدر ذات

منساء أن يكون الشاعر آخر من يبق في مخدع صاحبتة، وكانت جنى قلبا
تأنس في وجوده شيئا من الحرج، حتى أنها لم تر بأسا من أن تبدى أمامه وهى
تغير ثوبها من كنوز جسمها البديع أكثر مما يكفى لذهاب رشفه، ولكن
لشد ما كان روعها حينما ارتدت نحو رولان بخاة فلمحت وجهه المضطرب،
وعينه اللتين اتسعتا تأثرا وانفعالا، وأخذتا ترسلان مدرار الدمع .

فصاحت به : رباه ترى ماذا أصابك ؟

فبذل الشاعر المسكين جهدا كذلك الذى يجب أن يبذل للاعتراف
بجريمة قتل وقال : ان ما بى هو أفى أحبك !

فلم تتألم جنى ليثرون رغبة ما فى الضحك . ذلك ان هذه المرأة التى
ثلثت بكل آيات ظفر فى الحياة وفى الفن ، كانت فى أعماق سريرتها رقيقة
الفؤاد والمشاعر، وإذا كان يستحيل عليها أن تبادل رولان هواه ، فإنها مع
ذلك تأثرت لمصابه أيماء تأثروا قالت : « آه أيها الصديق ، لست أود أن
يقال انك قاسيت من أجل ومنى فأنا لك ! »

وقد يكون للأخلاق مأخذ على ذلك ، ولكن شيئا من النبيل كان يحيط
تصرف هذه المرأة المعبودة، التى ترى عند قدميها كل أمراء الأرض وكل
جواهرها، ومع ذلك تحملها السذاجة والطيبة الخالصة، على ان تهب نفسها
لناظم أفقر من أيوب .

امتقع لون الشاعر أيما امتقاع وغمغم قائلا : ماذا ! أأسمحن بزيارتى !
أجابت جنى : « أزورك حيثما ومتى أردت ، ويوم تدعونى أجيء » .
ففتز رولان هائما على وجهه ، وأخذ فى تلك الليلة يجوب باريس من
أقصاها الى أقصاها ، وقد غص رأسه بأغرب الفكر وأعقدها . فلم يلبث ،
رغم جنونه فرحا وسعادة ، أن ذكر أنه مازال يعيش عيشة النورى المتجول ،
بيت تارة تحت أشجار الغابة ، وأحيانا فى غرف مفروشة ليست بخير منها .

على أنه في الصباح آنس في نفسه عزما دونه كل عزم، فهورل الى الناشرين
والى مديرى المسارح والمجلات وباع من كتاباته كل ما استطاع بيعه ،
وعرض عليهم مشاريع قصص وقطع مسرحية ديجها يراعة ، وحصل من
كل ذلك ما استطاع تحصيله ، ثم ذهب فعهد بكل شئ الى صديقه وزميله
الشاعر فكتور ليكلا ، ولما سافر فى المساء الى هولندا شعر لأول مرة أنه
يحمل فى جيبه ما يشبه مبلغا من المال .

بعد ذلك بعدة أسابيع ، فى نحو الساعة السادسة من الصباح كان فكتور
ليكلا غارقا فى عميق نومه ، فاستيقظ مذعورا على صوت جرس وطرق عنيف ،
فذهب وفتح الباب فاذا به وجها لوجه أمام رولان ومن ورائه ثلاثة حاملين
أشداء . وكان رولان قد وجد فى أمستردام السرير الذى يبحث عنه ، فشحنه
فى ثلاثة صناديق . ثم سافر فى الحال الى البندقية ، ليبحث عن ثريات مذهب
نادرة ، تاركا لفكتور مخطوط كتاب وضعه عن هولاندا ليحمله الى مدير
المجلة ، ولم تمض بضعة أسابيع أخرى ، حتى أيقظ فكتور ثانية وحتى قدم
رولان يحمل الثريات النادرة . ثم سافر ثانية الى فينا ليحمل منها ما استطاع
من التحف .

وليث رولان يحوب أنحاء أوربا جوب اليهودى التائه كما كان يحوب
باريس فى أمسيته ولياليه ، فكان يؤم مدينة من المدائن ، فيشتري منها تحفة
نادرة ، ويتلمس وفاء ثمنها بتكديس المخطوطات على مائدة الكتابة ، وكلها
قصص شائقة يرسلها الى صديقه ليبيعها ويرسل بثمنها اليه لينقذ نفسه
وتحفته . ولم يكن رولان فى أثناء ذلك يقيم فى باريس سوى الليلة واللياليتين ،
فيرتقى فوق إيوان فى مخدع صديقه ، ثم يذهب فى المساء الى دار الأوبرا بعد
أن يحكم إتقان زينته ، ليحظى برؤية جنى ليثرون . وكانت المثلة قد اعتادت
أن تعتبره كقطعة من أثاث مخدعها فلا تعنى بحضوره كما أنها لا تعنى بغيابه ،

ولعلها كانت تدهش أيما دهش لوقيل لها أن رولان يسيع من آن لآخر سياحات صغيرة . أما المنظر الغرامي الصغير الذي حدث بينهما فقد نسيته كل النسيان، نسيانها لأوّل ساعاتها الذهبية . وذلك أمر طبيعي بالنسبة لامرأة تقبض على أعنة أمراء عدة، وتحفظ مختلف الأدوار في كل يوم . وأخيرا تم إعداد الغرفة الشهيرة . واستقر رولان في باريس واستأنف زيارته الخفي . وكان في كل مساء يهيم بالكلام، بأن يصيح بها «لقد أعددت الغرفة !» فكان يلوح له دائما أن أول كلمة ينطقها تحطم صرح أحلامه ، فيلوذ عندئذ بصمته وانفعاله الخفي . وكان عزمه قد تصرم وذكاؤه قد خبا، فلم يعد يقرض إلا القصائد الروحية التي لا يقبل على شرائها أحد . وكان يحياه يعرب عن الألم المبرح حتى أن جنى ذات مساء تأثرت لكتابته فلم تنمالك أن سأله عن السبب، فأجاب رولان مغمغما :

« ولكنني أحبك دائما » .

فصاحت جنى بابتسامة ملاكية : وراحته يا صديق المسكين . ثم ذكرت بخافة ما كان بينهما وصاحت به : ولكن لم لم تحدثني عن هذا ؟ ثم صرفت في الحال وصيقتما بإشارة قائلة لها : « لا أريد أن أقابل أحدا » . ثم أغلقت باب مخدعها بالمفتاح والمزلاج ، وجلست وجذبت رولان إليها ، وأمسكت بيديها الصغيرتين البديعتين رأس الشاعر الهائم الباكي . وهكذا نال رولان دارسى أمنيته الغالية، بيد أنه لم يجرؤ أن يذكر سيرة الغرفة، ولم ترها جنى قط . ونحن نعرف أن تلك المرأة الفاتنة قد ماتت فتية ، وإن رولان شهد دائئها يبيعون تلك الرياش البديعة التي كانت تذكره دائما برأى الحبيبة . ولم يفهم رولان قط كيف أن جنى قد ماتت وكيف أن رياشا قد بيع، حتى لقي هو تلك الميتة المفجعة التي ينفطر لذكراها الفؤاد .

الرق المشروع

كانت مرجريت داللىرى تلك الفتاة الهيفاء، حقا صاحبة الدوق الشيخ جوسيران دى بلاندراس ؛ وكان الناس جميعا يظنون يوم استقرت في قصر الدوق أنها إحدى بنات أسرته . ولكن من كان يظن أن ذلك الشيخ، مديد القامة أصلع الجبهة، الذى يكال الشيب الناصع رأسه، والذى جاوز السبعين حتى غدا يشبه صور الأجداد — من كان يظنه قادرا على الابتسام بعد ؟ أما مرجريت التى كتب اسم أسرتها على الأثر (داللىرى) فقد كانت فتاة في السابعة عشرة، غير هزيلة ولكن نحيفة كأبدع الأشكال التى تعتبر مثلاً ؛ وكان شعرها الأسود ذو الخصلات المعقوصة، وصفاء عينيها الذهبيتين، وثغرها الحلو، ويدها الشفافتان، وقوامها الطريف المسجوع، كلها تعرب عن براءة طاهرة، حتى لقد كان وجهها يعرب أحيانا عن تلك الصرامة التى يبعثها مقت الحياة بلا ريب، والتي تراها ماثلة في وجوه بعض القديسات .

وكان أصدقاء الدوق القلائل الذين مازال يسمح برؤيتهم، وكلهم شيخ مثله، يعجبون غاية الإعجاب بسمائل الآتية داللىرى الباهرة حينما تأتى رشيقة خفيفة كالطيف، فتقدم إليهم أفداح الشاي بحركات ملكة ووقارها، وكان صوتها الرخيم اذا ما تنازلت بالكلام يقع لديهم وقع المداعبة . وكانت نقية محسنة بل ورعة لا تبسوا إلا في أثواب محتشمة ؛ وقبلما تتجمل إلا ببعض الحلى القديمة ؛ وكان أصدقاء الدوق لا يرون بأسا من أن يقصوا أمامها ذكريات حروبهم، وأن يقولوا كل شيء كما يقال أمام فتاة صغيرة ، بل كانوا يرون اذا ما قص أحدهم واقعة دموية، عينيها النجلاوين تسطمان ، فلا يدهشون لذلك ، إذ المعروف أن العذارى لا يشعرون نحو الدم المسفوك بذلك الروع الذى يشعربه الأمهات اللاتي عانين آلام الأمومة، هذا الى

أنهم جميعا كانوا من أسر رفيعة، لا تقدر كبير ثمن لفتاة بارعة في الحسن لا تعرف العزف على المعزف ولا التصوير .

وقد يحدث أحيانا أن أحد أصدقاء الدوق يطلب اليه يد ربيته ، ولكن الدوق كان يوجب دائما عن هذه الإقتراحات المزججة بجواب واحد هو : «أيها الصديق العزيز إن الآتسة داليري غنية جدا فهي سترث عشرة ملايين على الأقل وعندئذ يقال أنك اقترنت بها من أجل مالها» .

وهكذا كان لذلك الفردوس الدنيوى الذى نظمته الدوق چوسيران فى شارع ليل بأثرة شيخ مؤمن يزعم أنه يستطيع أن يحقق السعادة الدنيا ، أن يبقى طويلا بل أن يبقى أبدا ، إذ كان يمتاز بأنه فردوس غير محتمل الحدوث ، ومن ثم غير معروف . لكن المرء لا يستطيع العيش دون حشم ، وقد شاء نكد الطالع أن تظهر وصيفة على مسرح الحوادث . وكانت فرچيني هذه ، وهى فتاة حسناء قبيحة معا ، قد عنيت منذ بدء هذا الزواج بتأمل صور الأسرة ، وما لبثت أن فاجأت سر سيدتها ، وأملت أن تخرج منه مائة ألف جنيه من الربيع . وكانت باريزيه وافرة السفالة ، تحمل فى قلبها الخطيئات السبع وغيرها ، بارعة فى الأزياء والتطريز ، متفقهة فى شؤون الزينة ، عالمة كالكتاب تفهم جيدا معنى الخير والشر ، تجيد الطهى الى حد أنها تؤكل من لا يؤكل ، وكانت كلما تأملت نفسها فى المرأة قدرت فى الحال بعين النقادة الماهر منظر شعرها النحيل ، وشفتيها الباهتتين ، وصدرها المبسوط . كانت متفقهة مع نفسها على ما يأتى : وهو أنه يجب ألا تعتمد على جمالها فى أن تشق لنفسها طريقا ، وأنه يجب عليها من أجل ذلك أن تحل عقدة دقيقة التركيب وافرة التعقيد .

ومع ذلك فقد جالت بخاطرها بادئ بدء فكرة بسيطة ، هى أن تحل محل مرجريت ، وقد طافت من أجل ذلك حول چوسيران وهى تومىء اليه

بنظرات تذيب الصخر، مؤلمة أن تحمل غريزة المتعة، وضوء ابتسامتها الخبيثة، ولعان عينها المظلمة، ذلك الشيخ أن يجد فيها متاعا للهو، مضطربا يوقظ الموتى . ولكن الشيخ كان يعنى باستمراء حبه السعيد، فلم يلتفت الى إغراء الوصيفة كالبلخيل حين يحصى قطعه الذهبية لا يصغى الى صدح البلابل .

ورأت فرجيني أنها سقطت من ذروة حلمها، فعكفت على التربص وأخذت ترقب مرجريت بلا كلال ولا سأم، وكان محققا أن تفلح، لأن شهوة الشر كانت تمزقها، وكانت لها حواس دقيقة كحواس الهمجى . ففى ذات صباح من يناير كان البرد ينهمر مدرارا، ولكن الأنسة داليرى خرجت مع ذلك لتزور فقراءها . عندئذ سارت فرجيني توا الى مكتب الدوق حيث كان يشغل بالكتابة، ودخلت دون استئذان ولا تكلف، وقالت له بلهجة تضطرم: هل يعرف سيدى الدوق أين توحّد الأنسة فى تلك الساعة ؟

وفى وسعك أن تتنبأ بما يسفر عنه حديث من هذا النوع . لم تمض ثلاثة أرباع ساعة، حتى كان الدوق دى بلاندراس قد التحف بمعطف سميك، وارتدت فرجيني ثياب سيدة أنيقة، ثم سار الاثنان الى حانة فى بلقيش، ونفذا إلى هوها الأ كبر حيث كان الثملون، والمحجبون، والنسوة الفاجرات ذوات الأذرع العارية، يتناولون الطعام عقب الحفلة الراقصة . وجلسا فى ركن مظلم، وهنالك ما لبثت سخابة أن غشيت عيني الدوق، إذ لمح إلى مائدة قريبة ففى جميلا مديد القامة يتجمل بالخواطم والدبابيس والسلاسل البراقة، وإلى جانبه مرجريت داليرى عارية الذراعين منقوشة الشعر تحسّى الخمر فى أقداح كبيرة، فهم بالوثوب من مكانه ولكن فرجيني منعتهم بحزم حرصا على ألا يتبدّد هذا المنظر بسرعة . وكانت مرجريت تطوق بذراعيها الساحرتين عنق صاحبها الضخم بلا اكتراث، وكان الدوق يصغى كل الإصغاء الى حديثهما فلم تفتته منه كلمة . قالت مرجريت بصوتها الناعم الرخيم : قبلنى ثانية يا فرجرون .

قال : اليك عنى فلست أحب هذه السخافات .
قالت : آه ! أنك لا تستطيع أن تقول ذلك لو كانت ميلى فى مكانى .
قال : وما شأن ميلى فى هذا ؟
قالت مرجريت وهى تصرف بأسنانها : لقد كنت تاجرا صغيرا ، أما اليوم
فأنت تاجر كبير ولك كتبة ...
قال فرچرون : وبعد ؟ ثم أخرج من جيبه ذهباً وأوراقا مالمية وأخذ
يعدّها فى سكون .

قالت : وبعد أفتريد أن تكون مدير مسرح وسوف تكونه ، غير أنى
أعلم أن ذلك لكى تحصل على النساء ! كل النساء اللائى ترغب فيهن إلا ميلى ،
فهذه الآئمة تغف على أسرار شنيعة ، وعلى ذلك فسوف تحتفظ بك .
قال فرچرون : وميلى إذا أردت أيضا ، فأنا السيد .

فصاحت مرجريت : آه أهكذا الأمر ؟ ثم استلت من جيبها مديّة
وانقضت على فرچرون الذى استل أيضا مديته دون أن يفوه بكلمة .
ومضت لحظة كان الراقصون فيها يشهدون المعركة فى هدوء وجمود إلى أن
أصاب مديّة التاجر ذراع مرجريت العارية . وفى تلك اللحظة إذ رفعت
بصرها ، حانت منها التفاتة إلى الدوق ، فصعقها الرعب ؛ ففرت إلى مخدع
قريب ، وأغلقت وراءها بابه بعنف وسقطت صارخة .

وفى صباح اليوم التالى كانت مرجريت تقول للدوق دى بلاندراس ،
وهى ترسل اليه نظراتها الساحرة البريئة : « أجل إنى أصغى الى قصة تلك
الشقية ولا أفهم منها شيئا ! فكيف استطعت أنت أن تصدق انى كنت ماثلة
فى الحادث ؟ » قالت ذلك وعلى ثغرها ابتسامة عتب حلوة فغاضت نفس الدوق
الشيخ ثانية ، وقد ساوره مر الندم .

وصاحت فرچينى التى دخلت عندئذ بفأة ووثبت الى جانب مرجريت :

تبا لهذه الأكاذيب ، ثم أخذت تمزق بأصابعها وأسنانها ثوب الفتاة بعنف وهي
تصيح بالدوق : لقد رأيت أيها الدوق جيدا انها تسخر منك .
هم الدوق بالكلام ، فقاطعته الأنسة داليري قائلة : دعنى آوى الى
مخدعى أيها العزيز اذا أشعر بخفوق فى القلب والتهاب فى الصدر ، واذا أريد
أن أكتسب هيئة الفتاة الطاهرة بأسرع مما تستطيعه ممثلة ! ولنسلم بأنى
أخونك ، ولكن يجب أن تساعدنى أيضا . وقد كان أول ما يجب فى هذه
الحالة هو أن تصرف هذه الوصفة ، اذ ما كنت لأستطيع فى نهاية الأمر
أن أقوم بكل شئ^(١) .

(١) أخذت هذه القصة ، وما تقدمها من قصص دى بانثيل ، من مجموعة Contes pour les

femmes

صفحہ

من

مارسل پریستو Marcel Prévost

مارسل بريشو

بريشو ؛ قصصى ، وكاتب مسرحى معاصر ؛ ولد بباريس سنة ١٨٦٢ ،
ودرس الهندسة ، ولكنه مال الى الأدب ، واشتغل به منذ الحداثة ؛ وظهر قبل
أن يجاوز العشرين فى ميدان القصص ؛ ولقيت قصصه منذ البداية نجاحا
واسعالا . وكان من أولى قصصه وأبدعها Le Moulin de Nazareth
كتبها فى نحو العشرين . ثم أخرج بعد ذلك عدّة روايات كبيرة قوية نذكر
منها : Le Scorpion و Mlle Jouffre و Cousine Laure و Con-
fession d'un amant . وفى سنة ٩٢ نشر أول مجموعة من رسائله النسوية
الشهيرة Lettres de femmes ؛ وهى قصص ومواقف اجتماعية صيغت
فى رسائل نسوية كتبت على ألسنة النساء بختلاف صفاتهن ، من زوجة وخليفة
وصديقة ، فتية وعجوز ، وتصف أحوال الأسرة والمجتمع والحب والزنا
والإجتماعية فى صور تهكمية لاذعة . وقد لقيت هذه الرسائل نجاحا عظيما ،
حتى أن بريشو عاد بعد ذلك فكتب منها مجموعتين أخريين هما : Nouvelles
lettres de femmes و Dernières lettres de femmes ؛ كتب بنفس
الطريقة والأسلوب . ولكن بريشو لقي ذروة شهرته سنة ٩٥ ، حيث نشر
روايته الشهيرة : Les demi-Vièrges ، « أنصاف العذارى » ، وهى قصة
قوية مثيرة عن المجتمع الباريزى والفتيات الباريزيات ، ولا سيما بنات الأسر
الرفيعة ، فأثارت عاصفة كبيرة من الاستحسان والنقد معا ، وصيغت للمسرح
فى العام التالى ولقيت فيه نجاحا عظيما . وأخرج بريشو بعد ذلك طائفة من الروايات
الإجتماعية القوية نذكر منها : Les Anges gardiennes و Frederique
وفىها يصف مفاسد المربيات ، وغيرها .
وبرع بريشو فى القصة الصغيرة أيضا ، وله منها عدّة مجموعات قوية ساحرة

تمتاز بكثير من إحكام الفكرة، وطرافة المفاجأة، ودقة التصوير والفن، نذكر منها : *Missette* و *Femmes* و *Le Pas relevé* و *Trois Nouvelles* و *La Fausse bourgeoise* ، وغيرها .

وقد دخل يريفو الأكاديمية الفرنسية، وتبوأ مقامه بين الخالدين في سنة ١٩٠٩ . وهو فنان مبدع ، يصور المجتمع والأشخاص والأشياء في ألوان قوية ممتعة . ثم هو من كبار مدرسة الحقيقة والواقع ، يصور الحب والعواطف البشرية طبقاً للواقع المحسوس ؛ وله في المرأة وعواطفها نظريات قاسية تجعله في ذلك أشبه الكتاب بموياسان ؛ فهي في نظره مخلوق غادر يضطرم هوى ، وقلمها تحكمه مبادئ الأخلاق أو العقل ؛ وقلمها تعف أو تخلص . والزواج سنخريّة اجتماعية ؛ فلكل زوجة صاحب ، ولكل زوج صاحبة ؛ وأسلوبه غاية في البساطة والقوة والرشاقة والجرأة ، بيد أنه يبدي براعة كبيرة في عرض الآراء والمعاني ، فيخرج أدق الآراء والصور الاجتماعية والجنسية في عبارات رقيقة محتشمة ؛ وهو يرمى بكتّابته الى مثل ومبادئ أخلاقية سامية ؛ والى اصلاح ما يعرض من صنوف المفاسد الاجتماعية .

التاريخ

فى غرفة من مطعم فوازان أعد عشاء فأنحر هو إحدى هذه الأعشية الدورية التى يعتبرها بعض المجتمعات الباريزية ، العاملة الأنيقة معا ، أحد عناصر الحياة الإجتماعية ، فهى تجمع بين المعاصرين وبين الأصدقاء الذين تشغل مهامهم المختلفة فراغ عامهم ، وتسمح لهم من وقت لآخر بهدنة مشتركة فى خاتمة يومهم . وقوام هذه الأعشية عادة كهول أو شيوخ يزدان سوادهم بالأوسمة ، فإذا أزفت الساعة العاشرة ، أخذت السيارات والعربات الأنيقة تنتظم فى ركن سان أونوريه وشارع كامبون ، لتنتظر أولئك الأضياف ذوى المكانة . والواقع ان كلا منهم يمثل عنصرا من عناصر الحياة المضطربة فى المدينة ، وهو ما يشعر به ويعتز ، ويعتزا أيضا إذ يعتبره بعض كبراء المجتمع الباريزى لهم قرنا يعرفون من شأنه .

على أن العشاء فى هذا المساء لم يكن يشهده سوى القليل منهم . فقد نفث ربيع قاس ، الزكام فى كل أنحاء باريس ، وجذبت حفلات الصيد الأخيرة قرا الى الريف القريب ، فلم يحجب الدعوة سوى ستة من الاثنى عشر صاحبا ، هم الممثل مجريه ، والدكتور تاقرنييه ، والكونت بلوا وهو صاحب مصنع سيارات كبير فى نانثير ، وهربلان وهو مؤلف مسرحى بارع ، ومدير السين ، والأستاذ فيجيه بوكار عضو مجلس المسجلين . وكان الجميع إلا هربلان يدخنون «سيكارات» فاخرة ، ويشربون فى بطء قهوة صهبها كبير الطهاة أمامهم . أما فتانى النجر فقد بقيت كلها مغلقة ، إذ كان كل أولئك الرجال العاملين الناضجين ، يعتقدون التوجس الحديث من سم النجر ، ومع ذلك فقد كانت ثمة حرارة لطيفة ناعمة تهيم على ذلك العشاء الأنيق . فاستعرض هربلان وتاقرنييه وكلاهما محدث بارع ، فضائح الأسبوع الصغيرة . وقص مجريه قصة

مسلية ، ثم تناول هربلان ومدير السين الحديث عن النساء ، وعن الدور الذى يؤدونه فى حياة الرجال العاملين ، وكان كلاهما زوجا سعيدا بأسرته ، فكان يشيد بنعم الزوج والشريكة الفاضلة ، أما مجريه الذى تزوج من فتاة كانت من نماذجه ، والكونت بلوا الذى كان يقال ان الاضطراب يسود أسرته ، فلم يعارضا فى أن شريكة ذكية مخلصة ، تستطيع أن تفيد فى سعادة الأسرة ، بيد أنهما أبديا ريهما فى امكان العثور بمثل هذه الشريكة ، ثم قال بلوا وماذا ترى أنت فى هذا يا أستاذ فيجييه .

وكان المسجل حليقا يشبه محياه محيا رجال الدين فأجاب : انى أعزب . قال تافرنبيه هذا صحيح فأنت مسجل وعضو فى مجلس المسجلين وأعزب ، وهذا ما كان واجبا أن لا يكون ، بيد أن صديقنا قد آثر على ما يلوح أن يحتفظ بكل حريته فى أن يخطب ود كل العميلات الحسنات . فأبدى الأستاذ فيجييه بوكار حركة ارتياح فقهقه لها الجميع وصاح : العميلات الحسنات ! الا فليحفظنى الله منهن !

وبسط يديه الى الأمام كأنما يدفع عن نفسه هجوما عليه . فقال هربلان ، ومع ذلك فقد عرفتك جوالا فى الحى اللاتينى يوم كنا نزور معا «نزل لاثير» .

فاستعاد محيا فيجييه بوكار سكينته ، وقال لقد مررت بهذا . فحذجه الخمسة معا ثم قال : اجل مررت بهذا وكنت ككل الفرنسيين فى عصرى فتى اعتقد أن أشرف ما يشغل به المرء وقته هو غزل النساء بل كنت أعتقد أنه واجب ، وقد حاولت أن أعالج العمل والغزل معا ، فسرعان ما ألقى القدر على درسا قاسيا ، بيد أنى استفدت منه فلزمت السكينة ، وهذا كل قصتى .

فاعترض هربلان قائلا : كلا ليس هذا كل تاريخك ، بل هذه عبرته .

فقط . اذن ففضل بأن تقصه علينا ، هيا ، وتحدث قليلا أيها المسجل .
وأيد الباكون هجوم هربلان . فنزل المسجل على هذه الإرادة . وكان
يعرف أنه محدث بارع ، ويشعر في نفسه بذلك النوع من الروح الخاص ، الذي
قد نسميه « روح القصص » .

قال : اليكم الحادث في كلمتين . كنت في التاسعة والعشرين ، كبير
الكتاب الحقيقي في مكتب عمى الأستاذ بوكار الذي خلفته ، واذ أقول أنى
كنت كبير الكتاب الحقيقي ، أعنى كنت ساعد الأستاذ الأيمن رغم كوفى كنت
أعتبر من الهواة فقط . أما كبير الكتاب الرسمى فقد كان شيخا متهدما ، وكان
الأستاذ بوكار يبقى عليه شفقة منه ، حتى يعجز المسكين عن الحركة .

« وكنت أعمل بجد ، وبلذلى عملى . وأعرف جيدا أنكم ترون اغراقا ،
أنتم رجال السياسة ، والصناعة الكبرى ، والفن أو العلم ، أن يستطيع شاب
أن يشغف بالأوراق . ولكنكم تجهلون ما هو المسجل بالنسبة لمعظم العملاء
الباريزيين ، فهو في نفس الوقت مدير أموال الأسرة ، وناصح الوالدين ، ووصى
الأبناء ، وخل الأزواج ، ومستودع أسرار النساء . وهو الذى يسجل كل عمل
عظيم في الحياة البشرية ، ثم هو خير من يعلم لماذا أجريت هذه الأعمال
أو تلك ، وقد يتوقف عليه أحيانا أن يعدل مداها أو منحاها . وهو الذى
يعترف اليه بكل شئ تقريبا ، ويحزر ما لا يعترف اليه به . وهو الذى يرقب
سير المال والحب ، — قواما للجهود البشرية — أقرب ما يود ، لدى كل
أعضاء الأسرة الواحدة . وكنت في سن التاسعة والعشرين ، استخرج لنفسى
كل ما أستطيع من ملاحظات جميلة في هذا المترك ، وآنس لذة مريئة في أن
أدجمها في صيغ العقود المسجلة . وكنت كاتب مجيدا ، وكان العملاء يتحولون
الى مخاطبتي شيئا فشيئا ، ويسرون لسرعتى ومهارتى .

« وكنت فتى جميلا . وإياكم أن يصدقوا من يقول إن النساء يجنهن

ذكاء الرجال أو مواهبهم، أو مراكرهم، بل ولا مالهم، فقد انتهت من تجاربي وملاحظاتى الخاصة الى أن النساء، يسرن بالفريزة بادی بدء الى الى الفتیان الحسنان . ولكن الفتیان الحسنان، على الأغلب، أغبياء لا يعرفون الاستفادة من هذا الظرف، وهذا ما يقتر التوازن لمصلحة الآخرين .

« ألسنا، قبل الثلاثين نجيش بنشاط وافر، وفي نفس الوقت برغبة تنضطم في الحياة، ونتوق الى الغنى والنفوذ والحب ... وكل شيء ؟ لاح لي أن طبعي جدا، أن مهنتي تغذى ذوقى للعمل وذوقى للسرور معا . وكان العم بوكار وافر الدهاء، وافر الحصافة، فكان يعطني دائما ويقول لي «اياك ومغازلة العميلة » على أنى كنت أخالف هذا التحذير، بل أعمى في مخالفته مؤمنا بعزيمتى وقوة نفسى .

« ثم انتهى العم بوكار بأن باع لي مكتبه بستائة ألف فرنك . وألفيت نفسى في سن الثلاثين مديرا لمكتب من أعظم المكاتب الباريزية . فازدهر في عهدى . وكنت أبذل العم بوكار بلا ريب في ادارة الأعمال . بيد أنه لم يكن بعد هنالك ليرقبني ويعطنى، فاندفعت بكل قاي الى الغزل .

« وكانت لي عميلة أمريكية حسناء هى السيدة ... فلنسماها مدام سميت . وكانت أنشاء سفراتها في أوربا قد تزوجت من أمير ايطالى . ثم جاء الزوجان واستقرا في باريس حيث كان يعيش والد الأمير . ولكن لم يمض عام ونصف عام، حتى عرفت الفتاة أن زوجها يخونها، وظفرت بالأدلة، وطلبت الطلاق فحصلت عليه، وطادت مدام سميت . وكان من ندالة الزوج، أن والده وحماها الأمير الشيخ أيدھا في موقفھا، بل فكر في أن يحرم ولده من القسم الحر من تركته وأن يهبه الى مدام سميت .

« وكانت المسألة في منتهى الدقة، إذ كان يتوقع أن الوارث المحروم يدفع بالتأثير غير المشروع ولا يدنحروسعا في خلق أشنع التهم لتأييد دفعه

فلجأت الى مدام سميث لا من أجل مشروع الوصية فقط ، ولكن لكي أنصحها أيضا في شأن العلاقات التي يجب أن تنظمها مع وصيها ، حتى لا تقدم لأحد حجة عليها . وأخذت تتردد على مكنتي حتى لاحظت أنها تتردد أكثر مما يقتضيه العمل . وجاء دور الغزل بالاختصار ، وكانت مدام سميث صغيرة القد ، وافرة السحر مع ذلك ، ذات خلال شائقة ، عملية نائرة معا ، لا تدع فرصة مشروعة للكسب ، ولا تتنزل من أجله في نفس الوقت . على أنها كانت أعف النساء . ذلك لأن الزواج والحب كانا في نظرها اسمان لمسمى واحد . فاذا تحاب اشان تزوجا ، فاما وقد وجد الباعث الحسن للتعارف ، وأما هي أرمل فان لها أن تتمتع بشيء من الحرية .

« أما أنا فكنيت أقول لنفسي ، ولم لا ؟ فهي ساحرة ، غنية ولكن الى حد لا يقال معه إذا تزوجتها أننى بعث نفسي اليها ، ثم هي ذات مكانة في الجالية الأمريكية ، وهم من صفوة العملاء ، وإذ كنت أروق في عينها ، فلتجر الأمور كما تشاء ، فسوف ينتهى كل شيء طبق ماتهورى .

وهنا صاح مجريه : تلك روح مسجل ! أهذا ما تسميه حبا ؟

قال فيجييه : الواقع أننى بالرغم مما كان يساور ذهني من الريب ، ومن الإيمان بحسن طالعى ، كنت في الأعماق عبدا لأهواء عمليتي الى حد كنت أنكره على نفسي . بل إن هذه المرأة الهائلة الصغيرة ، كانت تقول لى أحيانا « إني أحبك » أو « إني كثيرة الشغف بك » ثم تأبى بعد ذلك أصغر قبلة . على أنها كانت فى كل عصر تفد على تجرجر عطرها الظافر ، فاذا اجتأأت عليها بشيء انقطعت عن الحضور ، فيبلغ بى الجبن أن أكتب اليها معتذرا متضرعا . « ولكن حدث ذات مساء فى منتصف ديسمبر ، حينما كنت خارجا من سهرة فى دار شخص كبير من الجالية الأمريكية (لأن مدام سميث كانت تقودنى الى المجتمعات) ، وكنت أسير بها الى عربتها ، أن قالت لى فى بطن

وهى تحدجنى بنظرة فاترة :

«بعد أربعة أيام تمثل لأول مرة في «الرينصانص» رواية هذا المؤلف الشاب. آه ماذا يسمى؟ وأريد أن أشهد التمثيل فاحجز لنا نحن الاثنين بنوارا . وبعد ذلك تقودنى للعشاء مرة في كل يومين . لا تقل شيئا، ولا تمسك يدي بيدك هكذا أمام الناس . وتحقق من يوم التمثيل الأول وأرسل إلى فقط نمرة البنوار فساد حضر مهما كان اليوم . ولكن لا تعتمد منذ الآن حتى ذلك اليوم أن ترانى في مكتبك أو في منزلى . فإنى أريد أن أكون هادئة لأستطيع التفكير .» ثم صعدت الى عربتها، فسارت بها سراجا وتركنتى . فسرت الى منزلى متخاذلا كالطالب

«واليوم وقد مضت عشرون سنة، فإنى كلما فكرت فى كل ذلك، أعتقد أن صاحبتى كانت على الأرجح تريد أن تمضى ليلة فى خلوة معى لتقول لى فى رفيق وحنان : إنها قررت أن تنزوج منى . إذ أنا لم نفه قط بهذه الكلمة الخطيرة، وإن كان كل منا يتصورها جاثمة فى ذهن الآخر . قلت فى نفسى ألييلة معها؟ سوف نرى . وبادرت منذ الغد أنفقد أخبار المسارح، لأعرف التاريخ المقصود بالضبط، ولكن هذا التاريخ لم يكن قد تحدد بالضبط، لأن الممثل الأول كان مريضا . فكتبت الى مدير السرح أن يحجز لى « بنوارا » حتى أخطر بالتاريخ .

«على أن مدام سميث فعلت ما قالت، فلم تظهر فى مكتبي لا فى الغد ولا بعده. ولكن وصلتنى بالعكس بعد يومين رقعة من الامير الشيخ حميا القديم . وكان قد أصيب فى المساء السابق بنوبة حادة، وانتابته أفكار سوداء، فاعترم أن يحرق الوصية المشروعة دون ابطاء . ولما كان نائما لا يستطيع الكتابة، فقد رجانى أن أزوره فى عصر اليوم ذاته، مصحوبا بالشهود المعتادين، وأوصانى أن أقول شيئا لمدام سميث لى لا أعجبها . وفى نحو الساعة الرابعة

غادرت مكتبي مصحوبا بالأربعة « العدول » وهم الشهود كنص القانون ، فالتقي الى حاجبي عند الباب غلafa ، فيه تذكرة « بنوار » لأول ليسة في الرينصانص . ودهش أصحابي لما تولاني من الاحرار لدى رؤية هذه الرقعة ، وقد طبع التايح في زاوية منها فاذا دو « ٢١ » ديسمبر . وكنا عندئذ في ١٩ ديسمبر . أعنى بقى يومان طويلان . فصعدت الى العربية بخفة ، وحاولت جهدى اخفاء اضطرابى حينما وصلت الى دار الأمير .

« فرأيتة مريضا جدا ، شديد الامتقاع والسقم ، فقطع مواساقي بخاة وقال لى : هيا بنا ، وأنت تعرف رغباتى . فكل ما يتركه لى القانون للوصية متروك لمدام سميث . فخرلى بذلك عقدا بعيدا عن المطاعن .

« وكنت قد اعددت صيغة العقد ، فقرأتها عليه ، فوافق . ثم سطرته في نفس الوقت وفي نفس الغرفة على ورق مدموغ ، اذ كان الامر يتعلق باللكة قلبى . وكنت أردد أثناء ذلك فى ذهنى « فى اليوم الحادى والعشرين سأبوح بسر مهنتى ، وأخبرها بأن الوصية قد تمت . يوم ٢١ ! أعنى بعد يومين » . « ولما تم العقد قرأته بصوت عال أمام الأمير والشهود فلم يثر أحد اعتراضا ووقع الأمير ثم انصرفنا .

« وكان الأمير قد اتخذ تحوطاته الأخيرة ، لأنه زهى فى اليوم التالى أعنى فى ٢٠ ديسمبر وقرأت النبأ فى إحدى صحف المساء .

« ثم قال الأستاذ فيجييه : ألم تلاحظوا أن هنالك فى ضميرنا أو فى ذاكرتنا أوضاعا متوالية تشبه أوضاع المسرح — أوضاع تمثل فيها صور الحوادث ، وصور أعمالنا ، وأفكارنا ، وأن بعض هذه الأوضاع يبقى أحيانا فى الظلام ، ثم يبرز فجأة ويغير ، ويتقدم منا حتى « ينفق العين » كما يقول الناس ، فلا نرى بعد غيرها ، وتشغل كل ذهننا . وهكذا كنت متمددا فى فراشى أقرأ نبأ وفاة الأمير ، فإذا بالجريدة تسقط من يدى فجأة ، فمضت نصف نهوض

ورأيت ، — أجل رأيت أمام عيني أسطر الوصية الأخيرة التي كتبتها بيدي مساء اليوم السابق .

وكانت هذه الاسطر كما يأتي :

«وقد تحرر هذا العقد وتنفذ في باريس ، شارع سان دومنيك نمرة ١١ مكررة ، في غرفة تقع في الطابق الثاني ، ولها نافذتان على الشارع ، وذلك سنة ألف وثمانمائة وسبع وثمانين في اليوم الحادى والعشرين من ديسمبر ... » .
«اليوم الحادى والعشرون من ديسمبر! أتسمعون جيدا ؟ الحادى والعشرون من ديسمبر . رأيت هذه الكلمات الأربع التي كتبتها ، كما لو كنت كتبها منذ لحظة ، ٢١ ديسمبر ! أعنى تاريخ التمثيل الأول في مسرح الرينصاص ٢١ ديسمبر ! أعنى غدا وقد مات الأمير اليوم في يوم عشرين ديسمبر . لقد كانت الوصية باطلة !

وهنا قاطعه هربلان قائلا : هذه مبالغة ، فأن واقعة الوصية لا يمكن إنكارها ويمكن أثبات ...

فصاح المسجل : أعتقد هذا ؟ انك لواهم . واذا كنت حقيقة قد أخطأت التاريخ ، فقد يمكن اثبات أنى أخطأت وهذا كل ما فى الأمر ، ولكننى عندئذ أكون مسئولا — أنا المسجل محرر العقد ... والأحكام مجمعة على هذا ، ولم تكن هذه أول حالة من نوعها . إن أكن أخطأت التاريخ ، فإنى مسئول عن مبلغ أربعمائة ألف فرنك ، وهو ما يمثل القدر الموصى به لمدام سميت . وما كنت أملك منه درهما ، بل كنت مازلت مدينا لعمى بباقي ثمن المكتب . وثالثه لقد كنت فى هذه الليلة الليلاء أرجف من كل أوصالى كالحموم ، حتى لم أستطع أن أثب من الفراش . وقد حاولت أن أهدي روع نفسى فقلت : إن هذا مستحيل ، فقد قرأت الوصية أمام الأمير والشهود الأربعة ... وواحد وعشرون ليست فى رنينها كتسعة عشر

على أنى ذكرت أحوالا شهيرة حدث فيها مثل هذا الخطأ فى الوصية ، وكان المسجل فى هذه الأحوال يتلو التاريخ ، ولكن القسدر شاء ألا يظن أحد للعشار ... وكانت الساعة قد دقت ربعا بعد منتصف الليل ، فاستطعت أخيرا أن أنهض وارتديت سروالا وسترة . وكان مكتبى فى الطابق الواقع تحت مسكنى ، فنزلت السلم وفى يدى شمعة مسرجة ، وجزت الغرف المقفرة بخطى سريعة ، ونفذت الى غرفة المكتب ، وفتحت درجا ، وتصفحت ملفا ، - ها هى وصية الأمير . فوقعت عينى على الأسطر الأخيرة ، فإذا بالتاريخ حقيقة هو « ٢١ ديسمبر » ، أعنى كانت الوصية تحمل تاريخا بعد تاريخ وفاة الموصى أو بعبارة أخرى كانت باطلة .

« فوضعت الورقة فى ملفها ، والملف فى الدرج ، وعدت الى غرفتى هادئا إذ الواقع أن تحقيقى زلتى لم يدهشنى ، وقد أصبت بالضربة قبل ذلك ، حينما قرأت ، كما أقرأ بواسطة سلك منير يوم « ٢١ ديسمبر » مرقوما على الورقة الغائبة . أجل عاد الى شأتى . وقد لا تصدقونى اذا قالت لكم : انى نمت ليلنى هادئا . ذلك أنى بحثت كل الإحتمالات ومنها الانتحار . فيالها من ليلة هائلة ، كلما فكرت فيها ، حتى بعد أن مرت عشرون سنة ، أشعر بالرجفة تسرى الى أوصالى .

وملأ الأستاذ لنفسه كأسا صغيرة من « الكيمل » ، وشربها على دفعتين بينما كان أصحابه يتجادلون .

فقال مجريه : لو حدث لى هذا ، لكننت ودعت كل شىء ، المكتب ، والوصية ، والأمريكية ، وأخذت تحت جنح الظلام قطارا يجعل الحدود بينى وبين المحاكم ، وما كنت آسف لشىء .

قال بلوا : ومم كان يستطيع العيش فى الخارج ؟ أمن لحيته الشقراء !
وقال ثالث من الجماعة : كانت أبسط وسيلة هى أن يبادر الى الأمريكية

ويعترف لها بكل شيء، فقد كانت هي سبب الخطأ، وقد كانت تهواه، وكانت بلا ريب تصفح عنه .

واتفق الجماعة على أن ذلك كان أفضل حل للمشكلة .

ولكن الأستاذ فيجييه استأنف قائلاً : بيد أن هذا الحل كان هو الوحيد الذى لم أقف عنده لحظة . إنكم أتم تشعرون بالخلال والشرف التى يسبغها عليكم وسطكم وحالتكم، أما أنا فكنت أدين بخلال المسجل وشرفه، وكان ثمة انسان تضره زلتى . وإذا كان هذا الانسان الذى وقع عليه الضرر سيدة تحنو على، فقد كانت مع ذلك عميقتى، والدليل أنى قبلت منها أن تدفع لى عن عملى أجراً. وأذن فكان واجباً أن أختفى، أو أن أتحمل نتيجة الخطأ وقدرها أربعمائة ألف فرنك ، إذ لم يكن ثمة ريب فى أن الزوج السابق سيطعن فى الوصية ويكسب قضيته بلامراء . وكنت فى الواقع قد اتخذت كل أهبة للاختفاء فى الوقت المناسب فى حذر وتعقل، ولكنى قبل الاقدام على التنفيذ حاولت مع ذلك أن أبلأ الى الوسيلة الأخيرة التى بقيت لى وهى أن أجد مبلغ أربعمائة ألف الفرنك .

أجل، فكرت فى العم بوكار؛ وكان يقيم يومئذ فى «نبلى» على مقربة من باب «مابو» فى مسكن بديع حسن الأثاث والرياش، غاص بالتحف. فلما أدخلت عليه فى نحو التاسعة ذات صباح، ألفتته يفحص تحفة صغيرة ترجع الى القرن السابع عشر تمثل رأس قاض، فانتظرت حتى وضع تحفته، ثم سردت عليه قصتى برمتها فى جلاء وصراحة ، منذ غزلى لمدام سميث حتى وعدها المشثوم بليلة مسرح، وإلى أن وقع الخطأ فى تاريخ الوصية. فلم يقاطعنى عمى مرة واحدة، ولكنى كنت ألاحظ على وجهه بوادر انفعال قوى يبدو شيئاً فشيئاً، فقلت لنفسى : « لقد ضاع كل شيء، فسوف يصرفنى وسوف ينكرنى ، ويحرمنى ميراثه، بل وسوف يؤنبنى » .

على انى مضيت فى اعترافى حتى نهايته . فما انتهيت حتى نهض عمى ،
وتقدم منى وأمسك يدى بيده الذابلة الصغيرة ، وحقق فى عينى مليا وقال لى :
وهل فكرت يا ولدى فى الانتحار ؟
أجبت : أجل يا عماء

قال : لولا ذلك لما تكلمت بهذه الصراحة . ثم ترك يدى وقال لى :
لا ريب انك ستذهب بادىء بدء الى مدام سميت لتحاول اقناعها ألا ترتد
الى المطالبة ضدك اذا خسرت ميراثها ؟

أجبت : كلا يا عماء فسوف تحصل مدام سميت على ما لها وإلا ...
فقاطعنى ودنا منى ، وأمسك رأسى بيده وقبلنى قائلا : صه يا أحق ،
فلن أتركك فى الشدة ، فأنت مسجل حق يجيش بتقاليد آل بوكار . ولو كنت
أقدمت على هذه الضعة وتضرعت الى موكلتك ، لما رأيتك مدى الحياة ، ومع
ذلك فإن الشقية خليقة بأن تخسر ميراثها ، فهى التى وعدت بسمرة فى المسرح ،
وعشاء فى مخدع ! وهى التى شغلت ذهنك بتواريخ سخيصة . أترى الآن ، يا بنى
ما ذا يكبد الانحراف عن جادة العمل ! أنا الذى أحدثك لم أرد قط أن
أعرف ما اذا كانت عين موكلتى زرقاء أو سوداء ، وما اذا كان شعرها أحمر
أو أسود . أترى أن أمريكيتك الحسناء تكبدك الآن أربعائة ألف فرنك ،
لذا يجب أن تعرف أنك بأخذها منى تأخذها من مالك .

ثم أفرغ الأستاذ فيجيه بوكار كأسه دفعة ، وصمت برهة ، حتى سأل
مدير السين قائلا : وهل رُفعت الدعوى بشأن الوصية ؟

أجاب كلا ، فقد سويت المسألة على يد عمى ، إذ تفاوض مع ولد الأمير
وأقنعه بالاعتراف بصحة الوصية نظير مائتى ألف فرنك ، قبضها راضيا ، مؤثرا
أن يَنتظر الأعوام حتى يحكم له .

فسأل مجريه : وماذا فعل الله بميعاد المسرح ؟

أجاب : لم نذهب الى المسرح يا عزيزى ، وقد يدهشك اننى نسيت هذا التاريخ — ٢١ ديسمبر — بعد أن ملأ ذهنى الى حد أنى سجلته فى عقد رسمى . وقد أنفقت كل يومى وكل مساءً فى مفاوضات مع عمى ، وفى استشارة المحامين ، ثم عدت الى منزلى فى منتصف الليل منهوكا ، ونمت على الأثر ، ولم أذكر طالعى الضائع الا صباح الغد . فاحكموا على بما ترون . ولكنى لست آسف على شيء .

قال : ومدام سميت ؟ ؟

أجاب : لقد رأيته مرة . وقد قبأت أن يتولى عمى معالجة الوجه الخطير من المغامرة ، وقد سوى كل شيء واستولت موكلتى على ميراثها ، واعتزمت أن تعود لرؤية وطنها ، على الأقل مدى فصل . وقد زارتنى قبل سفرها بيوم . ولم تكن مضطربة ، وكنت هادئا . فقالت لى : إنها تريد العودة الى نيويورك وانها تود أن تستعيد كل أوراقها التى ما زالت عندي . فلما نهضت تستأذن فى الانصراف قلت لها : أرجو أن تصفحى عن نكثى ليلة ٢١ ديسمبر التى لم أستطع قضاءها الى جانبك .

قالت : لقد كان هذا طبيعيا جدا ، وما كنت لأحقد عليك من أجل ذلك .

قلت دهشا : ومم اذن تحقدين على ؟

فترددت قليلا . بيد أنها قبل أن تختفى وراء الباب الذى كانت تمسك بزره ، قالت فى اضطراب : « لقد كنت اعتقد أنك رجل عمل أشد ثباتا » . ثم انصرفت ... وأدركت أن هذه المرأة الصغيرة ، ذات الذهن الهائم العملى معا ، احتقرتنى نوعا لأن الهوى الذى آنسته من أجلها قد أضاع صوابى لحظة ، فلم أكن فى نظرها سوى فرنسى خفيف . وأعترف أن الدرس كان قاسيا . ولعل هذا الاحتقار القليل من جانب امرأة ، كان أشد أثرا فى نفسى .

من عتاب عمى ، وأشد وقعاً من ريب الليلة الهائلة ، حتى أننى اعتزمت ألا انحرّف بعد عن جادة العمل .

«وقد جزت اليوم سن الخطر، ولكنى كنت طالماً امتد، أشعر فى كثير من الأحيان بأن شبح موكلة يطوف حولى فأ تأمل رقعة « البنوار » التى حرصت على إبقائها فى خزانتي، ثم اتصور عين مدام سميث الخضراء، ونظرتها الأخيرة الفياضة بالاحتقار .

«وعندئذ أستعيد جأشى، واثقاً من أنى لن أهب، «عميلاً»، ولو كان يرفل فى أبواب النساء، حقاً فى أن يحدجنى بهذا الازدراء^(١) ! » .

(١) أخذت هذه القصة من مجموعة Femmes .

مقتل مدام أوبرى

انى لأؤثر بعد كل شىء أن أعترف بنفسى فى بضع عبارات واضحة على أن أعانى العذاب بل الضجر الذى يجمله استجواب هذين المحققين السخيفين : قاضى التحقيق ورئيس محكمة الجنايات . فكثيرا ما استقبلتهما على مائدتى يوم كنت حرا غنيا ، ولن أخدع فى حقيقة ذكائهما و بعد نظرهما . فليقرأ هذه المذكرة بإمعان ، وليشكرانى لأنى أقلتهما من مجهود عقلى قد يؤذى منهما الهضم ، ومن عبث الأسئلة السخيفة التى يلقيانها عادة .

لقد قتلت زوجى ، وها أنا استعرض ظروف الجريمة الظاهرة بإيجاز لى أنير ذهن المحلفين .

شهدت أنا و مدام أوبرى السهرة الموسيقية التى أقامها مدير الخزينة . ولم يستطع الأضياف الذين كانوا معنا أن يلمحوا بينى وبينها بادرة من سوء التفاهم أو الغضب . كذلك صرح خادمنا الذى كان ينتظرنا فى المنزل ، أنه لم يلاحظ شيئا غير عادى فى تصرفنا الى اللحظة التى غادرنا فيها بعد أن حمل الينا عشاء خفيفا ، وتبقى أوامرى للغد . ولكن حدث بعد ذلك بساعة ، فى نحو الساعة الثانية إلا ربعا ، أن استيقظ الحشم على صوت ثلاث طلقات نارية ، فهورلوا الى غرفتنا فوجدوا مدام أوبرى مطروحة فى قميمها ، عند مؤخرة الفراش ، والدم يتدفق من عنقها فى ثلاثة مواضع ، وأنا أقف مرتديا «الفراك» وظهرى الى المدفأ ، وفى يدى مسدس .

فلم يك ثمة ريب فى شخص القاتل . هذا الى أنى لم أنكر . فأسلمت نفسى الى السجن مصرحا بأنى قتلت زوجى لأنها كانت تخوننى ، فلما سئلت كيف ظفرت بالبرهان على عارى ، أبیت الجواب وأصررت على الإباء حتى هذه اللحظة . بيد أنى اليوم أعترم أن أشرح الأسباب ، وسأشرحها بوضوح

لأنها كثيرة الشذوذ لا يستطيع أن يفهمها الاثناعشر من السذج المضحكين ،
تجار أو أرباب معاشات ، الذين سوف يقررون مصير حياتى .

إن العمل الذى ارتكبت ، واليقين المؤلم الذى حملنى على ارتكابه ، يرجعان
فى الأصل الى ظروف زواجى من مدام أوبرى ، والى أخلاقها وما تلقت
من تربية . ذلك أن مدام أوبرى — وكانت قبل الزواج الأنسة چان ده
كارنول — تنتمى الى أعرق الأسر النبيلة . وقد ربيت فى قصر كارنول ،
بين أب أعجزته سقطته من جواد وثلاث نسوة ، هن أمها وعمتها وجدتها ،
وثلاثتهن متنورات محذات . أما هى فكانت تعد لحياة الدير . ولكن إفلاس
« الشركة العامة » أصاب الأسرة بالخراب المطبق ، وانتزع منها كل ريع ،
وكل شبر من الأرض ، وكل حجر فى القصر . ولبت النسوة الثلاث ، مرييات
چان ، إزاء هذا الخطب ينتظرن من يوم لآخر أن يطردن من القصر جميعا .
وإذا بى أتقدم وأخطب چان . وكنت قد هبطت هذه الناحية منذ قليل
لأشرف على استغلال أعمال معدنية ، وحظيت برؤية هذا الوجه المكتئب
الوسيم ، وهمت به هياما .

ولو تقدمت قبل حدوث النكبة ، لطردت خارج القصر ، وهم يسخرون
منى . ولكنهم من بعدها احتفوا بمقدمى . وكنت غنيا ، بل كنت أكثر
من ذلك ، لأن عملى كان يحمل الى فى كل عام ثروة بأسرها . فاستعدت كارنول ،
وأديت الديون ، وتعهدت بنفقة كافية للنسوة الثلاث والرجل المريض ،
وغدت چان زوجى .

ولست بحاجة الى القول بأن مدام أوبرى كانت تقيّة ، بل كانت تذهب
يوم تزوّجت الى حد الورع الفياض ، ولكن الزواج نظم هذا الورع وهذبه ،
لأن هذه الفتاة التى ربيت فى مهاد الصرامة ، كشفت لى مذ دخلت حظيرة
الزوجية ، عن حب يضطرم . بل كانت فى الواقع خليقى فى العامين الأولين

من زواجنا ، وكنت أحبها الى ذروة هيام ذهني ، وذروة تفاد قواي . ولكن الزمن هذب من هذه الرغبات العنيفة ، كما يفعل بكل شهوة بشرية ، فغدا حي لزوجي كل يوم في قلة ، وصداقتي لها في ازدياد . والظاهر أنها كانت تعاني من ذلك ألما ، بيد أنها لما كانت كثيرة العزة كثيرة الرقة ، كانت تخفي ألماها ، أو أني لم أكن صادق النظر . ولكن إخلاصها كان بالعكس يزداد . وعادت الى الإكثار من عاداتها القديمة التي كانت قد تركتها نوعا في أيام حبنا المضطرم ، من استمسالك بعري التقوى ، وانتظام في الشعائر ووفرة في الوعظ ، حتى كانت تحاول وعظي وهداي . بيد أني جاحد لا أو من بغير القوى الطبيعية التي أشاهد أثرها والتي تكفي في نظري لتفسير الطبيعة . وكنت فوق ذلك أسخر من المعتقدات الدينية ، وأسخط لكل مظاهرها وبوادرها . وأذكر أني في أول ليلة من زواجي حينما رأيت جان وهي نصف عارية تجثو فوق الفراش الذي ستغدو فيه زوجا لي وتغرق في الصلاة ، قد ساورني ضيق وامتعاض . ولكنني خشيت اذا احتججت ان أغضبها ، وليت كذلك أياما حتى أيقنت أنها تحبني . فعندئذ بدأت أسخر منها وأمزح ، وأطلق العنان لصارم النقد وفاضح المجون كلما رأيتها تصلي مساء أو صباحا . أما هي فكانت على رقتها وثباتها دائما ، حتى أرغمت في أعماق نفسي على أن أعجب بهذه المثابرة وهذا الثبات .

ومرت الأيام ، والأشهر ، والأعوام ، وبلغت عامها الثاني والثلاثين . وناهزت الأربعين وحل عندى هدوء المشاعر مكان لهب الشباب ، فكنت أشعر نحو جان بحنان متين يكاد يخلو من الشهوة . وكانت هي تعمل لإسعادي ، وكانت هذه السعادة المنزلية الهادئة وهموم العمل والمصالح ، تحول دون أن أتين أن هنالك سببا خفيا ، يذهب بشكل غير محسوس شيئا فشيئا ، بصحة زوجي التي لبثت حسناء دائما ، ولكن يهدمها داء ، يرمق الناس جميعا

تقدمه دونى . ولم يخطر بذهنى قط أن جان، وقد هجرها زوجها جسيما ، يمكن أن تفكر فى أن تعوض ذلك من ناحية أخرى . وكنت أشعر باطمئنان غامض من جراء تقواها القديمة، وكذلك مما أشاهد من هدوء نفسها، ومقمتها للكذب والرياء اللذين كانا مع ذلك قرارة نفسها .

بيد أنى منذ نحو ثلاثة أشهر أخذت ألاحظ فى تصرفات مدام أوبرى، تغيرا محسوسا لفتنى رغم قلة اكترائى . ذلك أن زوجى التى كانت على مايلوح تقنع منذ أعوام بدور الرفيقة والصديقة، أبدت لى ببوادرها ظاهرة، أنها تريد شيئا غير العطف وأنها تريد ملاطفة ... وكان شرفى وسعادتى فى هذه اللحظة لا يزالان سليمين، وكان يتوقف على وحدى أن أنقذ جان وأنقذ نفسى . على أنى بالطبع أهملت هذه الفرصة السامية، وضخيت فى سبيل أثرتى بصحة زوجى ورضاها . بل لقد فهمت أن بوادر الحنان الطبيعى التى تبيتها تضايقى، ففكرتها أخيرا . وعندئذ لاحظت، كما يقع فى مثل هذه الحالة، مضاعفة فى الإخلاص وإغراقا فى الورع والصلاة .

واستمرت الحال كذلك حتى وصلنا الى يوم ٢٩ مايو الماضى ، يوم الحرية . وقد مضى كغيره، فخصصته للعمل فى المنجم والمكاتب . أما جان فقد أثبت التحقيق أنها خرجت، وانفقت فى الخارج ثلاث ساعات، ولكن لم يرد أو لم يستطع أحد أن يقول أنى أنفقت هذا الزمن . ورأيتما وقت العشاء، الذى مر فى سرعة وصمت . ثم نهضنا لترتدى ثياب السهرة الموسيقية . وما دخلنا الى مكان الاحتفال حتى افترق كل منا عن صاحبه ، بفلسيت مدام أوبرى فى أول صف من النظارة، وحوها جماعة من الفتيان، يرهقونها فى كل مكان بمداعباتهم، ولكنى ما كنت لأحفل بهم كثيرا . أما أنا فانى أبغض الموسيقى، ولذا جرت الى الحديقة، وأخذت أدخن السيكار مع عضو نيابة شاب . وكان هذا الفتى ذكيا رغم كونه من رجال القضاء، فاضطر أن

يلاحظ أنى كنت طول السهرة هادئا ، ولم تبدر منى قط بادرة تشعر أنى زوج يفكر فى قتل زوجه بعدئذ بساعات قلائل .

وأنى لأوجز : فأمر على الحوادث النافهة التى أعقبت ، والتى يعرفها كل إنسان ، وأوصل الى المحطة التى وصلنا فيها الى المنزل وجرنا الى غرفتنا ، وغادرنا الخادم ، وانفردنا .

لم نتحدث كالعادة . وأخذت جان تلخع ثيابها ببطء . واستندت أنا الى المدفأ ، وأخذت أحقق حشو مسدسى الذى أضعه دائما على مقربة منى أثناء الليل ، وهى عادة اعتدتها أيام الفترة التى قضيتها فى أمريكا .

بيد أنى لاحظت فجأة ذلك الأمر المدهش ، وهو أن زوجى دنت من الفراش ، ورفعت الأغطية ، وتمددت للنوم ووضعت رأسها فوق الوسائد ، وكل ذلك دون أن تصلى ! وأرى انه يجب أن أترك محاولة أن أثبت فى القارئ ما عراني من الدهشة لأمر تافه فى ظاهره كهذا . أما أنا فقد دهشت له وروعت ، كما لو كنت قد رأيت امرأتى تقبل رجلا فى فمه .

فلم أملك نفسى من أن أنخو نحوها وأناديها باسمها . ففتحت عينها بجهد ، وأجابت شاحبة . ما بالك يا صديق ؟

فتكلمت الابتسام وقلت : انك لم تصلى الليلة . فأغمضت عينها كأنما تريد أن تتق نظراتى وغمضت : كلا ! بصوت خافت جدا .

فقلت لم لم تصلى كهاتك ؟ فهل أكون انتهيت بالتأثير فيك يا عزيزتى ؟ فله تجب ، وتظاهرت بالنوم ... فاخترقت ذهنى لمحة من الإلهام ، ورأيت أن هذا العدول عن الصلاة إنما ينم عن ثورة هائلة فى روح زوجى .

وانى لعنيف بل شديد العنف بالرغم من أن بوادر غضبي نادرة . فشعرت برغبة فى أن أمسك بكتفيها العاريتين البارزين من تحت الأغطية ، وأن أضربهما ، وأعر كهما حتى يجلها الألم على التكلم .

بيد أنى مالمكت نفسى ، وجثوت إلى جانب الفراش ، وأدريت فى من
أذن چان وهمست : عفوا يا عزيزتى ، فىنى أعرف أن الحافى مضحك
سخيف ... وليس لى حق بعد أن طالما سخرت من تقواك ، أن أسألك لم
لا تصلين بعد . ولكن صفحا وأجيبى ... قولى فقط إنها نزعة فحسب ،
أقتنع فى الحال .

فأبت الجواب أيضا ، فنهضت ، ونزعت الأغطية لأضطرها الى النهوض
فنهضت ، وقد اتسعت عيناها ، وقرأتُ فيهما فى الحال اعتراف الخيانة
وروعة الموت .

فقلت لها : صلى ، واركعى ، وارسمى إشارة الصليب فلا أطلب اليك شيئا
آخر . فإذا أبيت اعتقدت أنك قد دنست اليوم ، وأنت لا تجربين على الصلاة .
فحركت شفتيها ، ولكنها لم تهمس بكلمة ، فتناولت مسدسى من على
المدفأ ، وصوبت فوهته نحو الأرض وقلت : اعترفى بأن هذا صدق . اقم
استسلمت اليوم الى رجل . وانى أتحداك أن تقولى لا ، وأتحداك أن تصلى .
فلم تتحرك ولم تتكلم . ولبثت تحديق بعينين واسعتين فى يدى اليمنى التى
تحمل السلاح ، وتابعها اذ ترفع السلاح ، وتصوبه نحو نحرها العارى .
قالت : رباه ! رباه !

فلم أسألهما بعد ، وكنت على يقين ، فأطلقت النار ثلاثا ، فتقلبت الرصاص
أمامى فى صدرها ، ولم تسقط الا عند الثالثة من فوق سريرها مخضبة بالدماء .
عندئذ استندت الى المدفأ وانتظرت



وقد لبثت مدى شهر فى عزلة السجن أطلق العنان لتأملاتى وأفخص
ضميرى . لم أك زوجا طيبا طالما عاشت زوجى ، وهذا هو خطئى الحقيقى ،
ولكن اليوم الذى قتلته فيها ، كنت زوجا عادلا لأنها خانتنى . كنت واثقا

من ذلك ألف مرة، واثقا كما لو كنت رأيتمها بعيني، واثقا أيضا من عقلي
وصوابي، فما كنت لأندم على ما صنعت .

وماذا يهمني إذا كان المحلفون والقضاة يشاطرونني اعتقادي أولا يتساطرون؟

هل يعتقدون أني مجنون ؟ وماذا يهمهم ؟

أقول لكم أني قد وقعت القصص^(١) ...

(١) أخذت هذه القصة من مجموعة Notre Compagne .

ملحمة !

أصحيح أن القسيس ، كما يروى الكتاب كثيرا ما يخوض المغامرات المؤسسية ؟ أما أنا فاعتقد بكل اخلاص أن لا ، فهالك دائما بيننا نحن رجال الدين وبين العصر سدد ، وفقا قيع العصر تنكسر على صخرة هذا السدد . أما ما يعرض لنا ويشملنا أو بالحري ما يغمر حياتنا ، فهو الموج المضطرب للضمير البشرى . فهو يواجهنا من كل صوب ، ولكننا نلقاه مجردا عن كل ماتتكون منه الحياة البشرية . وليس ثمة شبه بين الإفضاء الذى يتبادله الأفراد العاديون ، وذلك الذى يبثه رجل عادى لقس . ففى كل مرة يعرض لى مثل هذا الإفضاء ، يخيل لى أنى اسمع روحا معترلة انتزعت من جسمها وانها تعامل هذا الجسم كأنه أجنبي عنها ، أو كعدو تهمه ، وتحاكده ، وغالبا تبغضه .

هذه التأملات تهاجمنى اليوم ، — مساء السبت ليلة الفصح . وقد كنت وحيدا فى غرفتى ، أنتظر زائرا ، يأتى لرؤيتى فى كل عام منذ ثلاثة أعوام ، ولكنه تأخر هذا العام ، لأن ساعة المقدس قد دقت تسعا .

زارنى لأول مرة حينما كنت قسيسا لكنيسة شعبية وضبعة فى حى فوجيرار ، وليس لتلك الكنيسة الفتية الأنيقة . آه ، إن زائرى يومئذ لم يكونوا يطلبون رأيى فى اختيار الروايات التمثيلية التى يرونها ! بل كان ثمة ما أرى مأساة البؤس الخالدة ، وكان حكى يطلب فى معظم الأحوال فى المعارك التى يكون موضوعها اغتنام القوات أو الدفاع عنه . أما ما يسمى بالحلب فكان يخضع دائما لذلك ، أو كان على الأقل يخضع أمام مملكة القوات اليومى — ذلك الحب الذى يحدثنى عنه الفتيات الأنوقات ، بأصوات مرتجفة وهيئات تنم عن الوجل والأسى .

ففى ذات مساء ، يوم السبت المقدس ، منذ أعوام ثلاثة ، كنت أعفو

بعد العشاء ، لأننى كنت متعبا بعد ما قضيت اليوم فى سماع الاعترافات ، فطنرق بابى طارق . وأدخل غلامى رجلا لم أتين وجهه جيدا لأن الظل كان يحجبـه ، ولكنى تخيلته فى الخمسين من عمره . وكان حسن الثياب ولكن دون لئاقة . وكان يلوح عليه الاضطراب والوجل حتى أنه رغم انصراف الغلام لم يستطع الا تلثمها .

قال : سيدى ، سيدى الأب ... سيدى الكاهن .. انى أزعجك . . اذا كنت أزعجك فسانصرف . فأكدت له أنه على الرحب والسعة وقلت ضاحكا : إن الظلام يسودنا ، فعذرا وسأضىء المصباح . فوقف يدي قائلا : كلا ، وأرجوك . لا أريد نورا بل أفضل هذا ، دون ضوء . ثم جالس على مقربة منى وأخذ يتكلم بذلاقة جمة .

قال : اليك حديثى . لست مؤمنا ، وهذا ما أصارحك به بادئ بدء . وليس هذا فقط بل إلى خصيم الإيمان ، حر التفكير ، بل ملحد عدو ألد لكل دين ومعتقد . على انى لست أنتمى لفرقة ما ، ثم انى أسلم بقيام العقيدة الدينية لدى الغير ، ولا يثيرنى ذلك ، ويلوح لى أن الإيمان من عدمه مسألة خُلق قبل كل شيء ، أما أنا فأنى حيوان ملحد .

فأردت الاحتجاج ، فقاطعتنى قائلا : اذا قاطعتنى فلن أتكلم حتى النهاية . اصغ الى ، انى فى الخامسة والأربعين ، أستاذ بالمهنة ، أستاذ الكيمياء العضوية فى معهد عال . ولست مجهولا . بل أنى ممن يسمونهم « علماء » ولم أعن فى حياتى بالسخافات . وقد تزوجت وأنا فى السابعة والثلاثين من فتاة سامية هى طالبة طب يتيمة الأب والأم فى الثالثة والعشرين من عمرها ، رفيعة الحال ولكن دون كثير جمال . وكانت تعيش من دروسها عيشة مسكينة ، وتعنى بتربية أخت صغيرة لها فى الثامنة . فحملت الطفلة معنا بالطبع . وكنت سعيدا بزوجى وثمين معوتتها ، وكانت كاملة فى كل شيء فلم يحدث

بيننا فى ثمانية أعوام ما يكدر .

ثم توقف . وكان الظلام قد ساد غرفتى . وساد بيننا الصمت بضعة لحظات . فأدركت أنه لا يستطيع الإفضاء بعد ما لم أساعده . فغمغمت قائلاً : يا ولدى المسكين ، لقد عرفت أوبالحرى تكهنت . مضت ثمانية أعوام كبرت فى خلالها الطفلة التى آوتها .

فنهض وارتد مندعرا وصاح : كيف استطعت أن تحزر ؟ أما أنا فقد ساءت شهورا وشهورا لى أفهم ، ولكن ثقى أن إنسانا لا يربيه شىء ولا سيما فى أمر هذه الفتاة . بل لى لأوثر أن أبتلع كأسا من السم ! ولكن اصغ لى . لى أعانى عذابا هائلا . فتصور حياتى بين هاتين المرأتين ، أحدهما لا أحبها بعد ولم أحبها قط بمعنى الكلمة ، والثانية تلك التى نفست لى عاطفة كنت أجهلها ، ولكنها اليوم ترهقنى وتمهشنى ولا تترك لى لحظة من السكينة . وقد تلمست الفرار منها بكل وسيلة ، بالعمل المبهظ ، والرياضة المنمكة ، والمخدر ، فلم يروح عنى شىء ، ولا يسلبنى شىء . وأمر ما فى الأمر أن تلك الفتاة الطاهرة التى لا تتجاوز الخامسة عشرة تحببى ... وأنا لى يقين من هذا .

فكررت : يا ولدى المسكين !

فاستأنف : وقد تمر على لحظات أعتقد فيها لى أحق اذ أقاوم نفسى . ذلك لى لا أومن بشىء ، وأعرف أن مغزى الحب إنما هو من مبتدعات الرجال ومبتدعات أثرهم ، وأنه لى ادعى لى الاحترام من تعريفه بجمركية . هذا ما يقوله عقلى ، ولكن الوراثة الخالدة لمبادئ الأخلاق التى ادجت فى دى تحتج وتصيح : « أنت شقى ، وأنت وحش ! » وهذا الصوت هو الذى ينفذ لى أعماق نفسى ، ولست أستطيع أن أنحمده .

ثم صمت ثانية فقلت له : اذن قد أتيت هنا لى تضرع لى حرم الله . فأجابنى : كلا ، لقد قلت لك لى لا أومن بالله ، ولكنى قدمت هنا

لأبث عذابى الى مخلوق من البشر . وجئت أيضا لأنى ذكرت ان رجلا مثلك ، يدينون بما تدين ، يمثلون منذ قرون واجب العزاء وتقويم الأخلاق لضمائر بشرية لا تحصى . لقد جئت اليك لأنى يأس ، ولأنى أريد أن أفرج كربى ولو من طريق الخطأ . فقم بمهنتك كطبيب وهدى روعى ، وأهدنى سبيل الرشاد فإنى مصنع اليك .

فتكلمت بدورى . ماذا قلت لذلك النائب الغريب ؟ لعمرى لم أقل شيئا عميقا ولا ذلقا . وأعتقد أن قوتنا كمقومين هى ان نسير غور أرواح البشر بعيدا عن المهمة الاجتماعية ، وكفاية البشر العقلية . لقد كان هذا الأستاذ ، بلا ريب أكثر علما منى وأشد ذكاء ، وقد قرأ وفكر أكثر منى فيما يسمونه بعلم النفس . ولكنى حدثته كما أحدث تائبا عاديا فى مثل حالته . ولئن كان امرؤ على شفا العرق ، فإن نفس العصا المنقذة تصلح دائما سواء كان الغريق صعلوكا أو سيدا عظيما .

فلما انتهيت من وعظى ، اسرجت السراح ، فلم يعترض زائرى فى تلك المرة . وعندئذ رأيت أمامى رجلا نحفيا ، تبدو عليه أمارات الذكاء والألم ، قد وخطه الشيب . فنهض وحدثنى بعينه السوداء والذين يظلالهما حاجبان كشيخان وقال بلهجة المؤنب : انك لم تشفى ، وما زلت مريضا . فقلت : انك لا تدري من أمر ذلك شيئا ، فاذهب والله معك . ولعلك أقل مرضا مما أنتوهم ثم عد لرؤيتى .

قال كلا : فلن تستطيع شفاى .

وكان مكتئبا كالطفل فوضعت يدى على كتفه وقلت : عدنى أنك لن تنفق عاما دون أن ترانى فاذا لم تعد فسوف أعتقد أنك هزمت . ولكنى على يقين من أنك لن تهزم .

نخرج ولم يعدنى شيئا، ومضى عام . ولكن ماجاء مساء السبت المقدس حتى كان زائرى المالحد فى غرفتى ثانية . نغيل الى أنه أكثر نشاطا وعزما ، بل أكثر فثوة . فنبأنى انه قد اعترم أمره وأنه لن يقاوم نفسه طويلا . قال لى : لقد أفلحت فى أن أأخذ فى ضميرى تلك النزعات التعسة التى تبثها تلك الفضيلة الصناعية . وسأرحل مع المرأة التى أحبها . فتلک شريعة عظمت لأخلاق الطبيعة ، وهى التى تغلب على أية شريعة أخرى .

فقلت : ومتى ترحل ؟

أجاب مضطربا ... قريبا ، ... فى بضعة أسابيع .

فخدجته فى عينيه مليا وقلت له : كلا لن ترحل ، وسوف تمضى نفسك لأنك رجل نزيه . وسوف أراك هنا فى العام المقبل .

فكاد يسبنى أو على الأقل شدد فى التأييب واللعن والسخرية ، وغادرنى دون مصافحة . ومضى عام آخر وجاءت ليللة الفصح مرة أخرى ، ورأيت صاحبي فى الساعة المعتادة .

فدهشت اذ رأيته أشد سكينمة من قبل .

قال لى : لقد اعترأها مرض شديد . أصابها نزلة صدرية ، فاعتقدنا أنها هالكة . ولله كم انفقنا الى جانبها أنا وزوجى من ليال ! ... ولكنها تماثلت نوعا ، وما زلنا نراقبها خشية أن يدركها السل .

فحمدت الله سرا اذ أرسل ذلك المرض الفجائى ، ولم يشر محدثى بكلمة بعد عن مشروعه الشيطانى فسألته : وماذا تشعر الآن فى نفسك ؟

فأجابنى ، أشعر بشيء من الإنحلال واكنى لم أشف بعد ، وتساورنى روعة هائلة من اليقظة التى قد تعقب الاطمئنان على حياتها .

ثم افترقنا صديقين بعد أن وعدنى بالعودة ... ولست أشك فى أنه موف وعده . بيد انى نقلت خلال هذا العام الى كنيسة أخرى ، فهل يعرف ؟ وهل

يجرؤ على زيأتي في تلك الكنيسة الأنيقة النائبة التي تختلف أيما خلاف عن كنيسة
فوجيرار ؟ ... ولكن يلوح لى انى أسمع قرع الجرس ، وانه لهو إذن ؟ .

* * *

أجل كان هو ! .

بيد انى آنست صعوبة في تعرفه اذ رأيت أمامى شيخا ، فلم أتمالك أن
أبادره بقولى : هل ماتت ؟ .

نخفض رأسه ثم ارتقى على مقعد ولزم الصمت برهة . ثم قال : كلا فلم تمت ،
ولكنها حية وحسنة ، وقد تزوجت من طبيب فتى ارجنتى يشتغل في معمل و...
ثم تخاذل صوته وجرى دمه ، وقال في زفرة : ولقد عاد الى وطنه... معها .
فأمسكت بأصابعه ، — أصابعه المسكينة المرتجفة وقلت له : يا بنى !
انى على يقين من أنك أنت الذى أردت هذا ، وسعيت الى عقد هذا الزواج .
فأجابني بصوت خافت : أجل ، فأنا الذى أردت . وقد كانت تحبني ،
بل أفضت الى بذلك الهوى . فهى لن تكون سعيدة . أما أنا فقد تحطمت ،
وهذه هى نتيجة عملك .

واعتقدت أنه سيغرق في اللوم كالمرّة الأولى . ولكنه قال حقا ، وقد
كان محطما ، فلم يستطع الا أن يبكي طويلا ، وهو ينثني نحوى وجبينه فوق
يدى اللتين تمسكان بيديه .

ولم ننهس بينت شفة حتى نهض ، فمسح دمه بيد مرتجفة وقال لى : وداعا !
ثم غمغم لدى الباب ، إذا أردت ... قدمت اليك قبل العام القادم .
قلت عد غدا . قال كلا ، ليس غدا ، بل قريبا .
... لقد كنت على يقين من ذلك .^(١)

اخلاص ...

«من أنتوانيت الوصيفة الى سيدتها البارونة ده روزمون» .
صدعت بأمر سيدتى البارونة ، وبما قرّرتّه مع سيدى البارون ،
فصحبت سيدى البارون الى روان حيث ذهب ليعنى بتسوية ميراث سيدتى
الراهبة فارانكفيل .

وإن سيدتى لتخطئ اذا اعتقدت أنى نسبت ما أوصتنى به ، وهو أن
ابرق لها اذا غير سيدى موعد عودته ، وخصوصا اذا اعترم الوصول الى باريس
ليلا . ولتسمح لى سيدتى بأن أفضى اليها بهذا اذ أنى موضع ثقتهما : لقد
اعتقدت جيدا أنها ستغتنم فرصة غياب سيدى البارون لتذهب الى رؤية
سيدى «الكابيتين» فى فونتينبلو، وسيدتى قلما تنعم بساعة حرية !
بيد أن الأمور لم تحدث كلها كما توقعت ، فها استطعت أن أقف
فى الوقت المناسب على نية سيدى فى الرحيل ، وقد حدثت فوق ذلك أمور
يجب أن أقصها على سيدتى . فلا يتسرن الخزع الى سيدتى أو الى سيدى
«الكابيتين» فقد أجل سيدى البارون موعد عودته الى باريس ، وقال لى هذا
الصباح : « ان المقام طيب هنا بحيث أود البقاء يومين آخرين أو ثلاثة » .
ويجب أن تعلم سيدتى بادئ بدء لى يتضح لها كل شىء ، أن سيدى
البارون يطاردنى فى المنزل منذ حين ، غير أنى لم أصرح بذلك الى سيدتى ،
أولا لأن وصيفة مثلى لا يدعو شأنها الى الاهتمام ، وثانيا لأنى لم اعتد التناول
على الأسياد ، وأخيرا لأنى لم استسلم قط الى سيدى ، فليسيدتى أن تطمئن .
ومع ذلك فقد كان سيدى البارون متحمسا الى حد الاضطرام ، وما كنت
أجرؤ على الدخول فى غرفة ثوى اليها . وكان يخاصرنى ويقبلانى خفية . آه
لو تدرى سيدتى مقدار الجهد الذى بذلت ، كيلا أصبح ليلة أن ركبت العربّة

الى جانب سيدى وسيدتى الى المحطة ، لازدحام مكان السائق بالمتاع ، وسيدتى تعلم أنى شديدة التأثير . إن مركز الوصيفة يغدو أحيانا صعبا دقيقا سيما إذا كانت مخصصة لسادتها .

على أنى أردت بصحبة سيدى البارون فى سفرته الى روان أن أسدى الى سيدتى يدا ، وقد كنت على ثقة أن سيدى سيغتنم فرصة خلوته بى فيستأنف حماقته . وهذا ما حدث ، فقد أراد سيدى بادئ بدء أن يركبنى معه فى الدرجة الأولى ، ولكنى كنت اشتريت تذكرتى منذ الليلة السابقة ، وبينما كان سيدى يشتري تذكرته صعدت توا الى الدرجة الثانية . بخاء هو حيث كنت واضطرت أن أقاومه حتى «مانت» إذ كنا منفردين فى المخدع أنا وسيدى ، فلما وصلنا الى «مانت» صعد الى مخدعنا لحسن الطالع جماعة من الراهبات ، فغادرنى سيدى عندئذ وذهب الى مخدعه .

فلما وصلنا الى روان ، عاد سيدى البارون الى اضطرامه ، حينما صعدنا الى العربة التى سارت بنا الى منزل الراهبة المتوفاة ، ولم تعد الى سكينتى إلا حين وصلنا . لم يجرؤ سيدى أن يضايقنى بعد امام الخادمين العجوزين يواكيم وأورسيل . وقد ساءنى أن تناولت الطعام معهما ، وكان سيدى مصيبا فى استصحابه لى لأنهما لا يحسنان خدمة أحد . وعلى ذلك فقد قت أنا بخدمة سيدى وإن كان يرهقنى بملاحقته ، فلما جاء العصر تنفست الصعداء نوعا لاشتغال سيدى بمهامه حتى العشاء . ولكنى فى الليلة التالية أمرنى أن أنام فى الغرفة الملاصقة لغرفته ، زاعما أنه يعانى من مغص معدى ، وأن السوائل الحارة تخفف من ألمه . وقد كان بودى أن تشهدى هيئة الخادمين العجوزين حينما كنت أعد فراشى ، فقد أبدى يواكيم تدمره ولم يملك أن غمغم أمام سيدى البارون « إنها لفظاعة ... ! » وغمغمت العجوز « من المخجل أن تجيئ وصيفة حقيرة فتنام الى جانب غرفة سيدتى التى كانت

قديسة! » . فتظاهرت بأنى لم أسمعهما وأن كان من المؤلم أن يوصف المرء بالحفارة خصوصا إذا كان المقصود بالإهانة فتاة مثلى تعلم سيدتى أنها ذات حشمة وعفاف .

وكنيت أرتاب فى نية سيدى البارون ، فلما جن الليل حصنت باب غرفتى ، وبينما كنت مستغرقة فى النوم إذا بحركة أيقظتنى ، وإذا سيدى البارون يطرق الباب ويحاول فتحه . ولكنى لم أتحرك فنادانى « انتوانيت ! انتوانيت ! » فاجبت « أى سيدى ! » — « انتوانيت ، إنى أشعر بمغص شديد فهينى لى قدحا من الكراويا يابنية ! » فقلت فى نفسى « قد لا يشعر سيدى بشىء من المغص ، ولكن يجب أن أصدع بالأمر » ولم تمض نصف ساعة حتى هيات ما طلب ، واضطرت أن أفتح الباب لأقدم القدح الى سيدى . فلما دخلت هم سيدى بمضايقتى ثانية ، وشدد فى إرهابى حتى سقط القدح من يدى ، وسالت الكراويا . وكدت أجنح الى البكاء ، ولكن سيدى أمسك بيدى وقبلنى ، وقال لى انه يحبنى منذ بعيد ، وانه يتكفل بمستقبلى اذا تصرفت معه بلطف ، ويهينى لى مسكنا صغيرا بالقرب من منزله ، وان جمالى أثمن من أن يدوى فى الخدمة ، فشكرته وأجبتة أنى لا أستطيع ، فقال سيدى : رباه ، وماذا تريدن اذن ؟ وهل لا أروق لك ؟

— يعلم سيدى جدا ان لا ، فسيدى البارون جميل الطلعة ، ويروقى كثيرا كما يروق جميع الناس .

— اذن ماذا؟ ماذا تنتظرين اذا كنت أروق لك ؟

— لقد نمتى سيدى ، سيدتى البارونة ، هذا الى أنى فتاة عفيفة .

— ان سيدتك لن تقف على شىء أيتها الحقهاء ، أما كونك عفيفة فلست أسألك التدهور ، بل بالعكس أريد متى هيات لك مسكلك الصغير ، أن تلبى عاقلة كما أنت الآن . وسأجد لك عملا تزاولينه فى منزلك .

ثم اشتد سیدی فی الإلحاف ، بید أنه آنس أنى لست هازلة فی الدفاع عن نفسى ، وان فتاة لا تكون عفيفة إلا اذا أرادت .

عندئذ استشاط سیدی غضبا ، وأمطرنى سبابا ، وصرفنى الى غرفتى وأغلق بابہ بالمفتاح . فسأنى غضبه ، ولكنى اغتبطت اذ استطعت أخيرا أن أنعم بالنوم الهادئ ، وحصنت بابى زیادة فی التحوط ، إذ تعرف سیدتى ماذا یساور الرجل فی مثل هذا الظرف ! بید أن سیدی لم یزعجنى بقية اللیل .

وفی الغد — وكان یوم الاثنين — استقبلنى عابسا ، غاضبا ، ولم یکلمنى ببنت شفة ، وكنت أود أن أسأله هل ما زال مصحما على السفر صباح الثلاثاء . ولكن لتصفح عنى سیدتى ، فقد شهدت من عبوسه ما ردتى عن أن أفاتحه الحديث . ثم غاب عن المنزل حتى العصر كالعادة ، ولم یعد إلا وقت العشاء . وما انتصفت الساعة التاسعة حتى جاء الى غرفتى وقال لى :

« هیئ متاعك ومتاعى یا أنتوانیت ، فسوف نرحل بقطار الساعة العاشرة . — غدا صباحا یا سیدی ؟ — كلا بل هذا المساء ، بل الآن ... فقد أتممت أعمالى ، ولست أريد أن أقضى لیلة أخرى فی تلك المدينة القذرة . وسیدتى تحرز أننى قد جزعت ! فكاتب البرق مغلقة فی هذه الساعة بحيث لا أستطیع أن أخطر سیدتى ، وكنت أرجح كما قلت أن سیدتى كانت وقتئذ مع سیدی «الكاتبین» وتصوّرت أننا نصل الى المنزل فی منتصف اللیل فلا نجد سیدتى ... أو نجدها بصحبة سیدی «الكاتبین» .

فلما لاحظ سیدی البارون اکتئابى قال لى : حسنا یا أنتوانیت ؟ ألم تفهمى ... ماذا عمراك ؟ ولم هذا الاکتئاب ؟

فألهمنى المولى القادر فکرة فأجبت : أخشى أن یکون سیدی البارون قد اعترم السفر بخاة لأنه غضب منى ... بید أنى لم أقصد أن أغضب سیدی البارون ... ولو علمت أننا سنرحل هذا المساء ...

فلأح البشـر على وجه سيدى وقال : حسنا ماذا كنت فاعلة لو علمت ! ...
أ كنت تمنحين الى التعقل والرشاد ... ؟

ثم أمسك بذقتى ... رباه ... ولم أستطع أن أفتر فى تلك المزة . ألم تكن
كل الوسائل حسنة عندئذ لمنعه عن اللحاق بالقطار ؟ شهد منى ذلك فعاد
الى اضطرامه وجذبى اليه بعنف فلم أردّه بقوة ، بل ضحكت وقلت : حذار
ياسيدى ، حذار أن يفوتك القطار ! فأجاب ، إنى أسخر من القطار .

ترى ما ذا ستقول سيدتى ؟ لم أستطع طول الوقت أن أضحك وأن
أمرح ، بل كان من المحتوم أن أصدع بإرادة سيدى البارون . وفى وسعى
أن أؤكد لسيدتى انه لم تكن ثمة وسيلة أخرى لمنعه عن اللحاق بالقطار ...

ولا أود أن أقص على سيدتى كيف انقضى الليل . بالطبع لم يتركنى
سيدى البارون أن أغلق باب غرفتى ، ولم يكن لذلك وقتئذ من أهمية .
وقد ظننت أننا نرحل بقطار الساعة الثامنة صباحا ، ولكن سيدى لم يرد السفر
بعد ، وقال ان روان تروقه ، وانه يريد أن يصحبنى الى رياضة خلوية .

لقد كنت صريحة مع سيدتى ، وفى وسعها أن تثق بأنى قلت الحقيقة
كلها ، ولم أقصد بما فعلت إلا أن أسدى اليها يدا ، فاذا كتب الخادم العجوز
أو الخادمة العجوز لسيدتى بشيء آخر فهو الكذب الصراح . ولست أريد
الآن إلا أن أقول لى سيدتى ما ذا يجب أن أعمل ، فاذا أمرت بعودتى
توا الى باريس فعلت . أما اذا شئت أن تنعم بقسط آخر من الحرية ، فإنى
على يقين من أنى أستطيع أن استبقى سيدى هنا ...

ان سيدى شديد الإلحاف . ولكن اذا شئت سيدتى أن أبقى فإنى
أفعل راضية حبا بسيدتى ، إذ أعلم أن سيدتى تكون عندئذ سعيدة بصحبة
سيدى « الكابيتين » ^(١)

صف

من

Jean Lorrain چان لوران

— — —

چان لوران

لوران ؛ قصصى وكاتب مسرحى ؛ ولد سنة ١٨٥٥ ، واشتغل حينئذ
بالصحافة ، وعالج التأليف المسرحى فظهر فيه ، وكتب عدة روايات تمثيلية
قوية ، وكثيرا من القطع الغنائية والأناشيد الراقصة . ومن آثاره القصصية :
Le Forêt blue ؛ Viviane ؛ و Sensations et Souvenirs ؛ و
La Dame turque . ومن آثاره النقدية Modernités . وفى سنة ١٩٠٠
أخرج أثره الشهير Histoire de Masques ؛ وهو الذى تقدم بعض فصوله
هنا ؛ وهو مجموعة مدهشة شائقة مثيرة من الصور الإجتماعية الخفية ، صيغت
فى قالب قصصى ؛ وفيها يعالج صور الانحطاط الإجتماعى التى تمثل فى النفوس
المنحلة ، والتى تجثم فى أوكار باريس ومتدياتها السرية . ويقدم لوران الينا
هذه الصور المثيرة فى ألوان قوية شائقة ، ويحيد وصف هذه المخلوقات
المرتفة أو البائسة التى لفظها المجتمع الفاضل ، والتى تنسل الى الأقيية الرطبة
المظلمة لتطلق العنان لشهواتها السافلة .

ويمتاز چان لوران بقوة خياله ، ودقة تصويره وتحليله ، ونعومة أسلوبه ؛
وبيانه قوى ساحر ، لاذع فى كثير من الأحيان .
وتوفى چان لوران سنة ١٩٠٦

قصص القناع

أروع ما يكون الخوف اذا كان مصدره «المجهول» ، واذا كانت الأفتنة تحتوى كثيرا من الروح ، فذلك لأنها وجه الخفاء ذاته ، ولأن الخيال يستطيع أن يتصور كل شئ وراء ظاهرها من الشمع أو الورق ... ومع ذلك فيوجد ما هو أسوأ من الوجه الزائف الذى تخفيه الأفتنة والدهانات : ذلك هو الوجه البشرى ذاته ؛ هو وجهى ووجهك ووجه صديقك أو خليلتك ، وكلها صيغت من النفاق ، واحتجبت بالنظاير ، وكلها وجوه قد يسقط مجاها المتكلف العمد بغاة ، كما تسقط صورة الذئب الحريرية عن وجه المقنع ليلة «الكرفال» ، وعندئذ تكشف الإبتسامة الودود عن بارق من البغضاء ، وتكاد النظرة تقتل تحت الجفون التى مازالت مثقلة بنعومة المتاع ، وتكشف القبلة عن الأنياب ... هذا التمزق الفجائى للحجاب ، وهذه الفورة الفجائية للروح التى تحررت أخيرا ، وبدت فى الإبتسامة والنظرات غاضبة ساهرة ، وذلك الإنفجار الوحشى العاصف للبغضاء والحقد فلا تملك إخماده بعد — هذا هو حقا كشف القناع ... ولن تستطيع أن تدرك ما يجيش من يأس وروع واشتمزاز بنفس المحب أو الصديق ، الذى يشهد هذه الثورة الدنيئة للغرائز ، إلا اذا قاسيتها بنفسك ؛ وكأنها يومئذ ملاسمة الأفعى ، والانحدار الى الطين ، وقشعريرة البرد ، نافذة عاجية تنهش المعذب ، وتقضم فيه العروق والقلب . ثم هى الغضب أيضا ، وهى الخيبة مجسمة ، وهى المرارة ، والغيط الممزق ، وهى اليأس من كل شئ فى الحياة ، وكأنما تقرن بطعنة خنجر للفؤاد . ولقد عانيت هذا اليأس القاتل الذى يجيش به رجل لحقته الخيبة ، وألقى الى برائن الروح ، وذلك الرعب الذى يقترن بانقباض «المجهول» — عانيتهما مساء كاملا ، وذلك فى ظروف وصور خلقت للسرور . وتالله لقد

كانت مأساة حقة جزتها مدى دقائق ، مازلت أشعر أنها أشد ما لقيت في حياتي .
وهي مأساة مبتذلة في نظر أولئك الذين لا يأبهون ، ولكن في بعض تفاصيلها
ما يروح عن النفس .

واليك قصتها : كان ذلك منذ خمسة عشر عاما ، ولم أكن يومئذ ذلك
الموسيقى الشهير ، والمؤلف المحبوب ، بل كنت في شطف من العيش ، أعيش
من الدروس التي كنت أعطيها بالنهار والليل ، وأحيانا من العزف على القيثارة
في بعض المسارح المربية ، في الأحياء المربية . كنت أعيش وأنفق على أخت
لي كانت تقيم معي وتتولى مهام البيت . وارضته لها ، لقد توفيت منذ بعيد
ولم تشهد ظفري ، وكانت أرمل ، وكانت مهرها الضئيل ودروسي وعملي
في المسرح ، تجل إلينا إرادا صغيرا ينفي بحاجتنا .

في ذلك الصيف طابت للعمل أثناء الموسم في «إيكس» ، وهي فترة بديعة
في سافوا ، وكنت أعزف ثلاث مرات ، في الصباح والظهر في الحديقة ، وليلا
في الكازينو . ولكنني تحررت هنالك من أعباء الدروس المرهقة ، ونعمت بالهواء
الليل والطبيعة الساحرة . ولكنني أرغمت على ترك كل ذلك والعودة الى
باريس في أكتوبر ، لأعود الى جوب طرقاتها تحت رشاش المطر ، وظلام
السمح ، مشغولا مهموما . آه ، تب لأوقات الانتظار في محطات الترام ،
وندره الهواء داخل المكاتب ، والبرد القارس خارجها ! وتبا لوقوفات الترام
الخالدة التي تعيل الصبر ، وتثير الأعصاب . وكنت في المساء أشهد دائما
في نفس الساعة ، نفس المناظر العاصفة ، والوجوه الشاحبة التي تجوس خلال
المسرح الصغير ، وفي الليل أخوض الظلام والوحل حين العودة ، ومع ذلك
فقد أستطيع أن أنخر بأني ذقت لذة العيش .

في غمار هذا الاضطراب وذلك الضجر ، طلعت على فتاة ، قابلتها
في مونمارتر ، نحيلة القد والوجه يبدو على محياها الحزن ، وكأنها زهرة ضاحية

صغيرة سقطت الى الغدير، ولكنها لم تذبل بعد، بل كانت تنوء فقط تحت أعباء الألم، وكانت أضيتها الرذيلة، وكنت قد عرقها منذ خمسة أشهر، قبل سفرى الى إيكس بأيام قلائل فراقى وجهها الوسيم المعنى، وجه بنت صغيرة، وديع رقيق، كأنما صاغته يد الفنان . ولقد همت مساء كاملا بعينيها الخضراوين، ومحياها التحيل الذابل، الذى كأنه سحر العناء والمرض . ثم غادرتها دون أسف، وسرعان ما اختفت صورتها من مخيلتى . ولكنها هى التى عادت إلى، وهى التى جاءت تبسم الى بعينين واسعتين، كادت خضرتهما تنقلب زرقة مظلمة، وتسألنى . وكانت تقف أمام مائدتى فى مقهى صغير كنت أتناول فيه القهوة، وهى باسممة فى معطفها القديم الباهت، وتحدجنى، وتتضرع الى، وتستمرئ النظر الى، وقد أضاء وجهها المسكين حبورا وبهجة...ولما كنت لم أفتقه سر هذا الطرب، ولا هذه العودة، فقد جلست «جانين» الى جانى وكأنها غدت أكثر حسنا فى اضطرابها، ثم قالت لى فى ظرف وحنان، إنها قد نبذت «الحرفة» . أجل كان هذا وقد انتهت بأن غالبها الحزى، ومزق فؤادها أن تستسلم فى كل يوم الى هذا وذاك، واستطاعت أن تجد لها عملا فى محل للخياطة، تتقاضى منه فى اليوم خمسة فرنكات أو ستة، وقد استأجرت غرفة خاصة، أستطيع أن أزورها فيها اذا شئت . فقلت فى نفسى «أجل، أستطيع أن أحبها اليوم إذ غدت عاقلة وفى وسعها أن تحبنى . وإذا كنت قد أنستها باردة جامدة العواطف، فذلك لأنها كانت تحاول أن تحمد جوى يبتدىء، وكانت تحجل أن تبتدى الى أنا الذى تحب، مثل ما تبتدى لأجبنى، من ضروب التدل والسحر، وكانت تخفى جبينها فى صدرها . ولله ما أشد شغف الرجال، اذ سرعان ما زرت جانين .

بيد أنها كانت من أطيب ساعات حياتى . ولعمري لشد ما كان يحتويه هذا الجسم التحيل المضطرم من شغف، ولشد ما كانت قدرته على

بعث الجوى ! كانت چانين مذ غدت عاقلة ، تضىء كأنها نار الميسلاد ، وكنت أغادرها بقبسلة طويلة من العرفان ، واعداء بالعودة . وكنت أعود فى الواقع ، مرارا وتكرارا ، فأجدها فى كل مرة أشد حبا ، وأتسد استسلاما لاضطرامها . وكنت فى كل مرة أترك لها هدية صغيرة ، لأننى لم أخرج يومئذ أن أقدم لها شيئا من المال ، وفى كل مرة تغدق على ضروب الشكر العميق ، وتعانقنى عناقا حارا يمازجه البكاء . على أنى ألفتها فى آخر مرة حزينة ، فأرقتها بالسؤال فقالت : إنما تحمل هما عظيما ، وهو أن لها أخا ، سبيء الخلال ، هو الذى يحجل بسفائله وفاة والدتهما . وقد خرج حديثا من السجن ، وهو شريد فى باريس لا مأوى له ولا عمل ولا رغبة فى العمل ، وفى كل يوم يرهقها بطالب المال . فلما غادرتها فى تلك المرة ألقيت فى يدها جميعها ، ونصحت لها أن تغير مقامها وأن تستعين بهذا المبلغ على الإنفاق ، فوعدت أن تفعل ، على أن أزورها مرة أخرى فى نفس هذا المقام الذى نعمت فيه بكثير من السعادة ؛ فهناك « كانت كلها لى وحدى ، لا ساعة ولا اثنتين ولا ثلاثا ، ولكنها كانت ملىكى اللبالي بأسرها ، وكان كل منا ملك صاحبه » هكذا قالت لى ، وأصرت أن أنفق عندئذ لىها الليل بأسره . فلما اعتذرت بعملى فى المسرح وهو يرغمنى على السهر الى ساعة متأخرة ، قالت لى بصوت فاتر : « ولكن ذلك ليس بعذر ، ففى وسعك عند عودك فى منتصف الليل أن تذكر اسم أنى لخادم المنزل ، وسوف أنتظرك فى سريرى الحار ، قل ألا تأتى ؟ » .

وقد ذهبت ، وازدلفت الى ذلك المنزل الذى يغص بسكان من العمال ، دون أن أرغم على ذكر اسمى للخادم . وكانت چانين تنتظرنى فى غرفتها الصغيرة الحقيمة ذات الورق الباهت . وكان المفتاح فى القفل ، فدفت الباب . وكانت ثمة شمعة تضىء فوق المائدة ، ولم تسمعنى چانين حين دخولى لأنها كانت نائمة . وبالله لشد ما كان شحوبها عندئذ ! وما بدا لى قط من قبل

عناؤها بمثل هذا الطابع المؤلم . وكانت تنام وجفناها نصف المغلقين ، يسفران عن ضوء قائم انقبض له فؤادى . ولم يكن ذلك نظرة ، ولم يكن دموعا ، بل كان أسوء من كل ذلك وأشقى . كان الألم يتضرع بين هذه الأهداب المبللة . نخلعت ثيابى فى صمت ، وانسلت الى جانبها حذرا من أن أوقظها . ولله لشد ما كانت باردة ! وما بدا لى قط جسمها النحيل مذهجا كما هو . فتناولتها بين ذراعى محاولا أن أدفئها . ولكن جانين بقيت جامدة ، باردة ، لا تحاول التحرك ، حتى لكانها جثة هامدة الى جانبى . ولقد روعت أخيرا ، فهزتها قائلا : « تكلمى يا جانين ، هل أنت مريضة ؟ » فأجابت أخيرا فى نفثة : « أجل ، قليلا ، فى أطوف المدينة منذ البكور ، وقد فقدت عملى من جراء أنحى . أجل ، أجل ، فإنى أتركنى نائمة لأنى أموت تعباً ، وسوف نظرب بعد ، أليس كذلك ؟ » فثارت نفسى ألما واشفاقا ، وأطفأت الشمعة واعتزلت النوم . وانتهت فى جوف السجر مذعورا ، وهممت بالقيام ، ندى الجبين ، وأخذت أنلمس الفراش الخالى ، وأذنى مرهفة نحو الباب الذى سمعت صوت إغلاقه ، وأنا أقول « أهذا أنت يا جانين وهل أنت مريضة ؟ » وكانت أقدام تدنو من الفراش ، ثم أضاء ثقب فى الظلام ، وأجانبى صوت رحل « ليست جانين بل أنا » ثم أضاءت الغرفة بقاءة ، فالفيت نفسى أمام رجل متين القائمة ، يرتدى معطفا أزرق وهو يقول : « نعم هو أنا ، أخوها . أما الفتاة فهى بعيدة ، فإياك أن تصرخ ، وإلا أجهزت عليك » ثم أخرج من جيبه مدية كبيرة ، وأشهرها على وجهى وقال : « هل معك نقود كثيرة ؟ » . وكنت عاريا ، نائما ، لاسلاح معى . فإن صحت اخترق الصلب عنقى ، وكان من الجنون أن أحاول مصارعة ذلك الشقى فى تلك الغرفة ، جسما لجسم فقلت له : خذ ما تجده فى ثوبى ففيه ستون فرنكا . فلما فرغ من إفراغ جيوبى ، صحت والغضب يزقنى « لست أخا لجانين ، ولكك أنت « حاميا »

وتبأ لها من صغيرة شقية، فقد دبرت لى كميناً ! »

فأجابني بهدوء : ثم ماذا، إنك لجواد . ولقد أنفقت دهرها شريداً
فى الطرق لاعمل لى، بيد أنى لست أقنع بهذا، فاخلع خاتمك . قلت، وآى
خاتم ؟ أجاب « هذا الذى يضىء فى أصبعك ! » رياه، لقد كان ضوء حجر
كرىم ورثته من أسرتى، ركب فى خاتم مصرى وزىن بجعران أحضره لى
من مصر صديق لى . وإذ هممت أن أدافع ما استطعت عن تحفى، تقدم
الوغد منى قائلاً : أترك تؤثر أن نترعه منك انتزاعاً بأن أقطع هذا الإصبع
الذى يحمل به، وتالله لو قاومت لفعلت .

وأضاءت عىناه فجأة، وأبيضتا، وتقلص وجهه، وتشنجت أعصاب
يديه، فاعتذرت، وبادرت فنأواته الحلىة، فارتد عنى بهدوء وبطء وأغلق
الباب وراءه .

وكان خادم المنزل هو الذى أفرج عنى ضفى الغد . ألا فاعترف أنها
قصة قناع ممتعة ! (١)

(١) أخذت هذه القصة وما يلها من صحف جان لوران من كتاب Histoires de Masques

الرجل ذو السوار

فى اكتوبر، فى ذلك الجو المريب الموحش الذى يسود بعض شوارع
الأطراف، وفى تلك الأيام الماطرة القائمة التى تأتى فى نهاية الفصل؛ متى انتهى
عناء الواجب اليومى، تفتحت فىنا الغرائز الخبيثة، وأذكاها ضوء الشموع
والمصابيح الساطعة، وتخرج رهيظ من الأبواب النسوية الجواله
فى جوف الليل : « اليك الليل الساحر، صديق المحرم » .

فهى الساعة، التى يهرع فيها الى حانات تديرها أضواء مجوفة، جمهور
صاحب قد تجوّفت منهم العيون، عمال شيوع وفتيان، يتآخون
ويصعبون . وفى الخارج ترى شبح الفتيات مضطربا ساهرا؛ خصوصاليله
القبض، حيث يصلح أى رجل عامر الجليب . فهن هنالك يجهن الأرضفة،
مكحولات الأعين، ناصعات الوجوه، كأنهن استعرن الحجب . وترى من
جهة أخرى جماعة من النسوة البادئات القويات، وقد بدت عليهن أمارات
الأس والاسسلام : أولئك هن زوجات العمال وأمهاتهن، يتربص البغاء
بهن، فيأتين خائفات حزينات ينتظرن أزواجهن وأبناءهن أمام حانوت الخمر،
وهنالك فى رطب الأزقة وظلامها، يحرسن أبحر الأسبوع : عجائز، قبيحات،
كأنهن أشباح مسكينة للفضيلة جاءت تنازع الخمر والبغاء قوت الأسرة والبنين .
فاذا توغلت فى الشارع الأهل، وانحدرت الى أركانه المظلمة، رأيت
حوانيت النيبذ، تحجبها الأستار كأنها تضم الخفاء، وسمعت أصوات العملاء
خافتة؛ وهنا يقل تربص الفتيات فوق الأرضفة المقفرة، وترن الأقدام المتأخرة
بسرعة . ثم تتفرق الجوع، بينما تنبثق من نوافذ المنازل الجديدة، والأبنية
العتيقة، أنوار غامضة، وتبرز وجوه نسوية مشوهة مدهونة، تعتمد فوق
حافات النوافذ بأذرع عارية شاحبة .

اليك بغاء النوافذ، وهو أبرع ضروب هذه الحرفة الشائنة، وأشد ما يشبه

حواس الفاسد . ذلك لأن المرأة المرغوبة تبدو هنالك بعيدة ؛ يغمرها العهر ، أو يغمرها الخفاء ، وتدل بالمتعة المنتظرة ، ويحيط بها خطر المنزل المجهول ، ورجفة البكين الذى قد ينصب فى ظلام السلم ، وأخيرا توقع السلب الذى ربما ينجّم وراء الحجب . وهذا الوجه المغرى المنهق ، يبدو عاليا فى الظلام فى تلك الواجهة العمياء ، فهل هو وجه عجوز جعدته الخطوب أم وجه عذراء صغيرة ضحى بها البؤس أو الرذيلة ؟ هنالك ريب ، واغراء قوى بالمخاطرة لروح منحل ، وهو الدور والركض الى الهاوية ، وهو جذب الهاوية القاهرة . آه ، ان امرأة النوافذ لهى تفاحة من الذهب صيغت من السحر الماعون ، ووضعت فوق حافة النافذة ، كأنها رأس «سيلا» تدور فوق الموج ، وكأنها زهرة الهاوية . وأما فى الخارج ، فرشاش الماء والطين يلمع تحت ضوء الغاز ، والمطر يفر ويداعب الأسقف ، وصوت الأقدام الوجلة فى الظلام .

هذه الفتنة التى تمثل فى النافذة ، وهذا السلطان الذى يملكه العراء والثوب المشقوق ، يستطيعان فى ظلام الشارع وبرد الليل ، لما أيا أثر فى حواس الرجل الحديث ، ورجل المدن خاصة . وهما أينما حالت : ففى برشلونة ، أو أنقرس ، أو سيجون ، أو مرسلينا ، ينحدر السائح المتجول ، الى الأحياء المنحطة ، فيجذبه رأس جميل فتى ، يطل من نافذة منزل متهدم . فما يكاد يدخل حتى تخرج القصة العتيقة اليه أشخاصا روائية ؛ واذا بجارية لفت رأسها بحريز ذهبي تستقبله وتقوده خلال السلم المستدير ؛ واذا فى أعلى السلم ببعاء عجوز أبيض ، ودرج السلم تعطيه بسط فائحة ؛ واذا الغرفة التى يقاد اليها كأنها منحد أميرة شرقية تغص بالديباج والدمقس والفراء . وهنالك يونانية صقلية ذات لحظ كاللحظ الأيقونة وعراء كتمثال البرنز ، فتاة طفلة لا تتجاوز الرابعة عشرة ، تقدم اليه مرتجفة مضمخة ، جسما عذريا مريثا . وهنالك وسائد القطيفة ، والتبند الفاخر فى أقداح من البلور ، كى يضاف الى ثمول القبلات ، ثمول العطر

لحرق . وكل ما هنالك رياش وعطور وحلى كأنه جنة صناعية أو حلم ذاهل ندره الأفيون . بيد أنه لم يك سوى حلم ، لأن السائح الذاهل ينتبه في الشارع سام باب حانة غصت بالبحارة ، فيحاول عبثاً أن يستعيد المنزل المسحور .

ثم يغادر المدينة ليعود الى أسفاره . ويمضى عشرة أعوام ، وإذا به بخاة ند نفسه ذات يوم أمام الباب المطلوب ، وإذا بالجارية واقفة في الزقاق ، لبغواء الضخم في قفصه ، والسلم ما زال يعلوه الرطب ، والبسط الفاخرة تغطي ثمة درجاته الأخيرة . ثم تفتح الجارية الباب ، ولكن رباها ! لقد شاخت ناة اليونانية ، وقد شوهت ، وتضخمت ، وتدلّى نهدها ، فلا يذ كر شبح برها الذاهب ، إلا في قبالات باردة من خلال الدهان والمسحوق . هذا وقد ست الوسائد الحريرية ، وصعد المصباح الساطع ، فيعود السائح أدراجه لا نقباض يملأ جوانحه ، ولكنه إذ يجوز الباب يناديه صوت أجش « ألا تعود ؟ »

خفض الرأس إذ يعلم في أعماق نفسه أنه سيعود الى زيارة هذه الغرفة القائمة لم ما تضم من لحم متهدم ، وشقة خامدة ، وملاح قبيحة يخفيها المسحوق والدهان .

ث أن البغواء الضخم يعرف قلوب الرجال الذين يراهم منذ الحقب يتقاطرون ، السلم ، وهو انما يلقى على الفساق كلمة قدرهم فيسائل كلا منهم : لا تعود ؟ » والواقع أنهم يعودون جميعا ، والمرء يعود دائماً الى الرذيلة ...

ولقد حدث منذ عشرين عاما ، في أحد شوارع باريس الآهلة ، على مقربة ، مرقص واجرام وهو ملتقى العاطلين والحاة ، أن لاحظ البوليس حيلة ، حيل النوافذ بسيطة معقدة في نفس الوقت . ذلك أن بغيا لم يمكن أن هركلها قط من النافذة ، ولكنها كانت منذ المساء تخرج ذراعها العارية ؛ صعبة الثقية ، من وراء ستار من الحرير الأحمر ، كأنها نحر عنقاء ؛ وتلبث كذلك ساعات طويلة تلوح الى الرغبة والهوى ؛ وكانت الذراع والذراع فقط .

الفتاة نفسها فكانت محتجبة ، ولم ير إنسان وجهها قط . وكان ثمة سوار

من الذهب يلتف حول هذه الذراع الخفية . وكان السائرة يقفون ليتأملوا هذه الذراع الجامدة ، ذات الحركة الجامدة كلما عن لها أن تتحرك ، ذراع عبيلة منمقة ، ناصعة باردة كأنها قطعة من الرخام . وكان رجال يصعدون ، ولا سيما الشيوخ ، ورجال ذوو هندام حسن وذوو رذائل متأصلة ، ثم ينزلون سراعا بأعين عائرة ، وخطوات متعثرة . واستمر ذلك الأمر زهاء أشهر ، وإذا بإشاعات غريبة تدوى في الحى ، وإذا بحديث عن كمين ينصب للشيوخ من الفساق ، ومنهم أسماء معروفة من تجار وملاك ، اجتذبوا بهذه الوسيلة الى غرفة ، وهددوا بسلبوا . ولما لم يتقدم انسان بالشكوى فإن البوليس هو الذى قام بالتحقيق من تلقاء نفسه . فلما هاجم جناح البغايا فى المنزل الذى تبدل منه الذراع العارية ، وجد أن الجناح الذى فيه النافذة المشبوهة ، يسكنه مصوّر قى يحمل إجازة رومة ، ويعيش منذ عام فى ترف لا يعلم مصدره . وفى نفس المساء الذى حدث فيه هذا الاكتشاف ، فى الوقت الذى كانت تبرز فيه الذراع العارية من وراء الستار الأحمر ، صعد شرطى تنكر بزي شيخ محترم الى جناح المصور ، وبعد مفاوضات من خلال القفل ، وبضع كلمات ساقطة القاها صوت نسوى ، فتح الباب قليلا ثم أغلق فى الحال على الشرطى . وفى لمح البصر ألغى الشرطى نفسه أمام قى قوى يرتدى قميصا ، قد رفع كفه عن احدى ذراعيه حتى الكتف ، فانقض الفتى عليه وخنقه بإحدى يديه ، ورفع بالأخرى مدية كبيرة وهو يقول : « هيا أيها الفاسق العجوز ، على بساعتك وحليك وكل ما تملك ، وإلا أوعزت بالقبض عليك لأنك جرؤت على الصعود لدى رجل ، هيا » .

ولكن الرجل ذا السوار هو الذى قبض عليه البوليس تلك الليلة . وكان يجرى تجربته هذه منذ عشرة أشهر آمنا مطمئنا ، ولم يجرؤ أحد من سلبهم أن يرفع شكواه ، انقاء لما يقتن بمثل هذه المغامرة المريبة من عار ونجل .

صرعى الإثير

قال لى صاحبي دى چا كل : أتريد أن ترى ؟ فليكن هذا ، وانما يجب أن ترتدى ثوبا للتحجب من الحرير الأسود ، وجوربا من الحرير الأسود أيضا ، وأن تنتظرنى فى منزلك حول منتصف الساعة الحادية عشرة من مساء يوم الثلاثاء ، فسأتى لأصحبك .

وفى يوم الثلاثاء ارتديت ثوبا طويلا من الحرير ، وقناعا من القטיפه ذالحية من الحرير أوثقت بالاذنين ، ولبثت أنتظر صديقى دى چا كل فى جناحى الخاص بشارع تيبو وأنا أدفىء قدمى فوق المدفأ ، وأرتجف فى نفس الوقت من لمس هذا الثوب الحريرى الغريب عن جسمى . وكنت أسمع فى الخارج أنغام الموسيقى وأصوات المرح تدوى فى حفلة كرنفال فى ناحية قريية من الشارع .

وكان غريبا بل مزعجا أن نأمل فى ذلك الليل الموحش ، شبعا محجبا غارقا فى قعد فى ظل نور ضئيل ، يكشف عن غرفة حافلة بالتحف والألوان ، فى المرايا المعلقة من حولك ، وأن ترى فيها ضوء مصباح غازى ، ونورا مرتجفا لشمعتين طويلتين ناصعتين نحيلتين كأنهما من شموع الموتى . وقد أبطأ دى چا كل ولم يأت ! وكانت صيحات المحجبين تدوى عن بعد فتريد فى وحشة هذا السكون . وكانت الشمعتان تحترقان بانتظام شديد ، حتى لقد أخذتني هزة فنهضت أمام الأنوار الثلاثة بجأة لأطفىء أحدها .

ولكن بابا فتح عندئذ ودخل دى چا كل . دى چا كل ؟ لم أسمع صوت الحرس ولا صرير الباب فكيف نفذ الى مسكنى ؟ بيد أنه قد دخل ، وكان المسائل أمامى شبعا يرتدى ثوبا كبيرا مظالما مقنعا مشلى . فسألنى بصوت مضطرب كدت أنكره : «أأنت على أهبة ؟ فهيا بنا فعربقى بالباب » .

ولم أسمع كرم بستانه ولا وقفتهما تحت نوافذى، فالى أى كابوس والى أى ظلام والى أى خفاء أخذت أنحدرك؟ والظاهر أن دى چا كل أدرك خاطرى فقال لى : «إن لثامك يغلق منك الأذنين، ولم تعتد بعد على لبس القناع». ثم رفع ذيل ثوبى وتحقق من مطابقة جوربى وحذاءى لما طاب .

فاطمأنت نفسى لهذه الحركة اذ تحققت أن دى چا كل هو الذى يحدثنى بنفسه . ثم قال «هيا بنا»، واندفعنا الى الخارج وأثوابنا الحريرية ترتفع من حولنا فى خفيف مزيج . فـ أين أنت هذه الريح المجهولة ! لقد كان جو هذه الليلة رطباً فاتراً معاً .

٢

أين نسير الآن وقد ارتقمنا فى ظل هذه العربة الصامتة، التى ليس لعجلاتها كرو ولا لحوافر خيلها صوت يدوى فوق بلاط الشوارع والميادين المقفلة؟ أنى نذهب ونحن نقطع هذه الحسور والأحياء المجهولة التى لا ينيرها هنا وهناك سوى مصباح عتيق؟ لقد تركنا منذ طويل شبح نوتردام وأنحدركنا الى ضفة النهر الأخرى تحت سماء قاتمة، وجزنا جسر سان ميشل وجسر تورنل، وابتعدنا كثيراً عن الاوبرا وعن الأحياء الوسطى، ولم نكن نسير مع ذلك فى طريق بوليه حيث تعقد الرذائل المخزية مآدبها، وتضطرم عواصفها الشيطانية المروعة فى ليالى «الصوم» . وكان صاحبي يلزم الصمت .

ولقد تولانى ونحن نطوى ضفة النهر الصامت الشاحب، ونجوز قناطره التى أخذت تقل شيئاً فشيئاً، وأفاريزه التى تظللها الأشجار العالية النجيلية التى كأنها تحت السماء الممتعة أصابع الموتى — تولانى خوف مروع، يزيده صمت دى چا كل؛ وكدت أرتاب فى وجوده الى جانبي وأعتقد أنه شخص مجهول . وكان صاحبي قد قبض على يدي بعنف، فكانت يده القوية ذات الارادة تسمر الكلام فى حلقى، وكنت أشعر أن ضغطه يبدد منى كل عزيم

وثورة . وكنا عندئذ نسير خارج الحصون في طرق شاسعة يظللها الغاب ومخازن النيهذ، وتخترقها الحواجز المغلقة . وكان القمر قد أخذ يبرز قليلا من وراء السحب . فخيّل لى عندئذ أن حوافر الحيات قد أخذت تدوى ، وأن كرا العجلات قد غدا مسموعا يتكسر على الطريق .

وهنا غمغم صاحبي : «لأنه هنا ، فهيا نزل» ، فتلعثمت مضطربا : «أين نحن ؟» فأجابني : « عند إفريزيا طاليا خارج الحصون ، وقد احترنا أطول الطرق اجتنابا للريب ، وسعود في صباح الغد من طريق آخر» . ثم وقفت الحيات ، وترك دى چا كل يدى ليفتح باب العربّة .

٣

كان بهوا شاسعا ، عاليًا جدا ، دهنت جدرانها بالجير ، وأغلقت مصاربعه باحكام ، ووضعت في طوله موائد ، فوقها أفداح من الحديد الأبيض مثبتة في الموائد بسلاسل من الحديد ، وفي نهاية البهو على قيد ارتفاع قليل ، أقيم خوان من الزنك قد غص بزجاجات الحجر ، وقوارير ذات علامات ملونة . وكانت مصابيح الغاز تنثر ضوءها هنا وهناك ، وكان اتساع البهو وانتظامه دليلا على أن العمل فيه حسن رائج .

فدفعتنى دى چا كل الى البهو وهو يقول : « إياك أن تنطق بكلمة ، ولا تحدث أحدا ، ولا تجيب أحدا ، لأنهم حينئذ يعرفون أنك لست من زميرتهم ، وقد يحدث عندئذ ما يكدر . أما أنا فانهم يعرفوننى » .

وكان ثمة بعض محجيين يشربون . فلما دخلنا نهض رب المكان ، ودنا منا كأنما يريد أن يعترضنا ، فرفع دى چا كل ذيل أثوابنا ، فكشف عن الجوارب والأحذية المعينة ، وكانت هذه بلا ريب كلمة الجواز ، فعاد رب المكان الى خوانه ، وأدهشنى أن رأيته أيضا محجبا ، يضع على وجهه قناعا منيرا من الورق المقوى .

وكان الخادمان، وهما عملاقان يشمر كل منهما عن ذراعه المفتولة، يديران الأقداح حول الموائد، وهما مقنعان صامتان .

وكان الشاربون القلائل الذين يجلسون حول الموائد، يتحجبون بأثواب الحرير وأقنعة القטיפفة . وكان ثمة محجب ضخم في زى فارس وبالقرب منه حجابان أنيقان من الحرير الأحمر، وهويحتسى كأسه، سافرا عن وجهه وعمر وشارب ضخم وعين زرقاء باهتة . وكان وحده ذا الوجه البشرى في هذا الجمع الصامت . والحجب هنا وهنا لك من الحرير الأسود، وأغطية الرأس من القטיפفة . فوقفت جامدا أتأمل ذلك المنظر الغريب، فخذني دى چا كل الى نهاية البهو نحو باب من الزجاج أسدل عليه ستار أحمر وكتب فوقه « مدخل المرقص » وأماه شخص خيل الى أنه حارس من حراس البلدية، ولكنني لمسنته حين مرورى فاذا به تمثال من الشمع ذو وجه وردى، فارتجفت اذ ألفت الشخص الوحيد الذى يمكن أن يطمنن وجوده فى هذا الخفاء، انما هو تمثال .

٤

كم ساعة قضيتها فى التجوال بين هذه الحجب الصامتة، وفى ذلك البهو المقيبى كالكنيسة ؟ أجل كانت كنيسة — كنيسة مهجورة — هكذا كان البهو الشاسع ذو النوافذ المطبقة التى نصف معظمها من البناء .

ولله ما أغربه من مرقص لا يُرقص فيه، وليست فيه موسيقى ! وكان دى چا كل قد اختفى فابثت وحيدا بين ذلك ذلك الجمع المجهول . وكان يتدلى من السقف ثرية عتيقة من الحديد فتنتثر من حولها ضوءا عاليا واضحا، وتنبير البلاط المغبر، الذى كان فوق بعضه نقوش كأنه يغطى بعض القبور . وكان فى نهاية البهو مصاطب لعلها مكان الهيكل الذاهب قد أقيمت فى أركانها بعض سروج وأعنة عتيقة . أجل كان المرقص إسطبلًا ! وكان بعض المرايا

معلقة هنا وهناك ، تعكس تجوال الحجب الصامتة ، ولكنها لم تعد تعكسه بعد ، لأن الحجب كانت قد تكدست كلها فوق هذه المصاطب ، وجمدت هنالك صامتة لا تبدى حراكا كأنها تلجأ الى الخفاء تحت اللثم الباهتة ، بل لم يبق ثمة حجب ولا نكرات مختلفة ، لأنها غدت جميعا متماثلة ، تتماها نفس الثوب الأخضر ، وسادت عليها خضرة قائمة فيما وراء الأقنعة ، حتى لقد يخيل اليك أنك أمام وجوه مبروصة . وكانت كل هذه اللثم جامدة كالتماثيل ومن فوق تيجانها السوداء ، تسفر الكوات العليا عن ضوء القمر .

ولقد شعرت أن صوابي يغيب في معترك الروع ، وكان « الخارق » يغمرنى . إذ ما هذا الجمود ، وما صمت كل هذه المخلوقات المحجبة ومن كانوا ؟ ولو مرت بى لحظة ريب أخرى لمننت بلا ريب . فلم أطق صبرا ، بل تقدمت من أحد الحجب ، ونزعت بثافة بيدي المرتجفة لثامه .

فيا للروع ! لم يكن ثمة شئ بالمرة ، ولم تلق عيناى الباهتان سوى فراغ اللثم ، وكان الثوب خاليا من صاحبه ، ولم يكن هذا المخلوق الحى الا شبحا وعدما .

فكدت أجن روعا ، ونزعت لثام الحجاب التالى ، فكان لثامه الأخضر خاليا ، وكذا كل اللثم الاخرى كانت تضم وجوها جامدة كالعدم . وكان المصباح ينثر ضوءه قويا عاليا ، وقد نفذ ضوء القمر ساطعا ، فإسكتنى أيما روعة بين أولئك المخلوقات الزائفة التى كأنها الأشباح ، وذلك لى ريب قاتل أمام هذه اللثم الخالية .

ويا لله لو كنت كذلك مثلهم ، ولو أنى أيضا فارقت هذه الحياة ، ولم يبق تحت قناعى سوى العدم ؟ وثبت الى احدى المرايا ، فألفيت أمامى مخلوقا باهتا كالحلم يتلثم بقناع أخضر قاتم ، وقد توجهت زهور سوداء ، وكان هذا القناع أنا ؛ لأنى عرفت حركتى حينما رفعت لثامى ، فصرخت

صرخة روع منكزة، ذلك لأنه لم يك ثمة في فراغ اللثام شيء : لقد كنت ميتا ؛ و ...

« قزع اذني صوت دى چا كل وهو يقول مؤنبا « لقد شربت ا
أيضا ، ولعمري انها لفكرة غريبة خطرت لك لقتل ضجرك » .
و كنت متمددا في وسط غرفتي ، فوق البساط ، ورأسى مسند الى دقعه
وكان دى چا كل في ثياب السمرة ، يلقي الأوامر الى حادى الذاهل ؛ وك
الشمعتان قد قاربتا النهاية ، يرقص ضوءهما رقصه الأخير فيوقفنى ... لفة
حلت الساعة .



وكان تمام طبع هذا الكتاب بمطبعة دار الكتب المصرية في يوم الأربعاء ٢٤
سنة ١٣٥٠ (٢ مارس سنة ١٩٣٢) م

محمد نديم

ملاحظ المطبعة بدار الكتب المع

مطبعة دار الكتب المصرية

١٩٣٢

(مطبعة دار الكتب المصرية ١٠٣٦/١٩٣١/٣١٠٠)